ظلال معوجة

رواية

جعفر نصر

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ربِّ اشرحْ لي صدري ويسرّ لي أمري واحلُلْ عقدةً من لساني يفقهوا قولي﴾

obeikandl.com

الطبعة الأولى
الكتاب: ظلال معوجة
المؤلف: جعفر نصر
تصنيف الكتاب: رواية
تصميم وإخراج: م/ هشام أنور
المقاس: ١٤×٢٠
رقم الإيداع: 21552 - 2014
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 776 - 004 - 1

التجهيزات الفنية والطباعة
دار يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع
طباعة وتوزيع الكتب في جميع أنحاء العالم
المطبعة: ٢٨ ش ضياء – الهرم – الجيزة
المكتبة: ٣ ش صفوت – محطة المطبعة
شارع الملك فيصل – الجيزة
جمهورية مصر العربية
٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢ - ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩
المدير العام: د. محمد أنور
رئيس مجلس الإدارة: عماد سالم

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

obeikandl.com

الإهداء

إلى روح:

- جدي الشيخ جعفر الدرديري الظل المستقيم شيخ شيوخ السودان.
- روح جدي نصر صاحب شفاعتي الصغرى يوم البعث .
- جدي عبد الله خليل الذي لم يأكل السحت أبداً.
- معلم الأصالة جدي حسن صديق موسى.
- إلى أستاذي الشاعر والروائي الفذ حبيب يوسف القاضي.
- رفيق دراستي المغفور له بإذن الله الفاتح إسماعيل ود الطهار الذي علمني حب الإنسانية.
- روح معلمتي الكبيرة الحاجة : زينب عبد الرحيم .
- ابنتي الموهوبة إيمان الدسوقي نصر .
- صديقي وحبيبي مصطفى البكوش وأولاده «بنغازي» .
- وإلى المصري الأصيل سليل الكرام: المستر تامر عبد الحكيم عامر.

المؤلف

obeikandl.com

١٩٧٧/٧/٢م الأيوض
المعلمة الكبيرة

obeikandl.com

١

استيقظت الانقلاب فزعة من جراء احتلام راودها سنينا.

ورغم أنه يحمل في كنهه المتعة الحسية والجسدية لكونها امرأة، مغروسة في حناياها فطرة الأمومة، كانت لحظة الإشباع الحلمي، تثير في كوامنها حالة من الرفض اللاإرادي، مصحوبة بشعور قوي للغثيان، يرفعها إلى مرحلة جنونية مؤقتة، تحس بها تسري في أوصالها، كان أكثر ما يتلف أعصابها ديمومة هذا الاحتلام، وصاحبه حيث لم تتبدل الصور، المكان هو المكان، الزمان هو الزمان، ساعة الامتلاك الرهيبة بصياحها وجنونها هي هي، العرق المتقطر يعتلي كل مسام جلدها الحريري المنكمش، بعد تشنج ظنته أبديا وقت تلك الذروة المنزوعة غضبًا من أحشائها البكر. نفثت زفرة طويلة لفظت بها الأنفاس المسمومة التي دخلت أثناء الشهيق،أخذت نفسا عميقا رد إليها اليقظة الكاملة، أصلحت الوسادة تحت رأسها ثم تمطت، إذ ما زالت تشعر بعناء السفر المرهق، لمظت شفتيها بكراهية شديدة ونفور، بان في تغضّن وجهها والنغمة الحزينة الصادرة من أعماقها.

- آه حي يا الله

صكت أذنيها،جذبت الغطاء لتستر أردافها المكشوفة، استدارت على شقها الأيسر، كان ضوء الغرفة خافتا يتيح رؤية ألوان الستائر والأثاث في حين بندول ساعة الحائط يدق بخفوت منسجم مع

حركة الستائر المموجة. أصغت الانقلاب لصوت البندول ردحاً، ثم جالت بناظريها تتمعن محتويات الغرفة، دولاب خشب موسكي لامع به ورود منحوتة، تجاورها عيون براعم مبعثرة، ومقابض الدولاب مدهشة التصميم، المفاتيح تحتها تتدلى من ثقوبها كالعناقيد، كانت بالركن القصي منضدة زجاجية قوائمها معدنية، تغوص بينها رجلين أماميتين لكرسي وثير منجد، تطل منه نتوءات مسامير مذهبة متساوية المسافات، مضفية لمسات جمالية رائعة. كانت مروحة السقف بطيئة الدوران، تبعث هواءا فاترا يداعب كل شيء برفق، ماعدا شعرها لم يستظرف الدعابة، فتطاير حول وجهها. لمّت خصلاته العربيدة بيدها اليسرى، واستأنفت التأمل في الأثاث، علها تستطيع سَبْر غور مكنون سحر الفن، وقدرة الإنسان في إبداعه، أيقنت لحظتها أن هدى تتمتع بشفافية مرهفة في الاختيار. هزت رأسها بالموافقة ثم أفصحت : حقيقة «هدى مصطفى» ذوقها حلو

تمطت فوق السرير، تأوهت متحدية الكسل المستوطن خلاياها منذ أمد، تثاء بت برهة متأثرة بالنعاس، لعقت شفتيها فانتفضت مذعورة لمذاق الطعم الحمضي، للقبلة التي نالتها في الاحتلام. نهضت متوترة الأعصاب، عكرة المزاج. عانت في السيطرة على الحذاء، فتحت الدولاب بعنف... انتقت ملابسها التي تحتاجها، ثم أوصدته بقوة.

اتجهت نحو الباب تترنح... كان البهو مضاءً بأشعة الفجر.... الظلمة ما زالت تقاوم بضراوة،عبرت الممر الضيق دون الاصطدام

بشيء.... ولجت الحمام، أغلقته تعرت. لم يولد احتكاك الملابس إثارة، أدارت قرص صنبور الماء، ذكرت اسم الله بدأت تتطهر، خللت شعرها ثم طافت براحتها على جانبها الأيمن فدلكت ظهرها، ثم نهدها العنيد الذي تحدى الرذاذ المنعش، و باطن كفها التي تطوف حوله متوخية إزالة النجاسة. جسته فأبدى اهتزازًا قدسيًا وشموخًا لا نظير له. انتقلت لشقها الأيسر، مسته بلطف فاعترتها رعشة خفيفة، أسرت خدرا لذيذا جاب مفاصلها، اقشعر بدنها فصاحت وجلة:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

- استأنفت غسل الرجل اليمنى حتى أخمص القدم. ثم اليسرى، عممت جسدها بالماء، ارتدت الملابس بحذر حتى لا تنقض الوضوء. كان الجو صحوًا أضاف إليه البلل برودة مرعشة.

صلت الفجر وهي ترتعد، جلست القرفصاء بعد الصلاة تدثرت جيدًا،رطبت حلقها بالريق، ثم أنشدت الأنشودة المباركة بخفوت تستلذ سماعه....

"اللهم صلّ وسلم على عين الرحمة الربانية، والياقوتة المتحققة الحائطة بمركز الفهوم والمعاني. فلما بلغت" صلاة تعرفنا بها إياه".... أغمضت عينيها لتسمو بروحها للتجليات العلا، حيث تتبلور الذكريات. اقتحم والدها الشيخ "عبد الرحيم "مخيلتها بحضور تام، ووضوح كامل، اللوح الخشبي فوق فخذه الأيسر، يئن تحت وطأة صرير قلم البوص... المرضى ورفاقهم ينتظرون بشغف محو اللوح

لينالوا الشفاء والبركة بالمحاية، والأنس عن الزمن الماضي، حيث الحياة أكثر بساطة ووفرة. سمعت مناداته

" يا بنية المويّة".

أجابت وهي في خدر النساء

- " حاضر يا ابوي"

- طيب سريع أعمامك عطشانين.

أقبلت مسرعة تلهث، وانحنت لتصب الماء في الكوب فقال الشيخ محمود:

- كبرت يا عفريتة الله يحفظك... واستطرد:

تتذكر يا عبد الرحيم أيام الأزهر الشريف؟

- نعم أيام الرواق السناري في ذاكرتي، كأنها حصلت أمس حتى أصحابي السنغاليين والغانيين لما أغمض عينيي يتراؤوا أمامي... وغيّر دفة الحديث

- سوي الشاي يا بنية، ثم أفاض

كان يعجبني الشيخ «صالح «في درس الجمعة، ما تركت شاردة ولا واردة من كلامه إلا دونتها، كان بحرا في العلوم.

انفلتت منه ضحكة عالية قال بعدها:

أظنك نسيت نهرة الشيخ «علي أدهم «لك يا محمود

«يا حمار اكتب هذا العلم هذا فيض إلهي».

يا شيخ عبد الرحيم كانوا رجالا آي والله. إلا ربك يكفينا شر شيوخ آخر الزمن، أصحاب البدع والفتن. الأخوان المسلمون يا شيخ عبد الرحيم خوارج هذا العصر الجديد يستبيحوا دماء الناس بإسم الدين، والتيارات الدينية المتشددة خارجة من عباءة الأخوان.

نعم، لكن حسن الترابي وحزبه وحكومته فتنة السودان الكبرى، ستراق دماء لم ترق من قبل أبداً. إنما المصيبة الكبيرة لو اشتروا اخرتهم بالمال.

- نحن متوكلين على الله يا شيخ عبد الرحيم.

ونعم بالله.

لين حاج محمود صوته بحسرة، الرئيس السادات الله يرحمه قالها صراحة "أنا كنت غلطان لما طلعتهم من السجون، دول مكانهم تحت الأرض ما فوق الأرض". فأغتالته أيادي الجماعة الإرهابية.

لقد كان بطل الحرب يا حاج محمود.

ثم التفت الى الفتاة وقال بود «بارك الله فيك يا بنية، إن شاء الله شاهيا سمح، رأسي كسره الكيف.

اكتفت بإيماءة رضاء.

وقتها سألها الشيخ «المنذروي «عند الركن البعيد...

- حافظة جوهرة الكمال؟

فأسبلت طرفها بالإيجاب

تواترت الصور في ذهنها متلاحقة يشد بعضها بعضا مفضية إلى حنين فياض زاخر، فجر في أعماقها أشواقاً كادت تدفعها للبكاء، لولا وقْع خطى آتية. عدّلت جلستها تأهبا لأسئلة يطرحها شقيقها الفاتح. أطرقت نحو الأرض. لكنها بُوغتت بصوت دافئ يقول:

- « حرمًا يا بنت»

- « جمعا يا خال أزهري»

فرد:

- الله حلوة منك كلمة خال أزهري، سنين ما سمعتها، لو قالوها لي في العهد البائد وسمعها الرئيس أوأعوانه، كفيلة بإحالتي للصالح العام»

- شيء عجيب اسمك يحيلك للمعاش، وأنت ما شاء الله!! هي هي

- يا بنت ما تجاملي وين الشباب؟ الكبر دخل.

- يا سعادة السفير من غير مجاملة يعني»

قاطعها إسماعيل بضحكة فاترة وأضاف...

- يعني هي أساس مربط الفرس

- يا خال أنا ما قصدت، هي هي

- خلاص مسامح، نحنا عندنا كم انقلاب

- أظن سبعة، وما خفي أعظم

- أكيد صرت سياسية، أصلها الواحدة مما تسمع بدخولها الجامعة يقوم لها ريش

- تفتكر قام لي ريش يا خال؟

- أكيد كلامك يدل، ولو مستقبلا

- أنا تفكيري دائما منحصر في سؤال، كيف يعيش الإنسان في هذا الوطن بكرامة وسط الفقر والمرض والاضطراب؟

- أعتقد عندما تكون، داخل إنسانه إنسانية عظيمة

- وكيف تكون ؟

أولاً: تعليم النشء، وتمليكهم الحقائق من غير دجل.

ثانيا: التوزيع العادل للثروة، وإشاعة الحرية

ثالثا: محاربة الإرهاب بشتى صوره

رابعا: الاهتمام بالمرأة، تربية وتعليما وتثقيفا، كما جاء في الشعر المتناقل

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

وهذا البيت وسام شرف لشاعره الفذ

أومأت برأسها.

فاستطرد: الشاي جاهز

وقفل راجعا. كانت «هدى «في البهو تسوي خصلات سارة الصغيرة؛ تمهيدا لذهابها للروضة.

الفاتح قبالتها يرشف الشاي، وتارة يخرج لسانه ممازحا الصغيرة، التي ما فتئت تصطنع العبوس، مظهرة أسنانها البيضاء المتفرقة.

جلس إسماعيل جوارها ولاطف سارة... انت حافظة نشيد الروضة

- حافظاه ..حافظاه

- طيب أسمعه...

- يا روضتي الجميلة ...فيك أقرأ وأكتب وألعب في النجيلة

تمايلت طربا للشطرة الأخيرة استجابة للتصفيق.

فقالت الانقلاب القادمة لتوها:

عسل .... وأردفت صباح الخير

تطلعت«هدى» للمرأة النخلة ذات العينين النجلاوين والفم المرسوم بطريقة خرافية. كان الثوب المورد يلف قوامها، كأنه صنع خصيصا ليلائم جمالها الفريد الخلاب. لبثت برهة مفتونة، شعرت بعدها بنار الغيرة بين ضلوعها.

فاستبدلت النظرة الدَّهِشة بوجه صارم الملامح. كانت المقارنة

شاسعة البون. شباب حيوي نضر لا يقاوم، وذبول يتوالى طرديا مع بزوغ الفجر الجديد. في تلك اللحظة بدأت الحرب من جانب واحد، شعر بالدونية في الأنوثة. لم تعرها الانقلاب التفاتة. فقد كانت في عالم آخر، تستنبط منه الفكر، فهي ترى بعقلها لا ببصرها. حتى عندما وبخها الفاتح قائلا،

- عكرتي مزاجي بتأخيرك.

قابلت غضبه بابتسامة ثقة

ايقظت روح دعابة اسماعيل فقال

لو ما كنت خال

ردت هدى بتذمر

- والله انت جنيت كلامك دائما ما فيه فائدة»

اكتفى إسماعيل بضحكة ودودة.

أصاب الفاتح امتعاض وحنق، بعد رؤية الانقلاب بهيأتها الملائكية الساحرة. ظل صامتا يحدث فكره عن كيفية اصطحابها للجامعة. حيث عيون الطلاب الشهوانية تلتهمها بشراهة.

فار دمه وهو متكئ على الكرسي الوثير يهزهز ساقه اليسرى، غشيته موجة قلق وتوتر. ألمَّ به ضيق صدر وكآبة، حينما نبهه إسماعيل لمغادرة المنزل، فخرج يجرجر قدميه. كانت السيارات تمرق مسرعة من الأزقة، مثيرة غبارا كثيفا يملأ الأفق.

الأطفال ينسلون أيضا مسرعين نحو مدارسهم، مخلفة أحذيتهم أتربة خفيفة، تختلط بدخان عوادم السيارات، تاركة جوًا خانقا مقلقا. تنفست الانقلاب بصعوبة وهي تحاول فتح باب السيارة، ارتمت فوق المقعد كما لو كانت في شبه غيبوبة، استنشقت بشراهة الهواء الراكد. أنزلت الزجاج الجانبي، تحركت السيارة فاندفع الهواء يقبل خدها النضر. شغّل إسماعيل جهاز التسجيل، فصدح صوت الفنان وردي بأغنية قديمة ممتعة تدعو للاسترخاء. في حين هدهدة السيارة المنطلقة تخلط المشاعر، لتكون ذات طابع تفاؤلي جالبا للنعاس، كان الصمت والرهبة يسيطران على الانقلاب. المحلات والشركات تعلن لناظريها أسماءها بعدة لغات. الطلاب والعمال على قارعة الطريق يشيرون لسيارات الأجرة. شياه وكلاب عند أماكن القمامة، الإطارات تُحدث صريرا وهي تنعطف مع الطريق المعبَّد. إشارات المرور الحمراء، توقف الحركة، دقائق ثم تسمح. كان الفاتح يغتنم لحظات الوقوف فيتأمل وجوه الفتيات عند المظلات في انتظار الترحيل، في حين الصبية المراهقين جوارهن، يطلقون إشارات الغزل.

كانت أعصابه تكاد تتلف الوساوس الخبيثة تداهم مداركه، الظنون السيئة تتمدد في عقله. التفت للانقلاب، رشقها بنظرة فاحصة تحوي التهديد والوعيد، لاذت عنه استحياء وفهمت مضمون الرسالة، ردت لنفسها أنا الانقلاب. امتلأت روحها بالفخر والاعتزاز، لاقتحامها المستقبل المخبؤ، منذ زمن في عقلها النشط، نسجت

عالمها الخاص، فاقت منه بحديث خالها

وصلنا الجامعة.

دفعت باب السيارة بيد مرتعشة، انزعجت عند انزال قدمها. تحاملت على نفسها الوجلة، تسللت بهدوء فيه رعدة، اعتدلت بعد عناء ثم نظرت للافتة الكبيرة، قرأتها بصوت خفيض،

جامعة القاهرة فرع الخرطوم

خالجها شعور جميل مشوب بخوف. تخطت البوابة. كانت قدماها مصابتين بثقل مصحوب برجفة. كانت الملصقات المثبتة على الجدران بألوانها الزاهية تلفت الانتباه. طالعتها بحب استطلاع

الجبهة الديموقراطية، تهنئ الطلاب الجدد، دعامة الحركة الطلابية في المسيرة النضالية لحماية مكتسبات الشعب، صاحب المعجزات. الاتجاه الإسلامي يرحب بالطلاب الجدد، ذخيرة الحركة الإسلامية، وقوتها الدافعة لإرساء قيم الخير والعدل، وتطبيق شرع الله، أنصار السنة المحمدية يهنئون الطلاب الجدد ويتمنون انصهارهم في بوتقة السلف الصالح.

الطلاب الاتحاديون حماة الاستقلال يرحبون بالطلاب الجدد درع حرية الفكر والمساواة.

الأنصار أحفاد الإمام المهدي يدعون الطلاب الجدد للانخراط في نهج الصحوة القديم.

جبهة كفاح الطلبة تناشد الطلاب الجدد للالتحاق بصفوف القومية العربية، أمة واحدة ذات رسالة خالدة.

كانت الإعلانات الممزقة تصبغ الجدران بطابع غير حضاري، خصوصا أطرافها التي تتراقص مع الريح محدثة صفيرا همجيا، يمتص الأخيلة الوقادة.

لوت الانقلاب شفتيها، واصلت السير وسط أفواج متباينة الألوان والأشكال. لا تكف السنتهم عن الثرثرة. شعرت بالخوف يتسرب إلى أعضائها.

كان الفاتح يسير محاذيا لها وبصره مصوب تجاه الأعين النهمة مجبرا إياها على الانكسار. لكنه فشل في حركة الشفاه المتلمظة وإهتزاز الشوارب. فاستعاض بالتطلع لشعر الفتيات المسترسل، الذي جرجره نحو القفا، ثم الكفل والأرداف، وأخيرا إلى فتحة فوق الكعب تنفرج مفسحة رؤية الساق المغزلي، ثم تلتئم مخفية إياه. انقاد الفاتح لبريق السيقان المتحركة، وعجائب الانغلاق والانفتاح المنسجم مع إيقاع الخطى. فاعتقد لحظتها ان الشيطان هو مصمم هذه الأزياء. لما تمتاز به من قدرة استدراج لمعرفة كوامن الفتنة، وكيفية الاشباع. اندلعت ثورة سلاحه الغريزي، مدعمة بومضة إدراك لإصابة الهدف. كان البنطال يكبح آلته الرهيبة في حين أعصابه مشدودة كوتر القوس. انتشلته الانقلاب مما فيه قائلة:

وين ماشي، تعال نسأل من مكتب المسجل.

تلعثم ثم أفصح، حاضر حاضر،

انقشعت تخيلاته المشبعة باللذة وتلفت حوله. كانت هنالك عيون لا تطرف، لأوتاد بشرية مفتونة بهالة سحر لا يبعد عنه خطوتين. الفتيات جالسات على الأرائك فاغرات الأفواه، كأنهن مهددات بخطر غير منظور يتحسسن بالأكف الأثداء

اعرض عنهن يمينًا، فأبصر مخلوقات سوداء تنتعل أحذية سوداء، تليها جورب وفساتين سود، وأيضا قفازات وخمارات سود. تخيل الشيطان، فلم يجد له شبيها سوى هذه الجعارين.

تضاحك ثم سأل أقرب الفضوليين:

- لو سمحت وين مكتب المسجل؟

استفاق الفضولي من الشرود الأبله قائلا :

- « نعم، نعم»

كرر الفاتح السؤال

- لو سمحت وين مكتب المسجل؟

- خذ يمينك في نهاية الممر تجد لافتة

- طيب شكرًا

- العفو العفو ثم استطرد

- «آمنت بالله، برلومة خطيرة نار الله الموقدة»

توقفا أمام الباب بضع ثوان.

طرق هو الباب ثلاث طرقات

انتظرا مدة فسمعا كلمة تفضل

ولجأ المكتب . كانت صورة الرئيس المصري المؤطرة بإطار ذهبي، تأخذ حيزا كافيا على الجدار.

كانت نظرة الرئيس تحمل تفاؤلا حقيقيا نحو المستقبل. وضعت لبناته منذ زمن ساحق قديم، تؤكده ملصقات الإهرامات وأبو الهول بالجانب الآخر من الجدار. كان الرجل الأصفر كزهرة عباد الشمس، متكئا على منضدة كبيرة، منهمكا في ترتيب الأوراق التي تجاور علما منصوبا يرفرف.

قال الفاتح وهما قبالته:

السلام عليكم

رد دون ان يرفع وجهه الذي تعتلي أنفه نظارة سميكة

- وعليكم السلام

رتب أوراقه المبعثرة واستطرد

نعم

رد الفاتح جئنا للتسجيل

تطلَّع إليهما ثم قال:

- وين الأوراق ؟

رسمت الانقلاب بسمة هادئة، ثم أخرجت المستندات، كشف افترار شفتيها فلجة أسنانها فانبثق بريق مشرق، اعتلت وجه الرجل تجاعيد عميقة، ساعة اكتمال صورتها بشبكية عينيه الغائرتين خلف النظارة. ظل مدة مفتوح الفم وهو يتناول الأوراق

باغته الفاتح بلهجة عنيفة

في شيء ناقص ؟

تلجلج قليلا من أثر الصدمة ثم نطق

اربعة صور فتوغرافية يا ابني.

تصفح المستندات، مكث فترة مقطبا حاجبيه وابتدر الحديث

- يا ابني الاسم إيه ؟

رد الفاتح بغضب :

- الانقلاب عبد الرحيم

زم الرجل شفته استهجانا بما سمعه، نظر لساعة معصمه ثم قال:

- يا ابني روح شارع الحرية فيه معامل للتصوير السريع

استدارت الانقلاب بخطى يسمع لها وقع موسيقي، لم تجد مندوحة وهي قرب الباب، ان تسوي ثوبها الذي أعلن التمرد، في مواقع حساسة

ذات وزن لا يستهان به. لم يبد الفاتح قط امتعاضا وضجرا كما هو الآن. تقل على يساره ثلاثة تقلات نادبا إيها حظه الشؤم.

كانت حشود الطلاب منتشرة بالممرات في الفناء، وقرب الأبواب الموصدة وعلى الأرائك امام محل بيع المشروبات، كانت لديهم جميعا روح التطفل. شقا طريقهما وسط الجمهرة ولقط الحديث، صاح طالب من مكان بعيد

- اقسم بالله المتجردة

رد عليه آخر نديّ الصوت

- لا يا غبي بل فينوس ملكة الجمال

فقالت واحدة حسودة شعرت بامتهان كرامتها كأنثى

- الجمال مسخور

شاطرتها ثانية بضحكة عميقة ثم أردفت

الما بتلحقه جدعه.

كانت خطوات الانقلاب تزداد ثبوتا في وقعها، فقد زالت المخاوف التي لازمتها عند الدخول. فادركت لتوها قيمة الاصرار، لاقتحام المستقبل وانتزاع حياة كريمة في زمن أصبحت فيه حقوق الإنسان مهدرة.

أوقفت فتاة رقيقة مسالمة احست تجاهها بذلك الشعور الدافئ فسألتها

- لو سمحتي أوصفي لي شارع الحرية

أجابت تلك بود

- على يمينك مباشرة شارع الحرية

- شكراً

- العفو ما عملت حاجة

فقال الفاتح باستظراف

- مشكورة عملت حاجات

انطلقا في شارع ترابي موحل، ثم دلفا للطريق المزدحم بالمارة .الباعة المتجولون يتصايحون باسعار بضاعتهم. بائعو الصحف يحملقون يمنة ويسره.

الصبية المتشردون يتكئون على الحوائط. شرطي المرور يرشد حركة السير بإشارات يده.

المحلات التجارية تعلن عن بضائعها، من وراء الأبواب الزجاجية الموصدة. أواني منزلية، أدوات كهربائية، ملابس رياضية، أشرطة كاسيت، مواد غذائية، وفجأة صادفها معمل للتصوير الحديث، بملصقات صور للأطفال البريئين، والعرسان المشرقة عيونهم بالأمل في حياة زوجية سعيدة، تجاورهم فتيات يحببن صور الخلاعة.

دفعا الباب الذي كتب عليه عبارة ادفع.

اضطرب فتي التصوير لقدومها، فهب يحيها بحفاوة انحنى قليلا، ثم قال بابتسام متكلف

- تفضلوا ...تفضلوا

وأشار بحركة كلاسيكية اتجاه غرفة التصوير.

شعرت الانقلاب بالنفور منذ الوهلة الأولى، إذ بدت على قسمات وجهه تعابير شريرة، قدرتها بحدسها المرهف. فحركاته الاستعراضية، هي مداهنة وتلطف في غير موضعه.

لم تشك في خسته لما سمعته يقول،

أي نوع من الصور

أجابت بخفوت،

صغيرة وسريعة

أفسحت المجال للفاتح للدخول قبلها الغرفة. انعطفت حيث المقعد أمام آلة التصوير.

أصلحت ثوبها، ثم جلست تنتظره، ولج المصور مدعيا المسكنة.

راح يظهر قدراته الفنية، بإضاءة الكشافات بطريقة بهلوانية، انحنى ناحية الآلة. أغمض عينه اليمنى، نظر بالأخرى من ثقب العدسة.

أدار قرص تحكم المسافة، قرب صورتها مرارا، ثم أقصاها بعيدا

رويدا رويدا، انطبعت في ذهنه ملامحها، لفّ مفتاح التصوير مزق السكوت المخيم قائلا.

- دقائق وتكون جاهزة

دلف للغرفة المظلمة بالفلم. كانت يده ترتعش وقلبه يكاد يخرج من صدره، لشدة خفقانه، داهمته قوة خفية للتحميض بسرعة. أضاء المصباح الأحمر لرؤية الأدوات، أطفأه وباشر العمل في الظلمة. كان تلهفه وتشوقه يحتمان عليه سرعة الانجاز، أشعل الضوء الأخضر للطبع. بانت ملامح الوجه المنسق، لكل عضو فيه آية سحر خاصة، تنتحل صفة اللامعقول. عينان واسعتان، سعة لا يمكن التكهن بأنها طبيعية، فالسواد والبياض فيهما يشكلان تضادا حقيقيا، تترآى روائعه مستقلة. الأنف مستقيما ودقيق التماثل، يخرج هواءه خمريا دافئا، إذا الجو رطبا، وفاترا منعشا بروائح لا منتمية إذا مال الطقس للحرارة مكونا السراب المائي إلى ما لا نهاية. لوى شفتيه حين رمق فمها ذا الثنيات الدقيقة المشربة باحمرار فاقع فاتن، مع تراخي بسيط للشفة السفلى، نتج عنه فراغ كفوهة كهف، بينما الشفة العليا تمثل سقفه، في حين تشير زاويتاه اللتان تمثلان رأسي سهمين متعاكسين، إلى خدين متوردين بهما صفرة ذهبية، شملت وجها مقوسة حاجباه، قبّل الصورة، قبلة زخت إليه الفكر الشيطانية المتوالدة سفاحا، تبادر الى ذهنه تكبير صورتين، واحدة يلصقها بالدولاب يراها في بواكير الفجر، ليكون صباحه ذا حظ عظيم، لا تحصى نعمه ولا تنتهي عجائبه. تذكر المساء فتراقص طربا، إذ داهمته أخيلة وخواطر ما

كانت تاتيه لولا الصورة، خاطب نفسه مبتهجا

– سأمارس عادتي السرية بمنتهى التشوق، اصل الى لذة لا يعلم مداها سواي.

قبّل الصورة، خاطبها بانكسار، ساضعك بالمحل حتى تجلبي الرزق، أرجوك كفي عني حسد العيون الشريرة. اف لو سالني الزبائن عنك ساقول

أمنا حواء

تضاحك بخبث وانسل

فقال الفاتح وقد احتواه الملل

– كم الحساب؟

– خمسة جنيهات فقط

قص الصورة بالقاطع المنشاري ليعطي لمسة جمالية للإطار، انفرجت أسارير الانقلاب، تمعنت صورها الملونة، تداولتها بحرص شديد من يد ليد. لمحت اضطرابه فأرادت زلزلة افكاره السابقة واللاحقة فردت

– شكرا

– لا شكر على واجب المحل محلك في اي وقت

نفخ الفاتح زفرة ثم دفعها أمامه. كانت قصاصات ورق المطابع،

لاهية فوضوية المرح، تعاكس مكانس عمال النظافة المنشغلين عنها بمناقشة قرارات النقابة، فتهرب من الأماكن القذرة الى النظيفة.

ابتدعت فنونا جديدة للانتشار، تحدت النظام العام اغترفت أفعال مخلة بالآداب، إذ صارت تنحشر في اماكن حساسة عند الفتيات، ولسان حالها يقول عاشت مؤتمرات إصحاح البيئة. فزعت الانقلاب من قصاصة اغتنمت فرصة انشغالها بتهذيب الثوب، فاندست بين نهديها دون حذر لما يصيبها من تمزق، ارتبكت الانقلاب في إخراجها، في حين الشباب العاطلين واصحاب المهن الهامشية، لم تتمكن أفواههم التفوه بعبارات غزل فاضحة او مازحة، مما أثار حفيظة احد ارباب المعاشات الإجبارية، الجالسين على الكراسي الهزازة تحت الشجرة الظليلة، أن علق ساخرا

تعوي الذئاب على من لا كلاب له .. وتتقي صولة المستأسد الحامي

فقال رفيقه الفكه

- صدقت وعيني باردة

انثلج صدر الفاتح لدعابات وضحكات أرباب الصالح العام البريئة أولئك النفر الذين احيلوا للتقاعد لعدم الكفاءة فقط، لأنهم أخلاقيون ولو كانوا غير ذلك لآلت إليهم الكفاءة المطلقة. نفث زفرة لتعاسة الأمة. تسلق تلا لبقايا عمارة شُيِّدت، أخذ على عاتقه انتهاك حرمة الطريق، يحدوه امل لانتهاك حرمة الجامعة. مستقلا تواطؤ عمال حفر المجاري. تعثر فاندفع غبار فتح أبواب الاشمئزاز لفتيات،

طلين وجوههن بمساحيق وكريمات تحفظ نضرة البشرة. ولشدة غيظهن أخرجن مناديلا طبية من الحقائب، ثم تمخطن طاردات بذلك فيروس السحائي. لم تجرؤ الانقلاب بالأتيان بضحكة، ولتبدو وقورة تلثمت بالثوب. كان فناء الجامعة مزدحما بوجوه جديدة، جاءت من كليات بعيدة وصلها خبر الفتاة ذات الحسن المتفتق. حتى التنظيمات السياسية، هي الأخرى أوفدت مندوبين لاستقصاء الأنباء، ورصد السبل الكفيلة بضمها واحباط محاولات الغير.

حتى الطلاب الوسيمين والبنات الجميلات، جاءوا لمشاهدتها ثم التخطيط لمد جسور المودة والألفة، فالفوز بصداقتها تعني أياما جامعية لا تُضاهى.

قال طالب – موفد من قبل رابطة أبناء الريف–، حضر سيرا على الأقدام من كليته البعيدة :

– أقسم بالله هذه اخبث دعاية بثتها كلية الآداب لإقامة الندوات السياسية وأركان النقاش، واحتكار المنتديات الأدبية في ساحتها وعليه فالتحفة الفنية خديعة ليس إلا.

أمَّنت على قوله طالبة كلية العلوم

– إشاعة إشاعة يا جماعة

اشتعل الهتاف والتصفيق نكاية بطلاب كلية الآداب

فقال طالب من كلية التجارة

انكشف المستور وتفرق الحضور عاصركم شنو يا ناس على الكذب.

أجابت طالبة آداب اعتصرها الحديث قالوا الكحة ولا صمة الخشم.

ردت طالبة حقوق قالوا حبل الكذب قصير

حينها قال مندس أراد الفتنة

قالوا عندها غرة صلاة

فانطلق هتاف تكبير، الله اكبر تهليل، لا إله إلا الله جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا

فانبرى طالب مسالم

لا سياسة ولا خساسة

فارتفع هتاف صادق لا سياسة ولا خساسة

تابع هو : نهنئ طلاب كلية الآداب للفتة البارعة، في ابتكار كذبة أبريل ونشكر اختنا المجهولة نار الله الموقدة

فقال له رفيق رآها

- انا شخصيا شفتها وقيل ليس من رأى كمن سمع

- هي حقيقة تحفة مدهشة

بتتكلم جد؟

انتقلت الانقلاب وقتها من مكتب المسجل لمكتب رؤساء الشعب حيث لجنة مكلفة بفحص الأوراق الثبوتية

تفاديا للتزوير والتلاعب، نظر رئيس اللجنة للاوراق المقدمة قطب حاجبيه

ثم طرح سؤاله

انت اسمك الانقلاب

نعم

التفت الى الأعضاء مستفسرا

هل سمعتم اسم الانقلاب يطلق على النساء؟

رد عضو

كل شيء جائز في هذا البلد، ربما يأتيك طالب اسمه الأمن العام.

أجاب آخر:

- هل مستنداتها سليمة؟

فقال الرئيس :نعم مئة في المئة

انتهز الثالث الفرصة:

- ما علينا مزاج أبوها وهو حر

وقع الرئيس والأعضاء ثم أبدوا مشاعرهم النبيلة سويا

نتمنى لك دراسة موفقة

أجابت الانقلاب شكرا

اكتفى الفاتح بهزة راسه ودمه يغلي في عروقه

كان بالفناء ركن نقاش محتدم، يحال وضع الأتحاد الطلابي الراهن، وما يمكن ان يفعله للجامعة في مجال اسكان الطالبات

تاملتهم الانقلاب الملثمة وتابعت السير. كان غالبية الطلاب مستقرين بكافتيريا الجامعة لتناول وجبة الفطور، محبذين الاختلاط بفوضوية على الأرائك يتبادلون احاديث بريئة، تتخللها ابتسامات خجلى لعاشقين دار عنهم اللفظ، حدّج الفاتح الانقلاب بنظرة استكشافية، وقد سمعت ما سمع لم تتجاوب معه

فابتدر الحديث

– ما رايك في الفطور هنا

يا ريت أنا جيعانة

طيب نجلس هناك

انتقت مكانا تجلس فيه ريثما يعود، اطرقت تجاه المنضدة مخفية حلاوة، الأسطورة خلف اللثام. كان صبيي المطعم يمسح فضلات الطعام، وأذنه صاغية لطلبات الرواد. بينما لسانه لا يكف عن ذكر أصناف الأطعمة بطلاقة.عاد الفاتح بوجبة تعتبر تحصيل حاصل، تذوقتها الانقلاب فقالت

ما مثل ابوك إلا بربيك

ثم خاطبت نفسها

« طلبة الجامعة وأكل الجامعة شيء واحد»

رد الفاتح أفضل من الجوع

اماطت اللثام لتأكل، انحسر الثوب متجاوبا مع الهبوب عن الصدر الكامن خلف الفستان. فبان السلسل الذهبي مسحورا على الجيد يميد كما يحلو له.

فوقف صبي المسح عن مزاولة عمله لما رآها، فقد عصفت به بداية مراهقته للنظر إلها، بتبلد أثار الانتباه. خيم سكون ظاهر، لكن البواطن عجت بانفعالات وخيالات فاحشة، وأحلام يقظة مستقبلية تجاوزت الواقع.

كانت الانقلاب مدركة بحدسها، أن الوجوه تتحرك تجاهها حركات لا إرادية تماثل تلك التي يبديها نبات عباد الشمس تجاه مصدر الضوء. مشت خطوة خطوة مستنطقة قوامها العربي الأفريقي الرائع . كان الفاتح منقادًا لحب استطلاع منشأه بروز نهد برتقالي مدبب الحلمة، توارى قوامه وراء الباب الموارب، مأخوذة صاحبته بثرثرة ودودة أصابت الحلمة برجفة. زلزلت رغبته المكبوتة ووجدانه ايما زلزلة، انتهت به للتشنج والصمت الأجوف.

شاطرته الانقلاب السكوت والتحديق، احتفظت بالطمأنينة وهي مجبرة للوقوف مدة طويلة.

استرجعت احداث يومها. كانت الأفواج تتدافع لدخول الجامعة اتقاء لوطأة الحر. بلعت الانقلاب رضابها محاولة ترطيب جفاف حنجرتها، وغضب وشيك الانفجار. تململت ثم صاحت منفعلة

خلونا نطلع دي أنانية وعدم إحساس.

دفعت الفوج بكلتا راحتيها مفسحة فجوة للخروج، انتضى ثوبها فقالت بتأفف

- أف.

obeikandl.com

obeikandl.com

٢

قطعت خطوات رهف المقبلة، انديا خواطري للحظة وجيزة عن يوم أمس، ذلك اليوم الذي كان منذ صباحه مليئا بأفكار وآمال عراض.

راودتني بالحاح، حاولت التخلص منها بالانهماك في الأعمال القيمة والتافهة لكن دون جدوى فكلما أردت الفكاك، أجد نفسي أغوص في الرؤى والخيالات. كانت روحي تواقة للحب تبحث عنه وسط عيون الحسناوات، ولما كنت معلم فيزياء اتاحت لي المهنة ولوج عالم النساء بصور شتى. بيد ان موهبتي الشعرية في ديوان " أزهار لم تتفتح بعد " صار مفتاح قلوب العذارى. أضف لذلك اسمي الغريب، يوسف الفحل، ذلك الاسم الذي كان عمي حينما يذكره يبتسم، خصوصا بعد ما نبت شاربي غزيرا، وتدلى على خدي مضفيا بلونه الأسود هيبة رجولية على وجهي الأسمر، زد عليه قامتي المديدة الممتلئة. قال لي يوما وهو يتضاحك - يا ابني تساوت الكتوف، وقل المعروف يا وليد.

كان ما عندك معزة في قلبي كلامي بدسه في جوفي.

فقلت وقد تملكتني الرغبة في انطاقه

معقول يا عمي تدس علي

فغرت فاهي باندهاش استدرجه للكلام بصراحة

تململ في جلسته، أصلح عمامته ثم فتل شاربه الطويل المبيض، واستطرد بجدية

- انت ما تميت الجامعة؟

فقلت تميت الجامعة يا عمي، وبتقدير جيد جدا

يبقى مافي شيء قدامك إلا العرس، كان أبوك بخجل منك أنا النصيحة ما بيلعها. ابوي الله يرحمه قبل ما يموت وصانا قال لي يا عيالي

" اشربو المريسة ودقو الفنيسة" الله ما شق حنكا ضيعه،

الله يرحمه، تزوج سبعة نسوان، خلى بعد وفاته أربعة في حباله.

ما شاء الله عياله وعيال عياله، السيف يقطع ويفضل فيهم، إلا ابوك كانت معزته خاصه دائما يناديه ولدي الفحل، والفحل ما عواف، وابوك ما شاء الله اتزوج من الشمال والشرق والغرب، حتى في الجنوب عرس قرتيتاوية يمكن يكون والد منها، وكله بالحلال وما قصر في الوصية أبدا وانت مالك.

استدرت لشقي الأيسر تجنبا للخدر. انفلتت مني ضحكة فقد طفرت الى بالي أيام الجامعة. أيام قضيتها اجلس مع الرفاق والرفيقات على الخمائل المرمرية حينا، وعلى الأرائك النائية حينا آخر، نتجادل في السياسة والدراسة، لكن أغلب الوقت كنا نوليه للعلاقات الخاصة،

بالذات نحن أبناء الريف اتاحت الجامعة لنا الاختلاط بالجنس الآخر، الذي لم نكن نعرفه في السابق إلا مع الأقارب وبتحفظ.

تولدت لدينا قدرة فذة للتفوق في الكذب الابداعي، فاسترعينا لفت انتباه الفتيات الحسناوات المترفات. كنا نتسامر معهن الى وقت العشاء، كن ينجذبن إلينا لفحولتنا وتشربنا بالكرامة فلم نفعل طيلة سنوات الدراسة ما يخدش الحياء كنت ساعة اختلائي بنهى الفاتنة تحت ظلال الأشجار الوارفة، أو عند الأرائك المهجورة نسترق النظر والابتسامات، نتبادل شرب العصير نسمو إلى ذرا عالية نسجها الخيال. كانت نهى فتاة رائعة يرى في محياها أثر النعمة، متفتحة على الحياة بثقة وقوة تفكير، يسندها حديث عذب تحلي لجنة لسانها مقاطع الكلمات فيه مصحوب بابتسامة حلوة لا نظير لها في الرقة، تأخذني إلى عوالم، الله وحده يعلم سرها. كان تواضعها مطبوعًا، تحفة ثقافة عالية، وحرية متجذرة، وتصالح نفسي فريد يدفعني عنوة للشعور بالدونية، وفي ذات الوقت يسمو بي الى ذرا وجدانية شأهقة، وأنا اختلس الرفاق في غدوهم ورواحهم يرمقونني بعيون تفضحها الغبطة وعلى شفاههم زمة صغيرة يصعب تفسيرها. تجاهلتهم، رددت بصري لوجهها القمحي الفاقع المريح المزدان بنظارة ليست طبية، تغازل حافتيها العلويتين حاجبان سوداوان لهما تقوس انسيابي مدهش، أما الأنف ففيه ارتفاع طفيف يخيل اليك انه يود تقبيل الإطار.

كانت عدستا النظارة الشفافة تتقدم عينين نجلاوين فيهما

البياض والسواد آيتين في التواؤم والتضاد، وحركتهما تكاد تكون سحرية، لا تضاهيها إلا حركة ثنايا الشفتين المطبقتين، قلت وهي تتلهى قبالتي بأوراق عشب النجيلة :

- نهى؟

لم تَرُنَّ إليَّ، بل غيرت جلستها فصدرت عنها أنَّة موسيقية شجية آسِرة أسكرتني لحظة ثم أردفت

بتحبيني يا نهى؟

تضاحكت بفتور واجابت:

أكثر من روحي

وتابعت العبث بالعشب.

رجعت أفتش داخل نفسي عما أكنه لها من مودة، تليق بهيامها وفرط تشوقها وراحتها الندية، التي أرادت هزيمتي بها مرارا فتصديت لها بقوة. كانت تلك هي الخصلة الوحيدة التي ساجلتها فيها. كنت أرفض دائما دفعها ثمن المشروب بالمقصف، كنا عندما يحتدم الجدل بيننا نترك تناول المشروب غير آبهين بغمز ولمز الرفاق. كنت في بعض الأحيان أرضخ لطلبها، امتثالا لتبلر دمعة علقت بإطار النظارة فاحتسي العصير دون تذوق، وهي تكاد تطير من الفرح والنشوى.

الماصة تخترق بين شفتيها الخمريتين، تطلعت لوجهها ثانيا، فما زالت تلهو بالعشب غارقة في بحر أحلام لا قرار له. كان الهدوء

يكسوها بحزن نبيل تمنيت لحظتها سبر غور عمقه الساكن، سكونًا مخيفًا يدعو للتهور، هممت بالبوح لها عن مكنون نفسي، خذلتني ارادتي فقفلت ألوذ بجوانحي وعقلي الباطن بحثا عنها فيهما. أين مني هذه الزهرة التي لم تنضج بعد؟ تأملت محياها الوديع سدت مرارة السنين حلقي، نفثت زفرة حادثتني نفسي كم يا ترى من الوقت يكفيك يا يوسف للوصول لزهرك؟ سنتين؟ ثلاثة؟ أربعة؟ أما سمعت رفاقك في خلواتهم يقولون بنات الجامعة معصعصات. عيش يا حبيبي على المثل.

الأبل يعدن بالسفير لما يجيهن الخضير

اجبتها

– لا لا مستحيل أنا مستقبلي مضمون وهي أبوها ميسور، فقالت باستهتار

شاور عقلك نسيت الوصية.

انتابت عقلي حركة نشطة غير إرادية فحواها، انبثاق رؤى ظننت الدهر قد عفى عنها تماثلت لناظريي مشهدا تلو مشهد.

كان يوم نجاحي يوم فرح لا يضاهيه سوى دخول خالي كلية الطب، فقد كان حدث بيوت أكواخ الصحراء الكبرى، فذبحت له الذبائح اطلقت له الزغاريد والأعيرة النارية. بيد أن يوم تفوقي شاركتني السعادة الوالدة وأخوتي، في حين والدي تقبل النبأ ببساطة كأن لم يكن هناك شيء جديد. مدّ لي يده ببرود فظيع. تجاهلت الأمر

امتطيت الجمل، استنهضت الإبل المناخة، توجهت بها نحو وديان نباتات الجذو. رعيت بها حتى مطلع الشمس ثم عدت. كان الضحى ينبئ بزمهرير حار يشوي الجلد. انخت جملي. دخلت التعريشة لارتشف الشاي. سمعته ينادي يا ولد يا يوسف الحقني بالخلوة. كان ذهني خاويا، وأنا أقتفي أثره. وقفت جواره أرتقب النصائح فباغتني قعمز.

جلست على الكرسي أنتظر الأوامر.

كانت البرهة التي امسكنا فيها عن الكلام مرت كأعوام عجاف، فتح هو فخار الخمر كان الكأس ظروبا يلاطف حافة الدن. الفقاقيع تلثمه، تستند على ظهره الأملس. غرف غرفة اترعت الكأس. ناولني إياها ثم افصح

اشرب

حرنت قليلا قبل استلام الكأس فأردف

-يا ابني دي أم طبز مريسة الفقراء، ما بتبطل الصلاة بتنشط المخ وبتجلي النظر.

رشفت نصيبي بيد مرتعشة أعدت الكاس على الجرة فقال ناهرا ثني.

كانت الثانية منعشة رطبت حلقي. أما الثالثة فحدث ولا حرج. كان مذاقها مزيجا استعصى على اللسان تميزه، أهو حمضي أم معسول.

تلمظت استمتع بالطعم المستساغ.

كان أبي يمص المريسة مصا له صفير، وأنا أرمقه بطرف موارب، مسح شاربه، تجشأ ثم استطرد « ارقد يا عيش» وأضاف شوف يا ولد انت ماشي تقرأ في الخرطوم، انا خابرها زين اهلها تابعوا الإنجليز بقوا مطاميس.

لو تابعت بناتهم السمحات يبقى منه العوض وعليه العوض، على الحرام يتأبطوك لو طال الزمن أو قصر، ويشدو فيك السريج الاغيبش.

سكت مدة

وواصل بالعربي الفصيح تتروض، رضيت أو أبيت والعبرة شايفها في خالك الدكتور، مما عرس منهم زياراته بقت طلة، وبعد سنين، أنا عياله لو لاقيتهم في الشارع ما بعرفهم، آخر مرة جاءنا قلت له نحن ما محتاجين مليلماتك يا أخوي تعال بالعيال نشوفهم ويعرفونا.

سكت يا يوسف ويا ريت ما نطق .. تعرف ساعة نطق قال لي: « بيئتنا متخلفة يا أخوي الفحل، ما صالحة للأولاد»

أنا يا يوسف أول مرة أسمع كلمة بيئتنا، لكن في نظريتي معناها نحن ذاتنا ما صالحين.

لو حبيت تبقى مثل خالك الرماد كالنا. السودان كان سمح برجاله بعد ما ماتوا، خربته الأفكار الواطية.

تناول كأسا مصَّه برواقه، ثم مسح شاربه. ظللتُ ساكنا أغرسُ سبابتي في الرمل ساكنا، بينما عقلي تفتحت فيه نوافذ لأفكار جد خطيرة انتشلتني نهى من خضم امواجي المتلاطمة قائلة:

« كنت وين يا أستاذ يوسف؟

« ترددت قليلا لابتدع كذبة أنقذ بها موقفي فقلت:

« كنت ورائك طبعا»

« معقول كل شرودك ورائي؟»

رسمت افترار بسمة مرحة، أظهرت اسنانها وعبست كناية عن اللامعقول، ثم قالت الشعراء يتبعهم الغاوون!

فقلت منافحا:

« أنت مالك لامة عليهم؟»

ردت بلطف:

« يمكن أكون غاوية؟

« أكيد وأنا أول الضحايا.

انت ضحية، مستحيل كل شيء أصدقه إلا انت هي هي «

بحلقت فيها مليا، فأخذت تتلهى بدفاتري. انتقت كراسة الشعر. رفعت طرفها، ازدردت ريقها وقالت:

أقرأه في البيت واقول لك راي فيه بكرة موافق؟

هززت رأسي، لويت شفتي لليسار رمقتني من خلف النظارة. لفحت ثوبها ناحية كتفها، دارت ثمرتا صدرها اليانعتين، ثارت شهوتي، كاد بنطالي يتفتق، قومت عودها فقلت تبارك الله احسن الخالقين

كانت حركة أطرافها وتثني خصرها سحر لا يجاريه سحر بدت لي كفراشة، مزقت لتوها الغشاء، تأملتها بعواطف غير مستقرة. تتجاذب بين الزواج والاشتهاء، حدقت فيّ ثم قالت:

خلاص يا .. هي هي .. نمشي؟

فقلت أريد قبلة

شهقت وقالت

الناس يا مجنون

حولت عينيها لمعصمها وتابعت،

يا إلهي الساعة أربعة عندي محاضرة قوم اتحرك،

كانت خطواتنا كسالى، لها ايقاع على بلاط الممر

الرفاق يحيوننا بالجانب الآخر بالإشارة، أما الرفيقات يرسلن صيحة هاي، في حين أولئك الذين يشاطروننا الممر بالاتجاه المعاكس تمتد أياديهم للمصافحة. كانت كوادر الطلاب المنظمة نشطة، تعلق الشعارات والصحف الحائطية، احتفالا بقيام الثورة الكبرى ضد الطغيان العسكري الغاشم. أركان النقاش البعيدة يتخذ جدلها طابع التشنج، مكبرات الصوت تعلن عن المسيرة الحاشدة

غداً بالجامعة. نظرت إليّ نهى ثم قالت:

عازمة نفسي عصير

فاجبت تدفعي ثمنه

خفضت طرفها مع ضحكة.

كانت التعريشة تعج بالطلاب، المناضد رصت فوقها حقائب وأكواب، تجاورها أطراف ثياب جميلة الألوان، وجوه نيرة حياؤها طبيعي وأخرى مصطنع. حبذنا مكانا قصيا، تخطفنا اللحظ، استمتعنا بما لدينا، كل بصاحبه شغوف، باغتني زميلي جوزيف الجنوبي

ساعة أفتش فيك يا فهل

أطلقت نهى ضحكة خفرة هي هي

الرفاق قهقهوا، فالسنتهم تخرص عند نطق الاسم. ربت على كتف جوزيف، همست في أذنه

يكفيني فخرا مناداتي بيوسف الفحل،

أنفرجت أساريره فقال

مازحا بلهجة مكسرة

انت ما عندك شغل إلا القعاد مع نهى انا جعت.

وجهت كلامي لنهى

نتلاقى بكرة

في الصباح يا يوسف

رد جوزيف وأنا معاه عندك مانع؟

أجابت برأسها موافقة

عبرنا الحديقة، توجهنا لشارع الجامعة .. حركة السير بطيئة، شرطي المرور يتلاعب بيديه، قطار الشمال يجتاز الجسر الحديدي العتيق، الشبان يلصقون لافتات عيد الثورة، جوزيف يبحلق، كانت علاقتي به وطيدة .. نلعب كرة السلة معا مسكننا غرفة واحدة، ندرس بشعبة الفيزياء. كان بخلافي يميل للسياسة، مثله الأعلى المناضل الجنوبي سرسيو ايرو الداعي للوحدة ونبذ العنف.

ولجنا قاعة الطعام، الصف يزحف ببطء، الطباخ يغرف أصناف الطعام بمهارة على اواني ذات نتوءات، لها رنين مزعج، الرفاق يجترون السياسة

حدثته باللغة الانجليزية التي اعتدنا التخاطب بها، ماذا تريد مني يا عبد يا شين

خبطني بقوة، أنا عبد الله، كلام دا يسمعوه ناس جاهلين بسبب حرب.

قبلت جبهته لفني بذراعيه.

كانت كلمة عبد تزيد إلفتنا همس في أذني يا حبيب نهى خط لي

لافتات حزب ساتو.

كل شيء جاهز

طبعا الأقلام القماش وأنا العبد.

قبلت خده ثم بادرته

بالعربية أم الإنجليزية

بالإنجليزية يا غبي. واليوم.

حثثنا الخطى، جدر الداخليات معطاة باقمشة كتب عليها الذكرى السادسة والعشرين لثورة أكتوبر المجيدة. الأعلام ترقص طربا مع النشيد العملاق

نحن أبناؤك في الفرح الجميل

نحن أبناؤك في الحزن النبيل

ونغني لك يا وطني كما غنى الخليل

ظللنا متيقظين، نرقب فجر يوم الثورة العظيمة

دماؤنا تغلي. حتى الطلاب غير السياسيين مثلي هتفت حناجرهم بالروح بالدم نفديك يا أكتوبر. الغبار يشاركنا الانفعال مع العرق، مواكب تتدفق ولافتات تموج، الشوارع تئن تحت وطأة الأفواج، اشرأببت بعنقي باحثا عن الهواء. كانت الخطى بطيئة فخيل لي انني اقطع فراسخ لا امتار.

الفتيات حاملات أكاليل الزهور المتداخلة، كما لو كانت تفور، تعوقهن للتقدم للأمام كثرة الجمع، عبرنا مدخل الجامعة بمشقة. انعطفنا يمينا حيث الأنصاب التذكارية للابطال، علا الهتاف شملني شعور غريب، شخصت بذهول لتماثيل الشهداء، أغرورقت عيناي، حاورت نفسي، أين نحن الآن؟ وأين الوطن الجريح؟ الطلاب والمغني يرددون، لما يطل في فجرنا ظالم نحمي شعار الثورة نقاوم.

لمحت نهى تضع أكاليلا على الشهداء، تهتف باعلى صوتها تحيا الجبهة الديموقراطة ذخرا للطلاب ويسقط الخونة والعملاء، جارتها زمر فيما قالت.

انبثق من جهات متفرقة صياح الله أكبر لا تضليل ولا إلحاد، بهرني ترجيع الأصوات الرجالية والنسائية الجنوني النبرات، طفر الى ذهني كلام والدي.

يا ولد البلد خربتها الأفكار الواطية .

لم يخالجني شك ان ما يجري الآن افكار هدامة، تؤازرها ألسن تلوك الشعارات، فهومت، عساي اهتدي للحقيقة، هل الثورة تغيير حكم، أم آفة ابتدعها الشيطان؟

ثبت لرشدي بتحية نهى.

صباح الخير سارح وين؟

اجبتها بامتعاض، مع المحن.

وتابعت قرأت الديوان؟

نعم جميل إلا ما فيه نشيد للوطن فقلت مازحا

قلنا موسى طلع فرعون

تنهدت ثم ردت الله يسامحك

داهمتها ما اتخيلتك بهذه الشجاعة

- يا أخي

رفعت حاجبيا

فواصلت أنا يا عزيزي ابنة الثورة، أعرفها كما أعرف نفسي!

فقلت ساخرا، يا سلام؟

أطرقت هنيهه ثم تشاغلت بنظافة النظارة، فاغتنمت الفرصة

ابنة الثورة كيف؟

أتاني صوتها متهدل خفيض،

نشوف مكان نقعد فيه أولا،

حملنا الخطى للميدان الشرقي، الخطباء يتلون خطب نارية، الحشود تصفق، الجدران تعكس صدى يصم الآذان. ناييت بها بعيدا حيث الأريكة القديمة.

تهيبت لملامسة فخذي فخذها، لاحظت ارتعاشة يدها، ضممتها بين راحتي، نهرتها تكلمي يا بنت.

شهقت وجلة، أصلحت وضع نظارتها، سرقت تبسما وارت به الارتباك

التصقت بها من باب ضرب الحديد وهو حامي. تململت برهة وطنت عجيزتها قربي سوت حواشي ثوبها، رطبت شفتيها للحديث، أنشد وتر القوس، عصرت راحتها، انكمشت قليلا، استدرجتها تكلمي!!

مالت نحوي وهمست

شوف لما قامت الثورة كان والدي بالسنة النهائية في كلية القانون .. توطدت علاقته بالشهيد القرشي بعملية نقل دم له منذ عام. وحين أطلق عليه الرصاص انكفأ فوقه فتخضب قميصه. حمل النعش، اشتعلت نار الثورة بالجامعة. سقطوا ضحايا، امتد اللهب للشارع، شيدت المتاريس، توالت المظاهرات ليل نهار، تلبدت المدينة بدخان إطارات السيارات، النساء والأطفال يرمون العساكر بالحجارة. امتد العصيان للمدن الكبرى، توافدت قطارات الموت من أقاليم البلاد، كان ثوارها يحملون الفؤوس والعصي والسيوف، تنحى العساكر من السلطة.

قال لي أبي يومها لو لم يسقط النظام، كنا سنقود ثورة لا مثيل لها في التاريخ تفوق الثورة الفرنسية. وعندما تفتحت عيناي، وجدت أبي يحتفل بذكرى أكتوبر مع أصدقائه القدامى في منزلنا، وابتكر جائزة سماها جائزة القرشي للتحصيل العلمي ينالها المتفوق كل عام من

الأسرة.

صوبت إليها نظرة فاحصة

ابتسمت ثم أردفت:

- أنا نلتها مرتين

فقلت متكئًا، بس.

بللت ثغرها بطرف لسانها فأصبح متالقا زمته زمة مستحسنة ثم نطقت،

فهمت؟

ربما فأكثر الحقائق أساطير

جحظت بعينيها من وراء النظارة استهجانا لما بدر مني. كدت أبوح بسري الخطير لولا امتناع لساني عن الكلام. اعترت شفتي العليا رجفة طارئة هزت شاربي، مسحته مرارا ليهدأ، كانت نفسي ملحاحة تحدوني لسرد حكايتي هيا قل لها إنك ابن رجل ولد بالصحراء، يعتني أهله بتربية الأبل، جاس التلال والوديان ليلا ونهارا يرعاها مهتديا بالنجوم، سافر في صباه مع الإبل إلى مصر عن طريق الأربعين، له زوجات بالسودان ومصر. لما شب عن الطوق، هرب لمدينة الأبيض، التحق بقوة دفاع السودان، خاض غمار الحرب العالمية الثانية ضد دول المحور في معركة العلمين، قاتل بضراوة مع جيش الحلفاء، رأى بام عينه الدمار وفظاعة الحرب، خاطر بحياته لإنقاذ الجنرال

منتجمري، نال وسام الشجاعة من الدرجة الأولى ونوط الخدمة النظيفة، أصيب بثلاثة أعيرة نارية، شارك في إخماد تمرد عام ١٩٥٥ بجنوب السودان. تزوج من قبيلة "الفرتيت"، له في الشمال أربع زوجات،اثنتان مطلقتان، ذريته منتشرة في بطون القبائل، تقاعد عن الخدمة العسكرية برتبة رقيب أول، وخط الشيب راسه. عاد إلى حرفة اجداده، يمتلك ثلاثمئة رأس إبل. لما دخلت الجامعة سقاني مريسه أم طبز وحذرني منك.

علت قهقهتي فقالت رهف القادمة نحوي،

بتضحك وحدك جنيت؟؟

لالا تذكرت موقفاً طريفاً.

رفعت كتفيها بلا مبالاة. قالت بأنفة، الغدا جاهز.

مضت أمامي تمشي بخطوات ميادة، أظهرت قوامها الفارع المتسق الحركات مع وطأة القدم. كان شعرها يتدلى حتى الظهر، وتمتد بعض خصلاته لتلامس الكفل المستدير، لمسات اسطورية يستجيب لها بهزات متواترة، تنتقل ذبذباتها لحافة قميص النوم الوردي، فتتماوج أطرافه على ساقيها الممتلئتين. انقدت وراء الرجفة مسلوب الإرادة.

فغرت فمي وبصري يتفحص الفتاة ببلادة أكدت لي فعلا أن « زامر الحي لا تطرب مزاميره» تأملت رهف كأنثى لا كإبنة خال. تعمدت الجلوس قبالتها عند المائدة. رمقتها بنظرة جريئة ثاقبة، حاولت تقريب لقمة صغيرة لفمها، اجتهدت في ابتلاعها ثبّت التحديقة

فأحمر وجهها، غاظتها نظراتي فغادرت السفرة بانفعال ظاهر. حدق فيّ خالي فألفاني قوي الشكيمة فصفح عني. بيد ان زوجته الدكتورة قمر اسرفت في التطلع اليّ لكنها ما لبثت ان عادت لتناول الطعام، في حين الطفلين محمد ورؤى يخطفان اللحظ هنا وهناك. اعترتني رباطة جأش عظيمة التماسك، فصممت البقاء حتى ينفض الجميع. قفلت راجعا ألوذ بغرفتي والأفكار تتناوشني. خاطبت نفسي.

أظنك يا يوسف ناوي تولع نارا لا تنطفئ جذوتها. وتعلم علم اليقين ان الدكتورة قمر صاحبة رؤية واضحة في مستقبل زهف رسمتها بدقة منذ أمد، وماذا يجمعك بالفتاة انت في وادي وهي في وادٍ. قل بماذا تستدرجها بالحديث عن الصحراء الشاسعة المخيفة ليل نهار، أم الأكواخ التي تسكن فيها الأسرة، أم الهودج المصنوع من الوبر المصبوغ المحلّى بخرزات صدف، تحمل فيه النساء عند الظعن على ظهور نوق علقت بأعناقها أجراس رنانة تبدد وحشة السكون. ستقول لك بأنفة «أيي» ...منتهى التخلف.

يوسف ليست هنالك مقارنة البتة بين سيارة فارهة ومباني شاهقة، فرشت غرفها بسجاد مستورد يصطف حوله أثاث جلب من بيوتات عالمية واكواخ الفقر. دعك مما ذكرته، هل لك اسم موسيقي مثل دكتور أيمن، أنت فقط أستاذ مهضوم الحقوق. فإن كنت وسيما ولبقا، فقد ولى زمن الوسامة وتنميق الحديث، فالمال أكثر وسامة ولباقة وسطوة، ألم تخطط قبل أيام لاصطياد سحر بإهدائك إياها ديوان الشعر، فصدتك وفتحت لك نافذة ابنة خالتها الغريبة الأطوار،

لو نسيت أذكرك، غدا موعد سحر. مسَّدت سلاحي المعمر، ثم انطرحت عليه أغمضت عيني أنتظر زيارة بنت إبليس.

كان الصباح مغيما سبقته ليلة ممطرة، الهواء بارد يهب من آن لآخر. استيقظت منتشيا لمعت حذائي جيدا، ارتديت ملابسي تعطرت مكثت امام المرآة وقتا خللت شعري، نظرت لصورتي، أستطيع القول أنني وسيم، عيناي واسعتان حاجبي أقرنين، أنفي دقيق يليه شارب كثيف دونه شفتين ممتلئتين بهما انفراج، انطلقت مسرعا يحدوني شوق لرؤية سحر. السحاب ما زال يزخ رذاذا، مجاري المياه لها خرير مسموع، يرقات البعوض بالبرك ترسل فقاقيع تحية لي، سيارات تتسابق تنثر اطاراتها المياه العكرة. خدم المنازل قادمون من مساكنهم العشوائية، يتكلمون باللهجة المحلية. فتيات مراهقات مهتمات بمدارات نهودهن، ابتغاء لفت الانتباه. كان سيري متعرجا تفاديا للوحل التلاميذ عند اركان المنازل في انتظار حافلات النقل، بائعو التبغ تحت ظل تعريش الكرتون خلف المناضد القديمة. أطفال عند مسكن خرب هدمه سيل المطر، يدخنون الحشيش طلبا للتدفئة ونسيان، الواقع يرتدون أسمالاً لا تستر الضلوع.

عبرت المجرى الفاصل بين البيوت الصحية والعشش العشوائية البناء، تجاورها حفر يتغوط فيها البشر. كانت الهبوب ملوثة برائحة نتنة تأتي متقطعة تصعب التنفس. هرولت لاجتياز المنطقة الموبؤة. طاردني الذباب، التف حولي ارهبني بالطنين وليته اكتفى، هبط فوق رأسي اولا ثم تجاسر ونزل بفمي غير آبه، هششته فشعرت بالتقيؤ،

أفرغت ما بأحشائي واصلت السير مترنحا، لازمني دوار خفيف. انزلقت قدمي في مستنقع آسن تغطيه طبقة طحلبية وروث، به صبية يلعبون ببالون منفوخ، صاحوا فرحين بسقوطي، اجتزته فألفيت نفسي وسط متاجر شعبية ضيقة مكتملة ومغلقة، وأخرى تحت التشييد تُستعمل مراحيضا ووكرا للأفعال الفاحشة. وسعت خطاي رغم اشتداد الدوار، عبرت فناء المعهد الرحب، استنشقت الهواء النقي بشراهة، ثم دخلت المكتب. كانت علوية تتصفح كتابا لأداء حصة. دهشت لترنحي فانتصبت واقفة

مالك يا أستاذ يوسف

فقلت تفاديا لثرثرتها.

لو سمحت موية بس

حاضر حاضر

انكفأت على المنضدة منهكا، سمعت وقع اقدامها فاعتدلت فقالت بصوت لين

هاك

فقلت بحزم: فوتي حصتك أنا بخير

غسلت وجهي وأطرافي انتشيت قليلا استعدت وعي تنشطت بممارسة الرياضة. تفاجأت بامراة في مقتبل العمر تصحب صبيها وقالت باسمة

السلام عليكم

مرحب السلام انتفضلي

شكرا انت الفضيل عشمانة تعلموا لي ولدي،

حدقت في الصبي جيدا فإذا به يتمايع. سألته بقوة اسمك منه.

تثنى برهة، ثم اجاب أنور

حولت بصري للمرأة وخاطبتها خلاص امشي شوفي شغلك خليه معانا.

سمح

تريثت، حتى اختفت ثم نهرته

أجلس هناك

سهوت لمعرفة أسباب ظاهرة التخنث، أسعفتني الذاكرة بأنه الاستعمار فمنذ وطأت اقدامه البلاد وآلت إليه مقاليدها، لم يرغبوا الزواج منا لسواد البشرة وتخلفنا عن ركب الحضارة الإنسانية، ولما كنا متمسكين بشرف النساء والعرض لا يمحو عاره إلا الدم لجأ الغزاة لممارسة الشذوذ مع الأطفال فصار عندهم قهر نفسي نقلوه لبني جلدتهم عندما بلغوا فعمّ الوباء، بيد أنهم لما توسعت مداركهم العلمية والدينية لاذو بالتوبة تجب ما قبلها، وخيل إليهم تبديل سيئاتهم حسنات فصاروا بالعناية الإلهية، حزب الله لهم التمكين والخلافة في الأرض، أما نحن الذين نجاهم الحظ كانت ذنوبنا مغازلة الفتيات

وشرب الخمر غير جديرين بحظوة الله. فتوبتنا من سفاسف الأمور. فكان لزاما علينا حماية دين الصفوة بالأنفس والمال وفلذات الأكباد، تفرست في أنور، كان غلاما أمرداً وسيماً يشع من عينيه ذكاء لماح باطنه خبث. زجرته قائلا:

تعال أرفع الصخرة الكبيرة فوق رأسك عشرة مرات، راميا بذلك تقوية جسمه اللدن. لكنني صممت إلا أقدح بالعلم ذكاءه الخارق فالبلاد تعج بالطغاة، ارتحت لخاطري اقتنعت به عبست إليه بشدة. سمعت صوت سحر المميز وهي تقول:

صباح الخير يا أستاذ هي هي يوسف.

صافحتها وقلبي أسمع خفقاته، انتفض جسمي تلجلجت، اهلا وسهلا نورتي المكتب سحبت يدها، جلست قبالتي شبكت أصابعها، سكتت ثم تنهدت وابتدرت حديثها بميوعة حيرتني : يا أستاذ يوسف

تململت مرتبكا، فقالت ضاحكة :

- أنت شفت حاجة ؟

- كفاية الشفته خوفتيني

- معقول بتخاف !

- قالوا مافي جوف ما فيه خوف

- أحاول أصدقك واردفت :

- قول لي جمعت كيف بين الشعر والفيزياء ؟

بلعت لعابي فاستكنت مطمئنا نقرت المنضدة بسبابتي كما لو كنت استجدي الحديث. تعلق ناظريها بي فقلت ببراعة

علمني الفيزياء ليل الصحراء الحالك ونجومه.

أما الشعر وهبتني أياه الرمال الممتدة إلى نهاية البصر والجن الساكن في الوهاد.

- انت شفته بعينك ؟

- لا... لا تخيلته

- إذن استعد لشوفته،والسبب ديوان شعرك.... هي هي

عجب الانقلاب

فقلت مندهشا نعم فغرت فمها للتشويق واسترسلت،

عجب الانقلاب وبالذات قصيدة نائخ البعير وناوية تقابلك قريب تعرف خطبوها كم ما تعد، تقرأ الواحد نفسيا ثم تفسخ الخطوبة بحجة ما مطابق للمواصفات، تضاحكت هي هي جائز تكون مطابق.

خطر ببالي غلاف كتاب مبادئ علم النفس بصورته المشطورة لشخص مصاب بمرض الانفصام، تخيلت وجهي مشطورا فضحكت عاليا استهزأ اقداري، ساعتها نشطت السخرية إلهام نفسي الشاعرة المرهفة بالأحاسيس النبيلة. شردت اقرأها ماضيا وحاضرا ومستقبلا ارى خلالهم روحها الشفافة، عاشقة فارس أحلام بمواصفات قياسية، فأبحرت في عالم غير منظور أرضي غروري وطموحي.

obeikandl.com

٣

لم يجد سائق سيارة الأجرة، حرجا في تحريك المرآة الداخلية بطريقة لا شعورية اعتادها، اختلس النظر للمقعد الخلفي بدافع فضولي اكتسبه من ممارسة المهنة، ارتعشت يده اليمنى الممسكة بالمرآة، طافت بباله هواية المغازلة بحاجبه الأيسر، ارتسمت بالمرآة الصورة الآية، فقر فاهه مذهولا بالسحر الفريد، صار حاجبه الأيمن يعلو ويهبط مشابها خفقات قلبه السريعة، أدمن التطلع متناسيا الفتى القابع بالمقعد الأمامي وشارة المرور، كان لا ينظر الى الطريق إلا مدة وجيزة تجنبه الحوادث، كاد يدهس امرأة عجوز حاولت العبور لولا فطنة الفاتح وصياحه في الوقت المناسب،

حاسب حاسب العجوز،

ضغط كابح السيارة بقوة، دفعت كف الانقلاب للمس عنقه، ركنت أعصابه للهدؤ،عمَّه خدر لذيذ جعل يداه على المقود، تتفصد عرقا فقال الفاتح بعد تجاوز الحادث

يا اخي سوق على مهلك

اكتفى بإيماءة أرجع المرآة لحالتها الأولى خطف لمحة، تلمظ، بلع ريقه، ذاكرته تتخيل نيل قبلة آب لرشده بحديث الفاتح

يمينك لو سمحت

تعامل مع المقود ببراعة رشيقة فقال الفاتح ثانيا

يسارك

ميد جسمه للاتجاه المعاكس بخفة وحيوية

فتداركه الفاتح ثالثا

وصلنا،

نقده الأجر وتابع

انت قائل أرواح الناس لعبة

فردّ آسف

زفر الفاتح واستطرد بعد نزوله

بلاد فوضى

أي من هبَّ ودبَّ يسوق سيارة أجرة عجائب

وأدت الانقلاب ابتسامة صغيرة بالتلثم، ثم دخلت البيت

كانت هدى بالمطبخ تعد الغداء وقد تغضن وجهها بالغضب، سارة جوارها تفتعل البكاء تارة وتارة أخرى تضرب براحتها دولاب الأواني، محدثة ضجة تتلف الأعصاب، انفعلت فقالت مهتاجة

جننتوني مع أبوك

انكفأت الانقلاب على الصبية حائلة دون وقوع ضربة عنيفة والطفلة مستمرئة النواح

فقالت هدى من بين اسنانها خليني افش غيظي فيها، حي عليها ابعدتها الانقلاب، هدهدت الطفلة، خفت نشجاتها تحت سيطرة الوسن، فقالت هدى نوميها وتعالي خالك عنده ضيوف غدا.

حاضر

مددت الطفلة بتأن تأملت شعرها المنسدل على القفا في ضفيرة واحدة ساكنة وقورة الخصلات. تلمست الشعر فوجدته يداعب الكتف زوائبه طائشة في الأفق. عادت للمطبخ وشرعت في إعداد سلطة الفاكهة وراحت تدندن بنشوة، تحرك ساعديها بالتناوب تهش ذبابة طنانة، استلطفت خدها بدل فاكهة المانجو. واسماعيل بباب المطبخ مأسور بالتثني استثمر الغفلة فقال باسلوب سريع.

أحب أسمع الأخبار الجديدة

شهقت لمباغتته استجابت مفاصلها للاضطراب فترة ثم قالت بعد ثبوتها

سجلت بكلية الدراسات الاجتماعية

شيء جميل وتاني

هي هي لا شيء

طيب قربتي تنتهي

يعني دقائق

– ما رأيك في دراسة كمبيوتر في المساء ؟

هتفت بترجيع منغم :

– بتتكلم جد أنا موافقة. ران صمت يسير، تبودلت فيه النظرات الحميمة، تلتها افترار الشفاه ثم خجل الانقلاب

فقال اسماعيل بلهجة ودودة لينة

إذن بكرة تستعدي للمعهد ولما تخلصي عملك تعالي لي بالمكتبة حاضر، وباشرت شحذ السكين.

جلس اسماعيل خلف منضدة مكتبه يطالع كتابا مستعينا بنظارة طبية، على شماله دولاب رصت بداخل أرففه كتب مختلفة الألوان والأحجام بشتى ضروب المعرفة، إن مهنته كمحامي وسفير سابق اتاحت له اغتناء كمية وافرة أبان فترة الحكم الانتقالي.

دلفت الانقلاب بخطى كسولة ناحية المكتب، وفي ذهنها خيالات متنوعة غنية بالرؤى. وقفت وديعة مستغلقة الفهم، طقطقت أصابعها لتنتشله من السطور، استدرك وصولها فانتحى عن كرسيه وقال ببساطة، تعالي افرجك على الكتب ولك حرية الاطلاع، تحسست الفتاة الأغلفة بأنامل مرتعشة باردة الأطراف، قرأت الأسماء، القرآن الكريم تفسير ابن كثير، موطأ الإمام مالك، خطت خطوة قصيرة اجتازت بها الأزمان السحيقة للوقت الحاضر فطالعت نهر الدون الهادئ، موسم الهجرة الى الشمال، ازهار الشر، نجمة أغسطس، ديوان المتنبي. توقفت عنده قليلا ، تأملت ضخامة السفر ثم تناولته، وقلبت صفحاته بأنامل مرتعشة لرهبة ما يحتويه، خاطبت نفسها ستكون لي

معك ليالي أيها الشاعر العبقري الطموح.

انتشلها إسماعيل من أفكارها قائلا: القراءة هنا مدفوعة الأجر.

تستحق كتبك قيمة.

مشت يمينها أصابها انبهار حيث العناوين بالأحرف اللاتينية الشيخ والبحر، يقظة فيجان، إمرأة من روما.

سكنت لا تريم ولا تفعل شيء سوى التفكير

خاطبها ببلاغة

كفاية شرود المكتبة تحت أمرك.... غرَّد جرس الباب، فاستطرد:

- الضيوف أكيد وصلوا، لما تتغدي تعالي أعرفك عليهم

لم تتفوه الانقلاب بحرف بل اكتفت بإرخاء جفنيها، أخلت طريقه لاستقبال ضيوفه.

كان لقاء الرفاق بصحن الدار عفويا دافئ المصافحة، تخللته عبارة

تفضلوا تفضلوا

أجاب جلال يس بلا مبالاة

شوف يا سيد نحن جئنا نلبي دعوتك ومستعجلين، أنا مثلا عندي برنامج تلفزيوني مهم، وسعادة الرائد عمر مدعو لحفلة نادي الضباط

السنوية، السر حسب علمي اليوم مشرف تأبين شاعر " الشعراء" حظهم في الدنيا الشعر، الفقر والتأبين فما تأخرنا.

فرد الرائد عمر

تحدث عن نفسك، مالك علينا سلطان

فقال السر موافقا رأي الرائد

ما تبيع الموية في حارة السقايين، تمايل عنوة وتابع،

سعادة الرائد قرض الشعر

فقال جلال

من عاشر قوما أربعين يوما صار منهم.

فأجاب اسماعيل بعد استغرارهم

ما زال ناقصاه حاجة

قطب جلال حاجبيه واسترق نظرة للسر خبيثة

استدرك اسماعيل

الفتنة أشد من القتل

قصدت زوجة سمحة، أصل الشعراء والعساكر عيونهم طائرة.

رصت هدى اطباق المائدة بنظام يليق بأنواع الأصناف، في حين الانقلاب تلمع الملاعق كي تتألق والفاتح مستندا بظهره على حافة الباب، منتظرا السفرة خالي الذهن، وقد سال لعابه لرائحة

الطعام، تتناوب رجلاه لحمل قامته الفارعة. كانت تجاعيد جبهته قليلة الطيات، لكنه لما تناول المائدة كشر وقوس ظهره استجابة لثقل المائدة.

سار بخطوات متئدة، عيناه ترقبان بحذر اهتزاز الأطباق، وتموج الطعام بحافتها. أخذ نفساً عميقاً سرَّب لخلاياه السكينة، وضع المائدة، شمّت أنفه الروائح الشهية، بلع ريقه، ثم نطق التحية.... تململ "جلال" في جلسته وتبدر الحديث :

- جاء المأكول وذهبت العقول

فقال السر المتكئ:

- خيبت ظني فيك، كنت فاكر همك الحرية وتجذير الديمقراطية وإقامة ندوة شعارها أنا أتنفس فأنا حر، تستضيف قادة ثورة أكتوبر المجيدة، وشباب إنتفاضة إبريل.

رد جلال: جنرالات حكومة الإنقاذ وشيخهم الترابي لا يسمحوا بذلك، فهم لا يؤمنون بالحرية والتعددية والديموقراطية، إذا قبلوا فثق أنها إنحناء للريح فقط. العسكر عموماً متسلطين إلا من رحم ربي و...

قاطعه السر: هو أي ضابط منظم إستبدادي.

أجابه الرائد عمر:

- أشكرك على الإساءة الباردة سوف ارد عليك في الوقت

المناسب، فاستفسر جلال: بالاعتقال أم التصفية

رد إسماعيل:

– وبما إني أعرف السر شاعر غاوي، حيثما وجد الضلالة إلا فتح لها مسارب، أنا لا أوصي باتهامه بالزندقة.

فقال الرائد عمر ببرود الشيطان: إذا احضر الطعام، حُرّم الكلام ولكل مقام مقال وما تسبقوا الحوادث.

هتف .....جلال الله شاعر ملهم

ران سكوت طاغي، جاست خلاله أصوات المضغ وأنغام عزف الملاعق، بحواف الأطباق، وانتشر خمول لازمه تجشؤ.

تلفحت الانقلاب بالثوب ارخت طياته متوخية الاحتشام، لم تدع فرصة لخصلة لعوب تفلت، وارت صدرها بعناية فائقة. ألفته تواقا للبروز والعناد، حاولت مداراته فأبى أصابها يأس أفضى للتفكير في دواخلها، فبدأت تمزق أغلفة العادات العتيقة وأولها الانكسار، أسرت لذاتها تحلي بالشجاعة في مخالطة الرجال الغرباء، كخطوة أولى لاقتحام عالم الإنسانية بالحرم الجامعي.

شعرت بزهو بدد الفزع الملم بقلبها، مشت بأقدام ثابتة حتى بلغت درجة الباب، داهمتها رجفة عمّت شعيرات جلدها، لفت على عجل كفها بالثوب للمصافحة. أصابت جلال رعشة عنيفة عند ملامسته راحتها المغطاة، تحولت لزلزال رجّ مفاصله، أضاع فصاحة لسانه وهنت قواه، فلم يستطيع الوقوف لملاقاتها، تلجلج وهو يتحدث

أأأهلا وسهلا يا مرحبا

فقال إسماعيل الانقلاب بنت أختي، يا سعادة المخرج التلفزيوني الكبير جلال يس

تشرفنا برؤيتك

وأنا ايضا تشرفت بمعرفتك

اتجهت نحو الضيف المنتصب . كانت بشفتيه إفترارة ساذجة ظن أنها موحية بالفحولة فقال إسماعيل سيادة الرائد عمر.

رفع الرائد كتفيه ليتلألأ الصقران المثبتان عليهما. قبض يدها بقوة، عساها تحس حرارة عواطفه التي اشتعلت منذ رآها عند درجة الباب، إفتعل الظرف فقال

يا ألف مرحباً

سعدنا بشوفتك والله يا أميرة.

غشيت الانقلاب لحظة ضعف عابرة لكنها سرعان ما استعادت رباطة جأشها وتماسكها بمجرد تذكرها أفكارها السابقة، رفعت عينيها إليه برهة، أجالتهما عنه. تابعت المشية الرشيقة تاركة إياه في إغماءه الله وحده يفك طلاسمها.

اجتاحت السر سيول فوضى وصخب، شعر بها تتلاطم في مهجته، حسنها الخلاب أجج ملكة الشعر فيه. إنساق القصيد لذاكرته سلس المعاني، غيرأن لسانه ابى قرضه، إلتهمها بعيني الشاعر الوله، دنت

منه، صافحها بشغف شفاف. فقال بنبرة ناعمة

أهلا وسهلا مرحبا بالعزيزة بأرض النيل، ويا ريت لو زرتينا في بيتنا، والدعوة مفتوحة.

ثم باغت إسماعيل

ما رأيك يا سعادة السفير سابقاً باقتراح الزيارة ؟

قريباً يا الشاعر الفذ، وحقيقة شعرك لما أسمعه منك أحس بإنسانيتك الأصيلة.

بدرت من جلال والرائد عمر ضحكات مغرضة تبخيسا للفته البارعة التي أبداها السر تجاه الانقلاب محققا فوزاً عظيماً لم ينله أحدهما.

قفلت الفتاة أدراجها مسرورة بالنصر، فالتباري في ودها أرضى غرور أنوثتها. سارت بخطى موثوقة، لغرفة نومها. أستلقت فوق السرير تمطت بتكاسل ثم تثأبت تحت تأثير الغفوة. ظل جلال منذ تلاقت كفيهما، يرفل في نشوة سكر فريدة.

فقد عاقر الخمر سنين عددا، أحتسي فيها الخمر بأنواعه، الفاسدة والمعتقة، لم يشعر قط بتلك المتعة والخدر العجيب، المهيمن عليه. الشيء الوحيد الذي أفسد بهجته عجزه عن القيام لملاقاتها، واستنشاق أنفاسها الدافئة. تحامل على نفسه للنهوض، فأختل توازنه إختلال مريع، حث السر للدعابة.

شوف صاحبك يا إسماعيل علي الطلاق غلبة الوقوف من الشبع ما بطيني.

رد إسماعيل بأسلوب لمز، يعني تفتكر فات المرقوت (البق)

أجاب السر:

يا أخي ما تقولني شيء ما قلته،

تضاحك بأعلى صوت، وأستطرد

يشهد الله قصة المرقوت ما قلتها.

أدلى الرائد عمر بدلوه مداهنا جلال:

قل هو الله أحد،

بتر قهقهة ماكرة وتابع السير.

تجاهل جلال سخافة رفيقيه. فقد كان أسير الانطباعات، فالنظرة الأولى من عينيها الحوريتين، أحدثت إنقلابا حقيقيا غير معتقداته السابقة، أيقن لحظتها أن أي أسم لا يمكن أن يرقى لمدلول الصدق سوى الانقلاب.

أدار محرك سيارته وانطلق. عقله يسترجع اللمحة الأولى، كرر مشاهدها بلا ملل، اكتشف في كل مرة عمقاً جديداً بنفسه خلفته المقابلة. كان الهواء المندفع عبر نافذة السيارة يغذي فكره باخيلة طفيلية لعوب، ولج الجسر العتيق ألفى النيل هائجاً، تتصارع أمواجه على الشطين الأخضرين بقوة، النسمة الباردة تعانقهما بشدة، إنجلت

في تطاير الرذاذ على الأغصان. شعر بمرارة الفشل ؛ فقد كان يجدر بعواطفه أن تكون اكثر فورانا من صخب ضفتي النهر، ولهفة تفوق ميسان الأفنان، لكنه أبدى صلابة حمقاء أفسدت فرصة الاستفادة من اللقاء. ولج مبنى التلفزيون منهوك القوى، بذل جهداً خارقاً ليبدو طبيعيا. ألقى التحية للعاملين بنبرة صوت محطمة. دفع باب مكتبه. زجّ بنفسه الخائرة فوق مقعده الدوار. كانت أمنيته الهروب من أفكاره والتعب، فإذا الأخيلة والأطباق تحاصره بوضوح تام، يكاد يلمسها لو مدّ يده. كان طيف الانقلاب عن يمينه وخيال زوجته ندى بشماله. إمتازت صورة الانقلاب برشاقة وميعة صبا، يدعمها قوام لدن وصدر أكسبته لفائف الثوب إيناعاً مدهش الإغراء فاشتهت نفسه ضمه ورضعه لكسر شوكة تكوره، إستدار بعنقه يساراً للمقارنة كان الفرق شاسعاً الوجه ضامر الوجنتين، الصدر مترهلاً كثدي كلبة عجوز، القامة قصيرة يستحيل معها التناسق. إشمأزّ من منظر زوجته، تحطمت معنوياته خرج مسرعاً. تعجل هبوط الدرج، قاد سيارته بجنون.

كان مدمنو الحشيش، يدخنون بضفة النهر بعيدا عن أعين الشرطة. الفتيات المومسات على قارعة الطريق يلوحن، لأصحاب السيارات الفارهة، إبتغاء حظ عظيم. كانت وجوهن مطلية بالمساحيق طلباً للجمال والإغراء. سيارات تنتقي أماكن الوقوف، ثم تنطلق تاركة غباراً يحجب الرؤى... دلف ناحية الزقاق الترابي، ذي المستنقعات المؤدي للبيت. كانت ندى تزرع الفناء جيئة وذهاباً منتظرة أوبته. سمعت قفل الباب يتحرك، إنحسر قلقلها رويداً رويدا. ركضت تفتح

الباب على مصرعيه لدخول السيارة، بادرته قبل تطأ الأرض قدمه

تأخرت مالك ؟

نفث جلال زفرة : شغل يا وليه .... شغل

أنا عشيت العيال، ومن المغرب راجياك

نفخ آهة وأردف

الله يطولك يا روح يا وليه أنا تعبان خليني ارتاح لو سمحت.

استلقت جواره محبطة رغم رغبتها الجامحة للملامسة. لم تركن للقنوط، داعبت ساقيه بقدميها الناعمتين لاستدراجه، لفحتها قشعريرة، إسترجعت تهيؤاتها بسلاسة منذ مغيب الشمس حيث كسرت الحطب. وضعته في الحفرة، وأشعلت النار، تمطقت وهي تتعرى، جلست فوق عودين، أستقرا على فوهة الحفرة تلفحت برداء الصوف. كانت خيوط الدخان تتطوف بالأفق، آماقيها تدمع عرقها يتفصد. حمو العيدان المشتعلة ينشر الدفء في مسامات جلدها، يشد تراخيه، خصوصا المناطق الحساسة.

كان الحطب المسوس، يرمى بالشرر ردفيها، فيوخزها وخزا مؤلماً ممتعاً، توحوحت ثم إرتجت على العودين، فأنفتح ذهنها بخيالات رائعة الخواتيم ولذة. نازعها التشوق.

طوقته بذراعيها غير مبالية بصده، انطفأت جذوة اليأس في حناياها، استمالته فإنزاح كسله. إستدار لشقه الأيمن، لاح له تفتير

عينيها إتقدت شرارة مباشرته، إهتزت فرائصه، نطق بلا وعي من شدة الوجد، الانقلاب الانقلاب تزحزحت عنه قليلا وقالت مبهوتة.

البلد اصلها ما بتهدا، دائماً إنقلاب، والله العساكر جنو.

سكتت دقيقتين ثم تابعت.

أنت خائف يحيلوك للصالح العام، يا أخوي الله ما شق حنكا ضيعه.

إنكفأ جلال على بطنه ولم يلق لها بالاً.

كانت خطوات الرائد عمر حازمة، تقرع الحصى قرعاً، أراد له أن يكون ملائم الوقع مع سترته العسكرية، وإنتصاب قامته الموفق. كانت أفكاره تتوالد في رأسه، حيث تروم نفسه المتعة اللذة الحرب، ما فكر في الزواج مطلقاً، لكنه لما ضم راحتها بكفه، تاقت روحه الشرودة للاستقرار، خاطب نفسه وهو يزج بها داخل السيارة، صفر، ضرب المقود باصابعه. إنبلجت رؤاها في ذهنه، ثم تجسمت لناظريه على الزجاج، آية سحرية مفترة الثغر، زاد سرعة السيارة، تمشياً مع إنفراج شفتيها، تكشفت فلجتها عند نادي الضباط، خلبت لبه فلم يعط الضباط الصغار إعتباراً. وقع بصره على الضباط ذوي اللياقات الحمراء أدى تحية عسكرية منضبطة حيرت رفاقه. كانت زمرهم تلتف حول المناضد حسب الرتبة.

إصطفى المكان اللائق به. بحلق تجاه الضباط أصحاب النياشين اللامعة. كانت مجموعتهم تناقش مجريات حرب الجنوب، على ضوء خطاب الرئيس وتعليق وزير الدفاع. خاطب نفسه،

سأكون رجل أوسمة لأجلها

رسم ابتسامة واسعة ودّ دوامها. أفسدها همس العقيد المسؤول

تقرر سفرك إلى جبيت.

فأمتثل للأوامر،

حاضر سعادتك

غادر النادي ووساوس جمة تتناوشه، السفر لجبيت خطوة أولى في سلم المجد، فالتدريب الحديث لفنون القتال، يرفع الكفاءة لنيل الأوسمة الملفتة للنساء. خالجه شعور حزين، فقد كان يطمع في لقاء آخر، يوطد تبادل المشاعر. تنقل بغرفته بمسكن الضباط، فتخيل تسلق جبال جبيت الوعرة. إبتهج لوقع أقدامه على البلاط، حرك كتفه الأيمن ليرى تلألؤ صقره. حينها رفت الى قلبه سعادة، عبر عنها بصفير موسيقي شجي. تفجَّرت ملكة شعر السر، فتدفقت عواطفه بأشعار حية أقصته عن عالمه الخاص، إستسلم لوحي الإبداع المرهق، تعجل الوصول لغرفته النائية لتدوين قصيدة تشعبت في مخيلته. فقاد سيارته القديمة بسرعة لم تعهدها منذ سنوات خلت، فأنت أنينا تطقطقت منه مفاصلها، فأبدت في المنعطفات تميعاً وغنجاً لا نظير له.

obeikandl.com

E

ألمت بذاكرتي نظرة الدكتور أيمن، التي حدجني بها مستخفا بوجودي، هبط درج السلم بخطوات إيقاعها متعالي ومستفز المقصد.

عزيتها للمنافسة المحتدمة بيننا في رهف، تفرست في ملامح وجهه الملئ بظنون الأوهام وأنا أصعد بالاتجاه المعاكس، لمحته بطرفي وأرتقيت للطابق العلوي، وبصدري تجلجل ضحكة مستهترة كتمتها بحلقي. كنت موقنا أن علاقتي مع رهف، لن تتجاوز النظرات التي صوبتها لها ونحن نجلس حول السفرة. كانت رهف مستلقية تشدو بصوت حلو التراجيع. كان فستانها طروبا ترقص حوافه مع موج الريح، يسكن فيغطي ساقيها، يتلاعب تارة فيكشف محاسن ردفيها وتأملت عملية المد والجزر بساقيها الممتلئتين، تهيجت غريزتي، أدمنت البحلقة باندهاشة، عطست فانتشلتها من هيام أيمن، إنكمشت بسرعة تستر أطرافها المتعرية. جعدت جبينها مظهره تغيظها.

أدركت لحظتها أن إعجابها بأيمن مستحوذ على قلبها المتفتح. كان إحترام الدكتورة قمر له عند الزيارة يفوق الوصف، فهو ابن اختها وابن رجل مشهور في الخرطوم بثقله السياسي والمالي. أضف إليها حفاوة خالي المبالغة، تلك المعاملات دفعت الفتاة للتعلق به وبأحلام المستقبل المضمون. اختلست النظر لوجهها العابس الجميل. خفق

قلبي سمعت وجيبه، مس أحشائي شيء أسطوري، عسير الفهم.

مشيت لغرفة الجلوس، كان خالي يشاهد عبر التلفاز أخبار العالم جلست جواره أشاطره المتابعة. كانت صور العنف تعم ارجاء المعمورة. أطفال فلسطين يرشقون الجنود الإسرائيليين بالحجارة، شعوب البلغان تتطاحن بالأسلحة الثقيلة جيش السودان يقود حرباً ضارية ضد التمرد، مجزرة أدغال أفريقيا برواندا، أبشع تصفية جماعية في القرن. ربت خالي على فخذي ثم باغتني قائلاً:

بكره الصباح مسافر

سكت مدة وجيزة حتى انتهت ارتعاشتي، قلبت حديثه في عقلي وقلت مرتبكاً :

خير إن شاء الله.

خير خير ناوي أشوف الأهل

فقلت بحب استطلاع:

بتسوق العيال معاك

لا لا إجازة قصيرة ارتاح فيها من شغل العيادة والمستشفى.

إلا قول لي ما هو جديدك

قررت أعادة طباعة ديوان الشعر

هز رأسه قليلا، ثم أجاب

ديوان شعرك عجبني شديد، لكن لابد من ديوان جديد يثبت إسمك للقارئ.

فقالت الدكتورة قمر القادمة للتو،

انا شخصيا أتوقع له مستقبل باهر في الكتابة، خصوصا الشعر حقيقة هو شاعر مطبوع.

فقلت أبادلها المشاعر النبيلة

أنا ما زلت.

قاطعتني

أنت فيك موهبة عظيمة يلمسها من قرأ أشعارك

أثلج صدري إطراؤها، فهي لا تداهن إذا أبدت رأيا. كان يستهويني حزمها وتعاملها الحضاري مع ابنائها. ولكن ما يثير حنقي سيطرتها التامة على خالي، فكرت ملياً في أسباب جبروتها. أهو جمالها الآخاذ، صراحتها، قوة شخصيتها وإنتمائها لعائلة مشهورة واسعة الثراء. لم أهتد لشيء يحسم حيرتي. لويت شفتي ساخراً. أقبلت رهف مخفية إشراق وجهها بين طيات القطوب، تطوفت فيها بناظري. اشاحت مستحية، غيرت قنوات التلفاز بجهاز التحكم عن بعد. كانت اعصابها متوترة لا تخطئها عين فقالت الدكتورة قمر مستفسرة عن حالها باستغراب

يا بنت إنت مالك عصبية أرخت رهف أهدابها

- ما بي شيء

خمنت الدكتورة قمر وقتها أنها دورة الطمث. فتشاغلت بتهذيب خصلات شعرها، إنتعل خالي حذاءه وغادر الغرفة. رشقتني رهف بنظرة فاحصة، صوبت إليّ بدقة فحواها عداء مستحكم ونفور. خامرت عقلي ظنون، وقفت حيالها عاجزاً عن فهم سؤ المعاملة المستبيحة لستور إنسانيتي. خمنت ربما لأني جئت من الصحراء، موطن التخلف المعلوم لديها سابقاً. في واقع الأمر انا فخور بإنتمائي لإنسان الصحراء المتحضر بالفطرة، عن مروأته استطيع التكلم دون حرج. عن نضاله، رجولته، وصفاء نفسه أتحدث بلا مواربة، الحسد الحقد لا يعرفان لقلبه سبيلاً. إذا أحب كان حبه راسخا رسوخ الجبال، وإن بغض كان رد فعله عنيفاً كرياح الشتاء. الطبيعة أودعت فيه روعة الليالي المقمرة فوق الحصى اللامع، تحت وسادة هدوء أبدية، عطست إشمأزت رهف، نفخت آهة لها صفير، تركت الغرفة تحليت بالبرود حفاظاً على أعصابي من التلف. تدلت عليّ طيوف ردتني للصواب، فكرت فيما أفعله لأخواتي المتزوجات، اللائي ليس لهن عمل إلا إنجاب الأطفال، صناعة الأطباق والصبر على شظف العيش رغم الثروة الحيوانية، ملابسهن تعد بأصابع اليد. الأواني المنزلية قديمة كما هي الأكواخ. الشيء الوحيد الجدير بالاهتمام باعتباره نقلة حضارية غزت الصحراء الكبرى المذياع، مؤنس النساء وقت القيلولة، ساعة شرب القهوة واستحلاء التفلى. ولما يجن الليل، ينتقل لحلقات الشباب لمعرفة أخبار العالم التي لا تمثل اهمية تذكر،

إلا ما يختص بعلاقة حكومة السودان بالحكومة المصرية، فجفوة العلاقة تحتم سير القوافل عن طريق الواحات، المحفوف بالمخاطر، أبتداء من مصادره الإبل، بواسطة حرس الحدود المنتشرة دورياته على ضفة النيل الغربية. وإنتهاءً بعصابات النهب المسلح التي إقتالت إبن عمي في معركة دامية، انتصر فيها أهلي. فإذا انتفت الخصومة بين الدولتين فإن التجارة تزدهر. تثأبت، طارت خواطري السخيفة، ارتديت جلبابي الفضفاض مهيئ نفسي لاستراحة وأحلام يقظة اتوقها. استسلمت لإغفاءة. صحوت لوقع أقدام مرت. كان جلبابي يقف فوق بطني كوتد خيمة البدو ابتسمت لحاله فهو لم يعرف النساء إلا في المنام. نظرت لساعة معصمي، فالفيتها الرابعة تعجلت تبديل ملابسي، هبطت الدرج مهرولاً. كان الإعصار بالميدان، يتصاعد بالقصاصات لذرا تفوق الأبنية العالية، والصبية مذعورون يهرعون نحو الأبواب الموارية. تناهى الي لهث أفواههم. فخلته عبث مراهقين، انعطفت ناحية الطريق المعبد. شاهدت أيضاً أطفال، فزعين يركضون يمينا وتارة يسارا، بحثا عن مخابئ يلجأون لها، غير مبالين بالسيارات المنطلقة. زالت دهشتي لما رأيت سيارات الخدمة الوطنية باقفاصها الحديدية. الصبية يطلون بالفتحات كزغب الطير، وعلى أبوابها الكبيرة جنود مدججين بالسلاح، تصدر عنهم صيحات مرعبة تخيف الصبية داخل الأقفاص.

حتى يتكلسوا لمزيد من الأطفال كان الآباء من شدة الهول، يبحلقون بعيون جامدة، يلمع الدمع بين أهدابها. خيل إلى أنها لا

تبصر، أما أفواههم فمفاغرة، يخرج منها الهواء ويدخل كما لو كانت أبواب كهوف وليس افواه بشر. تشهق وتزفر، في حين اجسامهم مسمرة علي الارض ورؤسهم خاوية مشلولة التفكير كانها مسحورة، لا تقدر علي دراء الكارثة . قانعين بالخنوع للذل، فلذات اكبادهم يساقون لمعسكرات التدريب،للزج بهم في اتون حرب لا تبقي ولا تذر . النسوة عند الابواب يتناوحن بحرقة علي ابنائهن المدفوعين قهرا لخوض حرب الجنوب . رأيت شفاههن غبشاء يابسة، شعرهن منفوش مكتال بالتراب، تبدو علي سيمائهن بوادر الجنون . الجنود يلكزون بعقب البنادق، المتجاسرات لفك اولادهن فسيقطن متشنجات، يرفسن كالشياه . السيارات تتحرك ببطء تجاه اماكن اخري للمزيد . شاهدت علي البعد عجوز شمطاء مسنة تتوكا علي صبيها . انطلق جندي مهووس تجاهها للامساك بالصبي، لوي ذراعه همّ بدفعه للأمام، لم تجد العجوز وسيلة للدفاع عن ابنها الا الانقضاض باسنانها .عضت الجندي عضا جنونيا، غرست انيابها، علا صراخه للنجدة.

رأيت العجوز تنهش كتفه. عُمِّرت البنادق تاهبا لمعركة حامية . اشتبك جنود معها لفك رفيقهم من قبضة الاسنان. كان السابلة مبهورين لمنظر الشد والجذب، تكاد عيونهم لا تطرف. ثابتين في اماكنهم كالاوتاد ممزوجة احاسيسهم بالشماتة والفرح للصبي الهارب بعد فكاكه. كانت مخاوفه رهيبة، استنتجتها من تلفته وجحوظ عينيه . والعجوز ما زالت تنتحب وسط أفواج الفضوليين . عبرت الطريق المرصوف، ذهني مشدود بأفكار مختلطة بالمرارة والأسى والتفاهة.

مما انتهجته الطبقة الحاكمة، واصلت سيري منقبض النفس، تتلقفني كابة احاسيس ممقوتة. كان بصري يجول ميمنة وميسرة، الأزقة خالية لا أثر للصبية المتجولين. الفتيات بالمتاجر يشترين مستلزمات البيوت بدل العيال . يتسكعن في المشي، كما يحلو لهن، متظاهرات بالرضي في حين أرواحهن تواقة للمغازلة، والمواعيد بالحدائق وأحاديث الحب، والأحلام مع عبق الزهر . المستقبل تكفيه الوصول للحظة. المتعة الحسية والجسدية. أفقت للواقع بترديد أناشيد عالية مع تهليل مجهول الاتجاه . انعطفت للشارع الكبير، برزت أمامي صفوف المجندين قسراً بزيهم القطني القصير، غبار أحذيتهم يتسامى كالدخان. رؤسهم حليقة، غسلت أدمغتها ليل نهار فلم تراودها فكرة الهروب، بل قانعة لامتثال الأوامر، فأصبحوا بين عشية وضحاها، دمى تنتهج أسلوب الخباثة. ابتعدت عني الجلبة، ومازالت ترهق ذهني، مصرة أن تكون قبساً نورانيا، شاءت خلايا دماغي أو تمردت . تمخضت في عقلي رغم الصخب رواية كيف يكون الغد مشرقاً، تبلورت عناصرها بإلحاح في مخيلتي. ولجت المعهد وخيوطها المغزولة، تشابكت تشابكاً فريداً. كان الطلبة على الارائك محبذين الوسوسة عن جهر القول، تبصرت ابتساماتهم المرسومة ببساطة، فاطمأننت للمستقبل لوحت لهم بيدي، أبدت شفاههم انفراجا له طلاوة. عرجت ناحية المكتب كانت الأستاذة علوية خلف المنضدة، تحضر درساً جديداً، قبالتها سحر متكئة للثرثرة. الطفل أنور قابع عند الركن البعيد يلهو بأنامله. ألقيت التحية. وثبت سحر لملاقاتي طوقتني بذراعيها تطويقاً بريئاً. تجاوبت معه بصفاء سريرة

ونقاء عواطف آخوية، فقالت وهي تعانقني

أنا دائما أسأل عنك.

لمحت علوية وأنا ساكن بين احضان سحر، فألفيت على صفحة وجهها، تعابير إنزعاج، تخلصت من ذراعي الفتاة، اتجهت أصافحها. لامست كفي كفها، فتناعست مقلتاها، شددت يدي أبث حرارة شوقي. دّر الدم بوجنيتها،تحاشت النظر إليّ، جلست جوارها وأنا ممسك براحتها، قلت مستغلاً ضعفها بلين،

كيف حالك

عضت شفتها السفلى. طأطأت رأسها وقالت، بشفافية مفرطة

الحمد لله.

ران سكون بيننا، تذوقنا فيه لذة الصمت والتفكير. ابتدرت الكلام خافتا يذوب رقة ولطافة.

لو سمحت احصل الحصة.

قلت بثقة اتفضلي.

جمعت أوراقها، لفت ثوبها ببراعة مدارية به صدرها المرائي ونطقت همساً.

انتظرني عندي معك كلام

وافقت بإيحاء طرفي. انتهزت سحر فرصة خلوتنا، سوت خصلاتها

المبعثرة، تمطت للحديث الغث، إنحلت عقدة لسانها، إنزلقت كلماتها متباينة عجولة، يستعصى احصاؤها وفحواها. وطنت نفسي لضرب صالحها بطالحها، تطرقت لمواضيع تافهة.

تصنعت الإصغاء، لكنني ركزت حينما ذكرت الخطاب المتقدمين لها، عدتهم بأصابع يدها اليمنى تضاحكت بإستحياء ثم قالت

أنا حبيت استشيرك، ارتبط بمن.

ترويت حينا ثم تكلمت.

لو كان رأيي مهم أعرفهم أولاً

ردّت حاضر.

عددت مناقبهم بإفاضة، احصت الشارد والوارد مع اختلاف مدهش، يصور فتنة أنوثتها الداعية. لتهافت الخطاب. فحصت قولها ببعد نظر وقلت بأسلوب فكه لاذع.

اختاري ما يميل إليه القلب، فإن لم تجد أرمي بينهم القرعة،

ضحكت ضحكة مغناجة قطعتها ثم قالت

إنت عائق، الله يجازيك اشوفك بخير ولما أقابلك قول لي رأيك بصراحة، وإنصرفت.

جاءت علوية متحيرة تتلهى بأناملها، جلست في مكانها السابق. مالت نحوي وهمست.

ما رأيك نزور أسرة أنور بقصد دراسة اجتماعية، تنتشل الصبي من إنتكاسته.

رددت،

فكرة هائلة وواقعية نجعلها ملموسة.

وجهت حديثها للطفل، قوم أنا وأستاذ يوسف زائرين بيتكم.

تهلل وجه الصبي، هب واقفاً ثم هرول خارجاً يدلنا للدار. شرعنا نجوب الأزقة والحواري، لائذين بالصمت صعدنا أو هبطنا الحفر الواطئة. اقتربت علوية حتى كاد كتفها يلامسني مستدرة عطفي للبوح بأسراري.

معاوية طلب يدي،

سكتت تجس نبضي ثم واصلت،

لم أرد عليه بل طلبت مهلة أفكر فيها، أنا رغبتي الارتباط برجل أشعر جواره إنني إمرأة وهو رجل بمعنى الكلمة، بغض النظر عن غناه وفقره، عندي الشخصية الأهم و...

قاطعتها مستفسراً هل في حياتك إنسان آخر؟

رمقتني بلحظ خاطف، لاذت بطرق الباب مخفية إحمرار وجنتيها. أطلت من الباب الموارب إمرأة سمراء في العقد الثالث، عرفتها بعد تركيز فقد كانت في السابق عادية وهي تصطحب طفلها. أما الآن مخضبة اليدين ومتزينة يفوح عطرها عبقاً. شممته، فإذا هبة ربّي

تتمطى تحت بنطالي مغلنة التمرد، تناولت يدها الممدودة فبلغت هبتي ذروتها. كان القماش مشدوداً يكاد يتفتق. ففرت المرأة فمها، ثم جحظت في ماردي بعينين مجنونتين، أغرتا علوية النظر خلسة حيث تنظران. اتخذت المرأة مكاناً أتاح لنا الدخول، أنحنت مرحبة، ثم راحت تتبختر بخيلاء ترجرج كفلها. كان لعاب علوية يطقطق في بلعومها بين لحظة وأخرى، معبرا عن تهيؤات صاحبته. وجدنا بصحن الدار شيخاً ناهز الستين عاماً يتكئ على وسادة ارجوانية أقبلت نحوه متحرجاً مما ألم بي. كان كل شيء واضح سالمته بقوة متجاهلا حالي. فقالت المرأة وهي تمارس الإغواء بالتثني،

زوجي يا أستاذ يوسف.

استدارت تواجهه باشة، أكملت كلامها

مدرس انور

ردّ العجوز بصورة هرم.

أهلا وسهلا، تفضل، تفضل. أبصرت في جبهته المقطبة، وتراخي شفته السفلى، الكاشفة لتساقط قواطعه، بوادر ظنون سيئة دعمها انتصاب هبة ربي الخطير . تبادلنا النظرات، وكلانا في دماغه نتف خواطر. صارت قناعتي تزداد رسوخاً، كلما تلاقت عيوننا أنه لا يستطيع إشباع رغبة إمراة شابة، تستمتع لحرارة الوطء وحيوية النشاط، مارستهما مع الزوج الأول أبو أطفالها. والعجوز لا سبيل له بهما. إذن هو واجهة اجتماعية، تروي من ورائها تعطش غرائزها

بعلمه أو بدونه. وربما نشب عراك في الماضي بسبب نخوة الرجولة السابقة، حطمت نفسية الطفل فلجأ يدخن الحشيش مع المراهقين الذين حرفوه للشذوذ اقبلت المرأة بطبق الحلوى تتهادي، تجر خلفها طفليها الصغيرين كانا متشبثين بطرف الفستان تطل عيناهما الصغيرتان اللامعة، كلما حسرت موجة الريح الفستان عن ساقيها. تقوست طيعة لتقديم الحلوى التصقت علوية بفخذي، مالت نحوي ميلة أنستني مغازلة المرأة التي عرفت بحدسها أنها لعوب، وخزتني لأنهض حفظاً لكبريائها. هممنا بالانصراف فقالت أم أنور بأسلوب مغناج مميع

ما تقعدو شيوه الوقت بدري.

ردت علوية مستلمة زمام الأمر.

أنا متوقعة ضيوف

فقالت المرأة موجهة دفة حديثها لي.

ما تنقطع مننا يا أستاذ يوسف

ترددت الإجابة بين فكيّ، كدت أصرح بها عاجلتني علوية بوخزة مؤلمة أطبقت شفتي.

قالت باقتضاب ونحن بالفناء

بكره عشية أشوفك بالحديقة العامة فاهم.

ابديت الموافقة بطرفي، ثم أبنت حاضر

رنت للبنطال وتابعت

أشوفك ضروري

فاقسمت مؤكداً الحضور.

عدت لغرفتي انشد راحة تزيح الفتور، أسبلت جفوني مستعطفاً غفوة، جفلت لنداء رهف يوسف أبوي بسأل عنك.

استحضرت المخاوف، جاهدت في تبديدها بعبارة، اللهم أجعله خير. جرجرت قدمي وعقلي يحاول كبح جماح الأفكار المشؤومة، حييت خالي. كانت قسمات محياه غامضة التعابير. فقلت مضطربا أستجلي الحقيقة.

الأهل كيف حالهم.

طيبين إلا امك عندها حمى بسيطة وناوية تشوفك اليوم قبل بكره ولازم تسافر الصباح.

فقالت رهف الآتية نحونا بصوت شجي ريان.

- بابا خليني أسافر معاه.

- يا بنت السفر للبلد بالشاحنات.

أجابت بانشراح،

نفسي اركب الشاحنة.

يا رهف أمك ما بترضى.

إنت وافق أمي بقنعها.

ما عندي مانع لو وافقت.

شخصت في خالي، صدّ عني بممازحة إبنته، شعرت بالكآبة تربط رأيه برضاء زوجته. لم استنكف ضعف شخصيته حينما اخبرها وهي قادمة.

– رهف ناوية تسافر البلد مع يوسف،

تغضن وجهها أولا ثم أجابت بإنفعال،

تسافر كيف وأنا متوقعة زيارة دكتور أيمن وأختي عطلة المولد.

ثارت رهف ثورة طفولية، دعمتها بحركات يديها المتشنجة، ولسانها لا يكف بسافر بسافر أشوف عمتي.

نفذ صبر الدكتورة قمر فقالت خلاص طيري أف.

ربت فوق كتف رهف حتى سكنت ثورتها، مضيت صوب غرفتي تاركاً الخواطر التافهة تتجول بحرية انهمكت انظم ملابسي. ندت مني دندنة عفوية كستني بنشوة هدأت أعصابي. صك مسمعي وقع أقدام استدرت فإذا بي وجهها لوجه برهف تبسمت متدللة، اقتربت مني شممت أنفاسها العطرة. تحدثت بانوثة أربكتني، تعرف يا يوسف ديوانك رائع رائع حتى نهى صاحبتي مجنونة بشعرك.

هيج ذكر اسم نهى ذكريات الجامعة الخالدة فقلت مداريا قلقي

إذن أنت

أغمضت عينيها، لوت شفتيها أولتني ظهرها، تميدت لأثارتي ومن ثم قالت تصبح على خير.

بتُّ ليلتي مفتوح العينين أفكر فيما طرأ على الصبية الحسناء لم أهتد لشيء. حملت حقيبتي خرجت للبهو والشمس ما زالت مختبئة بالقطب الجنوبي. كانت رهف تروح وتغدو بين الأثاث، في حين خالي وزوجته متكئين على كرسيين متجاورين، يخيم بينهما صمت رهيب. ألقيت التحية، هبطت الدرج دون التفاتة. ركضت رهف خلفي بخطى سريعة موقعة لحقت بي عند قارعة الطريق، تأبطت ذراعي. انتقيت سيارة أجرة جيدة تقلنا لموقف الشاحنات، لم أدع للسائق فرصة مغازلة الفتاة فقد حاصرته بأسئلة عن كرة القدم، فأجاب بإسهاب كأنه خبير دولي. وصلنا ميدان الشاحنات وقد استنفذت زمن المسافة. ترجلت أحمل الأمتعة ورهف ما فتئت بين لحظة وأخرى، تغطي شعرها المضفور بالطرحة، كانت روعة وجهها تستلب أنظار المارة والمسافرين وأيضا ماسحي الأحذية، تفرست فيهم جيداً ثم رفعت الحقائب، ادنوتها لتصعد بإطار الشاحنة كادت تسقط وهي تتسلق ارتمت فوق صدري، احتويتها بساعدي، صعدنا سويا وكلانا يلتصق بالآخر إلتصاقاً حميماً بعث في نفسي إحساساً أصيلاً أخذت رهف نفسا عميقاً. استلقت على الجوالات المرصوصة مرتاحة البال. سرقت نظرات خاطفة جسست بها نبض الركاب. كان الرجال يحملقون تجاهها، مندهشين لنضارة جسمها البض المستور بالبنطال والقميص، إضافة للشعر الأسود المتدلي للنهدين المتكورين

كثدي الجدي. النسوة البدويات ملثمات يخطفن اللحظ ثم يهمسن. لست أدري معجبات أم حانقات. تحركت الشاحنة شمالا، أعيننا ترى مساكن المدينة ترحل للجنوب، اجتزنا الأكواخ العشوائية.

رهف تتمعن الوجوه المغبرة، التي أقل ما توصف به أنها أدمية.

سلكت السيارة المترنحة الطريق الجبلي الملتوي، توغلت في سهوب الصحراء الكبرى، أمواج الرمال تسوق حصاها رياح الخماسين جنوباً. كانت الأفواه ممتنعة عن الكلام، العيون تلوص في الفراغ الكوني الرحب المبدد وحشته أزيز المحرك، وصلنا أول قرية وقت الأصيل، أطلقت البدويات زغاريد صداحة خلبت لب رهف، فصارت تنظر وكأنها لا تنظر. فقلت مفسراً الحدث

– أظن مع النسوان شيلة عرس.

مكثنا دقائق فإذا النسوة والأطفال ينسلون من كل حدب، والدفوف تقرع للرقص. كان الفرح شعبيا بديع الفنون والطقوس. وأديرت حقائب العرس بالشاحنة سبعة مرات. نزلن البدويات تخطين الكبش المذبوح، الواحدة تلو الأخرى ورهف زائغة البصر. جفلت لدوي الأعيرة النارية. استشاطت غضباً لضحكتي، فأظهرت عبوساً أبان بهاء وجهها البرئ.

فقلت منشرح الأسارير تعالي نأكل.

تناولنا الطعام وسط الأهازيج الشعبية الطروبة. تحرك ركبنا، إخترقنا التلال والوهاد. رهف مبتعدة عني. قابلت جفوتها بسعة

بال، تأنست بالشفق الأحمر، الرياح باردة تتوالي موجاتها طردياً مع ارتفاع القمر. أنجم المجرة اختفت، نجمة الزهرة ترسل الأشعة تجاه الأرض. نعست رهف فتبدل نفورها لطمأنينة، أدنت رأسها من كتفي. تلاعب شعرها فوق صدري زحف فقبل شفتي، تحسست وجودي براحتها. كانت دواخلي مشبعة بأحلام يقظة نفرت نومي تنفست هواء زفيرها. صفت روحي لهدهدة الشاحنة وتميدها الذي يدنينا حيناً ويبعدنا حيناً.

استأنست بخيوط الفجر عيناي الساهرة كانت روعة الإصباح فريدة عمة الصحراء، اتكأت على يدي اليسرى أرقب بزوغ قرص الشمس من نهاية الأرض. أيقظت رهف تشاطرني سحر الشروق. فركت عينيها لتستقبل ضوء الصباح. كان على مرآنا نسوة يمتطين النوق، أطفال عراة يركضون خلف الشاحنة. توقفت تلك، ورهف مبهوتة بالمنظر الطبيعي الغير مألوف لها. نزلت الأمتعة، ثم صعدت أفواقها من سهوها. كان النزول أقل مشقة مقارنة بالصعود. وطأت أقدامنا الأرض، ورهف شاردة البصر حيال ألطفال العراة، وهم يفركون غلفة ذكورهم بمتعة يحسونها عند الدلك. كان اهتمامها منصباً ناحية الذكور الكبيرة الغير متناسقة مع أعمار الصغار. رأيتها تبتسم لقضيب أخذ في الارتفاع. عندئذ فهمت ان هبة ربي هي النعمة القاصية لكل النعم.

فلحظة المتعة معها لا تضاهيها سيارة فارهة، أو عمارة شاهقة، حتى الأسماء اللامعة تفقد بريقها، إذا خلت من المواصفات

اللامعقولة. قبلت خدود الصبية الغبراء، ثم مشيت قاصداً أكواخنا وفكري يتقصى حقيقة ظاهرة كبر العضو التناسلي لأفراد العائلة. مررنا ببعير يرغي ويزبد. طفر إلى مخيلتي حينها حليب الإبل، الوجبة الرئيسية لسكان البادية. كانت رهف تحولق بعينيها الواسعتين بين بعير مناخ، وإمرأة داخل هودج مياد، زخرفت حوافه بالصدف، ممسكة بالرسن بقوة مانعة الناقة عن الخب.

ذاع صيت وصولي والفتاة بالقرية. رؤوس الفتيات تطل من وراء سياج القش، تخمن مقدار الفضيحة التي أتيت بها. قابلني والدي بفناء الدار بوجه مكفهر تتطاير من عينيه الشرر.

بادرته لإفساد ظنونه السيئة، رهف بنت خالي.

مددت يدي أصافحه، أحتواني بذراعيه، ضمني بشدة رفت إلي سكينة لا قبل لي بها ثم تركني أهيم في احلامي. طوّق رهف، أمطرها سلاماً تخللته عبرة. بعده أشار للراعي بذبح كبش يطرد الأرواح الشريرة، قفزنا فوقه برشاقة زغردت أمي زغرودة حارة جاءت بالأهل من كل فج. بيد ان جدي المتوكئ على عصاه لما أبصر حفيدته، لهج بدعاء مسموع ربي أوزعني أن اشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين.) أجهش باكياً وهو يحتضنها. كانت حفيدته مبهورة بفيض سجايا فطرية سمحة. سكنت بين ذراعيه هامدة، ليشم رائحة تاريخه القديم من عبق طيات شعرها مكثت فوق ضلوعه الناتئة حتى أرتوي شوقه. تركها تنتقل لأيدي النساء.

كان تلاحم الأثداء ودغدغة بعضهن لبعض يولد الأحاسيس الجنسية. كانت الفتيات المرافقات يتوسوسن بمشاعر مختلفة، بعضها نبيلة وأخرى حاسدة غيورة من جمالها البارع.

فقالت واحدة مبدية رأيها صراحة. والله ما بتشبه لي إلا صغارة الشيطان تصايحن بصوت نسائي رقيق كيدي. كان الفتيان بعشة الضيافة، ينظرون إليّ كبطل أسطوري استطاع أن يأتي بفتاة رائعة لجذورها الضاربة في عمق الصحراء. استقبل ابي أفراد القبيلة المقبلين بموائدهم للمشاركة بفرح عودتي استقبالاً يليق بعظمة المناسبة. كانوا حين يصافحونني، أحس بحرارة لطافتهم الأصيلة دافئة تسري في أوصالي نشوة. تناولنا الطعام وفق حلقات تتخذ الأعمار أساساً لها.

كان والدي يرمقني بنظرة إعتزاز، كلما دار الحديث عن إبنة الدكتور إسماعيل بعد أخبار أسعار الإبل بمصر المتضاربة، فيتولاني حبور غامض دفاق تثريه تطلعات أبناء عمومتي. رويت لهم مغامرات إختلقتها عن المدينة الكبيرة. كان القمر ساطعاً يتوسط زرقة السماء ناشراً خيوط اشعته على التلال، وأكواخ القرية المنسية، وأيضاً الوجوه النضرة مضفياً إليها بريق جذاب. سكنت أذرو حبيبات الرمل مستلذاً ببرودتها، المنشطة لأطراف أناملي، قرع الطبل إنطلق الرفاق للتصفيق والغناء الشجي هرعت على آثارهم، وصلت فناء الدار. كانت إخوتي يرقصن بإبداع تطايرت له ضفائرهن الحرة كخيوط ضوء القمر . اتسعت الحلقة لتأوي الشيوخ والشباب. كان الطرب مقدساً

لا تشوبه بادرة شهوة بل روح إنسانية سامية المقاصد لينت عريكة جدي فرقص مع حفيدته . صار يضربها بالمسبحة بين لحظة وأخرى للبركة. إنتزع الصخب المجنون إزار وقاري، ولجت الحلقة منتشياً أخوض غمارها. الصقت النقود على جباه الفتيات، متقبلاً بفخر صفع الضفائر الطليقة التي تزداد طيشاً وجنوناً وعربدة، لأصوات طلقات البنادق وزمرة الراقصين حول جدي، رهف سامقة بالطرب لرحاب لم تعهده الصحراء منذ قرون، ولا هزيع الليالي المنقضية حتى المشوبه بأفكار وأفعال شيطانية، إلا هذا المساء تميز بطباع صافي شفاف طهرت فيه الأرواح عن الدنايا. ركنت لفراشي قبل طلوع الفجر منهك، استباح التعب أعضائي جميعها عدا عقلي يجتر سحر الاحتفال اللامعقول. كان الصباح معتدلاً تهب رياحه فاترة لا تقوى على جرف حبات الرمل، توشوش عند قصب السياج. تمطيت محاولاً التحلل من الفتور، سمعت أمي تناديني.

أصح يا أبني، البنية منتظراك تمشي معها للأهل تسلم عليهم في بيوتهم.

أجبت وعيناي مغمضتين البنات وين مشن.

أطلقت تنهيدة استغراب وواصلت حديثها.

يا ولدي طلبها تمشي معاك إنت وخلاص.

لبيت أمرها منقبض النفس، فتلك المهمة توكل للفتيات أما لرجل مثلي فهي محل تندر وسخرية. طفنا الأكواخ وخلفنا أطفال شبه

عراة يتقافزون. كانت حفاوة الأقارب وبشاشة ترحيبهم اصلية، إلا غمزات المحها عند مغادرة الكوخ تصدر من أقراني، مستهجنين بها مخالفتي للموروث، باصطحاب فتاة كمرشد وبالقرية فتيات أكثر من عدد الرمل، لي فيهن أربعة. عزائي نظرات عيونهم النهمة يشدها التحديق للثغر المحمر العذب التقبيل. عرجنا لزقاق ملتوي للبيت. صادفنا إبن عمي يسوق ناقة يعتلي سرجها هودج جديد مزركش، تتدلى بين جانبيه حبال مرصعة بالصدف الملون. صاحت رهف بلا وعي.

ركبني فوق الناقة يا يوسف.

فقال أبن عمي مرتبكاً

حاضر حاضر.

أناخ ناقته. تسلقت رهف عنقها بمشقة أتلفت أعصابي، إرتقت السرج مرتعشة الساقين. ألتصقت بالناقة امنع زلة قدمها. أستوت جالسة بقوة إرادة أذهلتني، رنعت الناقة. صرخت للهزة الفجائية. صحت مذعوراً

أمسك عكفة السرج.

تنفست الصعداء لاستقراراها بالهودج، تفصد جلدي عرقاً. غشاني استرخاء أزاح عن كاهلي المصائب الوشيكة. قاد ابن عمي الناقة بتروي وأنا ثابت البصر، أتحسب لما يطرأ. كانت رهف تائهة في عالم الصحراء وبصرها معلق بالسماء المنتهية عند نقطة حميمة

مع الأرض المموجة التلال. وصلنا الفناء بّرك صاحبي الناقة. تأهبت بكل حواسي لإنزال الصبية فردت رهف ذراعيها متأهبة للهبوط، كما لو كانت تود أن تطير، غير مبالية بما يجري لها من مخاطر. استقطت ثمرتي صدرها فوق صدري لفت ساعديها حول عنقي، انتشيت بلذة أوجدتها حركة الهبوط. ضممتها حتى خيل إلى أنها اخترقت ضلوعي، سمعت طقطقة بلع ريقها، تهيجت غرائزي خللت اصابعي بين خصلات شعرها. إستكانت لحظة، ثم نفرت مهرولة تجاه التعريشة ظللت مكاني اتنفس بصعوبة، شعرت في غضون ذلك العناق أنني في حالة سكر. هدأت ارتعاشتي، لاحظت ما ألم بإبن عمي من جحوظ حول أدميته الى حجر. ترسمت خطاها غير آبه له. كان فؤادي خفاقاً يكاد يخرج من جوفي، أفكاري مشوشة ليست بها فكرة جيدة ابتدر بها الكلام.

قوست ظهري لدخول العريشة ورأسي خاوي إلا من فكرة قبلة جاءت متأخرة، صممت نيلها تجمد دمي في عروقي فقد وجدتها مستلقية تتصفح ديوان أزهار لم تتفتح بعد. فنبشت ذاكرتي أطياف رؤى ماضية وحاضرة، انتبأ خلالها بطوايا سرائر الانقلاب، أقتبس من نفسيتها تحديد معايير المواصفات القياسية، للفارس المجهول الذي أمتلك صفاته، لتشوقها رؤيتي تشوقاً حضني لقراءتها بروح شاعر ملهم تتلاشى عندها المسافات والأزمنة، محطماً حواجز ومتاريس شاقة طلباً للحقيقة فشردت أبحث عن ذاتي.

٥

همت المزنة الرمادية المخفضة، رذاذاً خفيفاً لا يثير في النفس الإحساس بالبلل. فقد جادت ليلة البارحة بماء منهمر. كان تيار الهواء رائقاً تزف نسماته برودة لذيذة تنعش الأجساد بقشعريرة بسيطة مستطابة. إنسلت الانقلاب من سيارة خالها. كل عضو فيها يهتز،تقدمت نحو بوابة الجامعة الكبيرة بخطوات بطيئة تبحث عن موطئ، يجنبها خوض المياه الراكدة والانزلاق في الوحل. طوت المسافة القصيرة بمعاناة. كان سرورها ينمو وهي تتوغل حرم الجامعة. تنبهت للثوب إذ كان منحسراً، أصلحته لتبدو متأنقة. أرسلت بصرها لرؤية الفناء الفسيح. الطلبة فيه يتفيؤن الظلال الوارفة، مستمرئين الحديث الخافت، والإبتسامات الودودة، في حين أناملهم تتلهى بمس الحقائب المستقرة عند الأفخاذ، متخذة البلل ذريعة تقي رعشة الملامسة. شخصت إليها الأبصار، سرت فيها تخديرة الخجل، زرت حاجبيها تستدرك رباطة جأشها. كانت افكار مخيلتها تتصارع بين المهابة والفرح. أما الحرية، فقد تذوقت طعمها الحلو رغم الرهبة، المغلفة وجدانها منذ احتلامها. تبسمت لطيف ذكريات أيامها السالفة، ذلك الماضي الذي لو قدر لها فيه التجاوب مع غزل الفتيان، بلفته أو طرفه ترضى أنوثتها، لانتشرت إشاعة مغرضة تقعدها بالبيت ربه منزل، تعد الطعام، تنظر الزواج نهاية موسم الحصاد. ولأجل الحاضر، دفنت نزوات مراهقتها،

مخالفة سلوك رفيقاتها في الحي، كان ما يصبو إليه قلبها، تجده في مخدعها، احلام يقظة ممتعة عوضاً عما تهفو روحها إليه، ذاهبة أو أئبة. انقشعت الخاطرة تلمست طريقها متفادية البرك والمزالق. لم تجد غضاضة للتلفت ميمنة وميسرة، تعاين الوجوه النضرة، والعيون النجلاوات المطلة وراء نظرات مختلفة الأشكال.تضفي على الأنوف سحراً غير مألوف، تمكنت لأول مرة التطلع دون حياء، للشوارب المعقوفة التي تنبسط وتنكمش مع إفترار الشفاه ساعة الهمس. كان شعورها بالوحدة ضئيل فالحرية أكسبتها شجاعة وثقة لا يخالطها إرتياب. تشرب خدها الأيسر بحمرة جذابة، مفادها ارتفاع نبضات قلبها متأثراً بعيون ترنو إليها. فطنت لحاشية الثوب تبتعد عن جيدها، فاستهوت خصلاتها العربدة مع تيار الهواء الرطب. أعادت السكون لذوائب شعرها، وتابعت المشي، فخيل إليها أنها تسبح في فراغ لا نهائي موحش، ألزمها السعي وسط الطلاب لملاقاة طالبات مدينة النهود، اللائي سبقنها العام الماضي. تحرجت من تحايا بنات الأثرياء. فقد كن يلثمن خدودهن بقبل لها صوت موسيقي رائع، غير مباليات بأفواج الفتيان الذين لا يلوّن علي شيء كأن بآذانهم وقر. لوت الانقلاب فمها مما رأت. خاطبت نفسها مستهجنة بالواقع، حرية. اترعبت لسماعها أسمها بذبذبات رخيمة، تصك أذنيها جالت بخواطرها شتى الفكر. ألم بها ارتباك فوضوي. تظاهرت بالجلد لما أبصرته. كان منصور يطاردها بالمغازلة عند نهر قمرايا الموسمي، رائحة غادية. تذكرت هرولتها منه، وكيف أنها اعتزمت الصراخ لو تمادي في قربه وعباراته المفضوحة. مدّت يدها تصافحه بمشاعر

موغلة في الرهافة والشفافية. توخت الحذر لملاقات كفيهما. خمن منصور بحدسه ما يعتلج بصدر الانقلاب من إنطواء ونفور، سحب راحته قبلها، وابتدر كلامه بلهجة ناعمة أشبه بالهمس.

تعالى اولاً نشرب عصير بارد ثم نفكر.

إنقادت بيسر محبذة الصمت والإصغاء لحديثه. كانت شكوكها تنمو تجاه أسلوبه المضلل، جارته في المخادعة طمعاً لفض عزلتها، تنقلت معه بين دهاليز الممرات مشاطرة ثرثرته بابتسامة وضيئة تصرف الأبصار لتتبعها. كان منصور يختلس النظر لما حوله كلما سنحت فرصة، مغتبطاً لرفقة حسناء الجامعة مستعرضاً قدرته الفذة لامتلاك الجوهرة السمراء. بدرت منه حركات رشيقة، تواكب أسلوبه السلس الخافت، مرهفاً السمع لالتقاط تعليقات الرفاق. والانقلاب طيعة وسهلة التوجه. حلقت روحه عاليا تحلم بأماني، كانت كامنة منذ رآها تتبختر فوق رمال النهر الموسمي. كان مبتغاه سابقاً نظرة، أما اليوم وغداً الطمع فيما تؤول إليه البشرية جمعاء. أختتم المطاف بمركز نشاط الطلاب. كانت الحركة دائبة يستلزم شقها معاناة. أعناق الأفواج تشرئب لقراءة الملصقات بمزاج خاص، تمخض عنه التحجر. فج منصور بساعديه سبيلاً لفتاته مبدياً شهامة، تستدر عطفها، اخترق الصفوف نحو مقصده. كان مقر رابطة أبناء النهود مكتظ بالرفاق المؤلفة قلوبهم، بسحر اسم المدينة الذي ليس له نظير في مدن العالم، فقد جمع فأحوى الأمومة، الدفء، الإطئنان، الشهوة، الإغراء والجلال الأنيق.

ذهلت الجنة لقدوم الانقلاب، هبت سعيدة تتلقفها، حوطتها بذراعيها، ثم لم تتوان في تقبيل خدها، قبلاً توهج نضارته، غير مكترثة بما تفعله موسيقى القبل بافئدة المحاضرين. تأملتها بتحديقة واسعة وتفوهت.

ما شاء الله ما شاء الله.

جولت يديها في الأفق، ممارسة طقوس تدراء كيد الأعين الشريرة. إحتوتها ثانياً واسترسلت.

سيكون احتفال الرابطة بقدومك، يفوق روعة الأساطير الخرافية. انفرجت شفتي الانقلاب الطريتين، فانبعثت نتف افكار وهواجس متسلطة، بعضها إنساني والآخر غلبت عليه النزوة. خمدت ثورة الخواطر بملامسة يدها التي امتصت نزعة الشيطان، تاركة العواطف الإنسانية تسمو. كان التعارف ودوداً كسيل نهر قمرايا أبان الفيضان. كانت الانقلاب تسرق اللحظ الجميل، ثم ترده منكسراً ناحية ردفيها الممتلئين، مستنكفة نظرات الأشتهاء المسلطة. وسوس منصور لرفاقه بقدر ما يسرت له ملكه التأليف. كانت عقولهم تمحص الأمور الكفيلة بقطع الوشيجة، فتظاهروا بالمسكنة والإنصات، إنطلت الحيلة عليه، ترعرعت غريزة امتلاكه، تناول يد الانقلاب لتصحبه حيث شاء، منتحلا رشاقة وخفة ظل. كانت الجنة تضمر له غضبا مكبوتا منذ اكتشافه، كجاسوس يعمل لصالح تنظيم الاتجاه الإسلامي وسط حزب الأمة، رغم إنتماء اسرته للأنصار. جذبت يد الفتاة عن يده بقوة، ثم قالت مستشيطة.

خليها في حالها يا منافق.

التفتت لزميلاتها واستطردت بنفس حار

تعالن نشرب بارد.

استسلم منصور للزجرة العنيفة لكنه بيَّت نية الانتقام، ورد الصفعة باخرى اشد إيلاماً، بحياكة مؤامرة تشوه سمعة الجنة. نقل عينيه يجسّ حجم الشماتة، فبقدرها تكون خباثة الدسيسة، لم يعثر على اعتبار. كان اعتدال قوام الانقلاب وتميد قدمها الرشيق، وموكب الفتيات الإحتفالي المهيب، المصاحب لروعة إهتزاز الأعطاف. كان مشهداً ملزماً للوجوه، باتحاف نواظرها بالجلال المقدس لترنو إليه. حاصرت منصور خيبة أمل، فقد الفى الأحداق حولاقة تعشق الجمال، رجّع بصره خاسئا حسييرا معترفا بالهزيمة، فانسحب خلسة يجرجر أذيال الفضيحة. أصاب الانقلاب قلق لوضاعة مجريات الأمور، الكل تستهويه اشباع الغريزة لا سمو الروح والتعامل الحضاري الراقي.

خرجت من الجامعة بصداع، شغلها عن إطراء السابلة المتأنقين وغزل العاطلين، وأصحاب المهن الهامشية.

استغلت هامش الطريق نائية بنفسها عن مواطن الازدحام. انتبذت مكانا قصيا تلتقط أنفاسها. كان المواطنون يتصارعون صوب المركب العامة، بهمجية متناسين صفتهم الآدمية، بالتعارك بباب لا يسع سوى شخص، تحفهم الأنانية للدخول مثنى وثلاث للظفر بمقعد. كان الشيوخ يعودون عقب كل صراع بخيبة امل، ضاربين كفا

بكف تعجبا للسلوك الفوضوي الشائع. النازلين عن المركبة يكشرون عن أنيابهم، لصعوبة الهبوط والسنتهم تلهج بالسباب المقذع. إلا لسان ابتدر الحديث عاليا أحذروا النشالين. تحولت الأيادي بسرعة لا إرادية تحمي الجيوب من السرقة، كان الأفراد الخارجين من المعمعة ينفضون حواف اكمامهم بتأفف، ثم يولوا. شد انتباه الانقلاب عجوز يتلفظ بشتائم بذيئة ثم يصرخ.

يا غجر الله يلعن ابو اليوم الجابكم.

عض بنانه مغتاظا. كان جسمه النحيف المقوس، لا طاقة له لخوض المعركة. فآثر جيرة النساء، اللائي ما زال لهن الحياء، يسرقن طرفا لموحا لهرج التدافع.

سقطت فتاة تحت الأقدام. صرخت لانكشاف أردافها، كانت العيون تحملق بالفخذين العاريين بمتعة شهوانة مفرطة، حجبت العقول عن فعل شيء إنساني للفتاة. إلا امرأة في الثلاثين، غطتها بالثوب منهية فصول الماساة. أوجس المشهد في نفس الانقلاب تخوفا جعلها تتقدم للمركبة بحذر.... صعدت بحرص يدعو للمبالغة، تنفست بارتياح عند المقعد، صار عقلها ينسج أفكارا عجائبية سلبت وعيها، فما عادت تدري ما يجري، حتى طقطقة اصبعي المحصل لم تثنها عن الشرود. كانت صور الموقف بمهجتها، فخيل لناظريها تجسمها على زجاج نافذة السيارة، لشدة إسرافها نسيت محطة النزول،كادت تصل نهاية الرحلة لولا عطسة جارها. تحوطت لخطاها، زحفت تجنبا لما آلت اليه الفتاة السابقة. هبطت متمهلة، لكنها ما انفكت تطارد

خيالاتها، طوت المسافة وهي أسيرة انطباعها، دفعت الباب براحتها ثم ولجت.

تنهدت تنهيدةً مهدت لانعطافٍ جذري مخالفٍ لما بخلدها قبل حين. انعتقت من وطاة معاناة الوحدة. آبت روحها لسجيتها، تفجرت ينابيع مرحها، قبلت سارة كثيرا احتضنتها لتروي عاطفة الأمومة. الطفلة هامدة تطرف أهدابها كانت هدى جالسة تفور غيرتها بين ضلوعها، فكلما رأت الانقلاب، خطرت ببالها ممازحة اسماعيل واعجابه بجمالها، ورغم كونها ابنة أخته إلا ان افتتانه بالجمال، ربما حثه للبحث عن فتاة بمواصفات الانقلاب. فهي بتلك الفتنة محرضة زوجها للزواج بأخرى ولو سرا. ردت تحية الانقلاب ببشاشة مصطنعة. ابدت الانقلاب صلابة وعناد لا يتضعضعان. كان وجه هدى تجري فيه علامات ثورة وشيكة، أخفتها بتهذيب اظافرها بالمبرد. بادر اسماعيل الآتي للتو بضحكة مرحة، اعتاد بها استقبال أسرته الصغيرة. شاركت سارة سروره بعبثها البهيج، لفت ساعديها الرقيقتين حول عنقه، محكمة تطويقه. وقفت هدى برهة تلملم خصلات شعرها.

كانت روحها متوثبة للقائه مشبعة بود حقيقي نقي. أدركت بحدسها المرهف روعة العناق التلقائي العميق ساعة الخلوة. الذي كانت ثمرته الطفلة سارة، تخلصت من براثن اوهامها الهدامة، بتصور حرارة عناق الوطء، بالمخدع احتوته ببصرها، قفلت ادراجها وفي نيتها إعداد الطعام.

انفرد اسماعيل بالانقلاب فسألها؟

كيف الجامعة اليوم؟

تسلت بفرقعة انامِلها رهبا ثم ردت

يعني

كفت عن الكلام

تابع هو بعبارة جادة

ذكريني بعد غفوة الغداء امشي معك مركز الكمبيوتر.

حاضر

انضم الفاتح لمائدة الطعام وبعينيه بقايا نعاس

هاجمه اسماعيل على حين غرة، محاولا انتشاله من وسنه

قالوا لي نويت السفر

تثائب الفاتح ثم اجاب

بكرة بإذن الله

ومستعجل مالك على الأقل ارتاح من تعب البهائم يومين.

وين يا خال الراحة، أصله التعب قسمتنا

تطلع للانقلاب بنظرة غامضة قابلة لتفاسير شتى.

انغمست الانقلاب بإزاء لمحة الفاتح المشحونة بالخوف والرجاء،

في أفكار انعطفت لمسار جديد فرض نفسه. فقد عرضت ذاكرتها، مدينة النهود واضحة. نهر قمرايا الموسمي، ذو الرمال الناصعة وقت الجفاف. حلقات السمار تتبعثر فيه كأنجم المجره. الأطفال العراة، مولعين بالمخاضة عند هطول الأمطار. المساكن المشيدة بالحجارة البيضاء الفريدة، ناشرة لون السلام على ربوع المدينة.

مروج خضراء لمحصول الفول السوداني. أخطأت اللقمة مسارها للفم، ثابت الى رشدها. كانت الأنظار مسلطة عليها دون ان تطرف، مأخوذة بسهوها. شردت أفكار الانقلاب لحديث اسماعيل الموجه لزوجته.

انا مرافق الانقلاب لمركز الكمبيوتر يعني مشوار ساعة اجي القاك جاهزة، السر داعينا عشاء في بيته،

هزت رأسها مؤكدة الأمتثال للأمر ثم نطقت.

سمح

غادرت الانقلاب المائدة، وبصدرها تتلاطم أمواج غبطة، رفت اليها حب استطلاع تواق لعالم جديد في مجال المعرفة. وقفت امام المرآة مدة كافية مارست فيها شتى سبل التأنق. تضاحكت مع صورتها. انسلت خارجة، موقعة بكعب الحذاء ايقاعا سمق بروحها المعنوية لذرا عالية. حدق فيها الفاتح ببلاهة مجهدا نفسه للامساك بلحظة تروي. عض شفته السفلى صابا عليها جام غضبه حتى أحمرت، نفث آهة اودعها ثورة صدره.

كانت اوهامه تسول له، أن العار سيأتي للأسرة من تحت رأس هذه المجنونة، كظم غيظه خشية غضب خاله. راح يفرغ انفعاله بهز ساقه اليسرى. رمته بلحظ صادق التحنان، أشاح عنها. أولته ظهرها مشت خلف خالها. كان لمعاينتها وقع استمال عطفه، فصار يذرع المكان جيئة وذهابا يؤنبه وخز ضميره لسلوكه غير المشرف.

غذى تصرف الفاتح لديها الشعور بالمرارة واحباط لا حدود له، جعلها طيلة الطريق تفكر في معاملة شقيقها الجافة. تنهدت بحرقة ازعجت اسماعيل المحترم صمتها، انتهز سانحة التأوه واقتحم السكون بلطافة التفاته

يلتقط منها خيط الحديث. ضاعت الكلمات بين فكيه، فقد الفاها تمسح دمعة تحدرت دون استئذان، فشلت في مقاومتها. ربت فوق كتفها بحنو. استطرد بصوت متحشرج حزين.

شوفي يا بنت انا مؤمن بقدرتك النفسية لامتصاص كافة الأزمات المحبطة. لأنك تشبهي امي. كانت رحمة الله عليها قوية الشكيمة، لها عناد متماسك كصخرة صماء، مؤمنة بالعلم ايمان راسخ. كانت تقول لي وأنا يافع، يا ولدي في زمننا ما كان عندنا حظ نتعلم لكن لو عندك رغبة تتعلم اسفرك لآخر الدنيا.

كنا وقتها في طريقنا لمزرعتها.

كانت تحفر الأرض بآلتها البدائية بنشاط وجلد وطاقة لا تنفد،

حتى إذا جاء موسم الحصاد، حصدت محصول فول تبز به

الرجال الأقوياء، ورغم كونها لا تعرف القراءة والكتابة، تتصفح كراساتي باهتمام وشغف زائد حتى خيل اليّ أنها تقرأ ما أكتب. كنت أرى بريق عينيها وهي تتأملني عند عودتي من المدرسة. مسح بلورة دمعة تعلقت باهدابه.

عطف السيارة يمينا. كانت لافتة المركز بحجم كبير يغرى للتطلع، لكن ما لفت الانتباه السيارات الفارهة المتراصة بجانبي الطريق. ولجت والهواجس لا تمل مطاردتها، رغم حفاوة الترحاب الذي جرى أمامها بين خالها ومدير المركز.

ما زال ينازعها احساس غامض، زاد عندما تقدمها المدير صاعدا للطابق العلوي، بعد تركه راحتها المغطاة بحافة الثوب.

كان وقع خطاها متناغما يوحي بالاستقامة. انتبهت الوجوه المنكبة على الكمبيوتر، فاستدارت متحلية بانفراج شفاه، كاشفة الأسنان البيض، والوان مساحيق الخدود.

صدرت أصوات مميعة بالتحية، لملمت الانقلاب حواشي ثوبها، وقد ران بقلبها تهيب انشأته ملامسة معلم التشغيل. انخفضت الأبصار مرحبة بالرفيقة. إلا عيون الرجال الجريئة. قفلت راجعة وهي تحت سطوة قوة المهابة. كان صديق خالها يهوى الثرثرة، في حين قدميه ميالة للرشاقة وهي تهبط الدرج. كان اسماعيل يجاريه الحديث بإيماءات موجبة تؤكد صدق قوله، نطق بعدها معلنا ضعف ذاكرته تعرف يا حسين من كثرة المشاغل أصبحت أنسى أيام الأسبوع.

ثم غير دفة الكلام.

كم مبلغ القسط الأول

مقبولة مجانا ارتحت.

معنى كلامك قدم السبت تلقى الأحد.

ضحكا معا

صافحه حسين وأردف بلهجة توسل

خليها على الله

استمال بجسمه يودع الفتاة

فاجاءه اسماعيل

الانقلاب بنت أختي

شعرت بشرود حسين في عالم لا متناهي، سحبت يدها بسرعة وتوارت خلف خالها في برهة، حتى تم الوداع. زجَّتْ بنفسها داخل السيارة محبذة الانطواء. راقبت من المرآة تسمر حسين وفاهه فاغرا من شدة الانبهار.

مالت السيارة لطريق آخر. المرآة تعكس صورا مختلفة لكن عينيها، ما فتئت تتوهم صورته التي لم تُمّح تماما من داخل الصور. كان السكون يبذر بذور الارتياب والخوف في أعماقها، بينما ذهنها تفتحت فيه مسالك لم تهتد الى سبيل، يمكن طرقه للتعامل مع الجنس

الآخر.

تارجح فكرها دون توقف بين الانفتاح والانكماش، فانعزلت عن الواقع برمته.

انشلتها هدى مستفسرة

ما رايك في لون الثوب

ردت متلجلجة

رائع رائع

انحنت تلاطف سارة المتشبثة بحواشي ثوبها، اشتهت لثمها على فمها الصغير المزموم. طافت بخلدها قبلات احتلامها البغيض، لفارس احلامها الذي باءت بالفشل في استخلاصه من ذاكرتها، داهمتها رعشة من الصعوبة بمكان احتواء خدرها. ركنت للانطواء مستلذة لهدهدة السيارة وأنفاس الصغيرة الملتصقة بجيدها.

تفتر أحيانا، وتشتد احيانا. كان الصمت بيئة خصبة لتوارد الخواطر. نزلوا ممسكين عن الكلام. تبادلوا النظرات جوار الحائط. ضغط اسماعيل جرس الباب. عمدت الانقلاب للحشمة، مدارية مواطن إغراء ابت إلا ان تطل فتنتها، ترددت وجلة لسبق قدمها اليسرى للدخول. أخرتها بحركة سريعة، ثم قدمت اليمنى لقهر كيد الشيطان. راق مزاجها صافحت زوجة الشاعر، بحرارة وسماحة طبع امتدتا تشمل اطفالها الصغار. فقد كانوا انيقين لدرجة أنها لم تجد حرجا في تقبيلهم قبل مواصلة سيرها.

اتسمت لحظة تلاقي كف الانقلاب براحة الشاعر، بتهيات سريان دبيب يجتاح الأوصال. كانت نظرة السر اللماحة خارقة، أوحت للانقلاب الملاذ بالخفر. اما السر فكان على نقيض ذلك تماما، إذ صارت تجري على لسانه كلمات ترحيب كشفت النقاب عن اعجابه وعشقه للجمال. متجاوزا بعواطفه المعاني الوضيعة، والرغبة المنحطة الى وعي يجعل نعيم الجمال لمسه انسانية، تدفع للابداع الأصيل المتطابق الأفعال والأقوال، لإرساء دعائم السلام. جلس قبالتها يقارن بين الجوهر والمظهر، وما أحدثه كل على حده في إبداعه الشعري. طفرت القصيدة في ذهنه متداعية، تتسابق أبياتها وقد تبدلت بعض المقاطع بأخرى، جرسية الموسيقى، استلهمت من المشاهدة المباشرة، إيقاعًا فنيا حيًا يختلف عما دونته الكتابة الأولى. كان اسماعيل يداعب ساعته ومعصمه، وبصره مثبت تجاه سارة التي تعدو فرحة خلف الأطفال. متمتعة بالعبور وسط مسافات الكراسي الضيقة، والجري حول المنضدة الكبيرة، بخطوات مختلة التوازن وأنفاس متصاعدة.

سارت هدى وراء زوجة الشاعر، استجابة لإشارة بدرت منها. صور لها حدسها ان رفيقتها تكتم أسرارا تود البوح بها.

ابتسمت تستدرجها للثرثرة، أمعنت زوجة الشاعر في معاينة أثاث غرفة الجلوس الجديد مليا، كما لو كانت تتقصى عيوبه الخفية تحت وميض لمعانه.

استدارت لتواجه هدى بملامح مطبوعة ببشاشة حقيقية، ثم

انبرت قائلة:

أنا يا هدى متأكدة من ذوقك الحلو، ونفسي اسمع رأيك بصراحة في الكراسي.

رطبت هدى شفتيها بالرضاب، لتبدو كلماتها ندية المقاطع، تخرج مع الأنفاس مميعة الحروف.

شخصت للأثاث، رسمت بسمة واسعة ثم نطقت

حقيقة شيء مدهش الايطاليون بارعون في صناعة الأثاث.

أبدا والله محلي يا اختي

أكيد غالي جدا

يعني، لما السر كتب قصيدة الانتفاضة، اشتراها فنان كبير بمبلغ محترم فاقترحت عليه شراء أثاث فاخر يليق بمقام الشعراء والفنانين الكبار، خصوصا بعد شهرة قصائده الغنائية، أصبح بيتنا قبلتهم فوافق لما ألحيت.

انت يا اختي علي حق، كان ضاعت أكل وشراب وأشياء تافهة هي البطن لو تابعناها ما بنعمل شيء للمستقبل.

حقيقة الأشياء الجميلة، تتم خطوة خطوة، أنا لما نويت اشتري لوحات فنية رائعة لرسامين فرنسيين، حاول اسماعيل تثبيط همتي، لكنني أصريت عليه. فما ادخرت وسيلة توصلني اليها، وقد كان ما اردت.

نابت عن زوجة الشاعر لمحة عجلى تصفحت به وجه هدى، ثم حاصت ببصرها تتفقد الأثاث. فتبينت ان جماله تنقصه لوحات على الحوائط، فعرفت عنئذ أنها في بداية الطريق لاكتساب ذوق رفيع.

جرت ببالها أخيلة، ما تصبو اليه لتكون أرقى نساء الحي الشعبي وجاراتها، توجهت للمطبخ تتأود طربا، متناسة إصطحاب ضيفتها.

أزور حاجب هدى، لتماهي صاحبتها الأجوف. إشمأزّت لخاطرة المقارنة معها. شتان ما بين التخلف، وبراعة الذوق المؤصل، والترف الموروث ومستجد النعمة. أرضى غرورها الفرق الشاسع. لكن كنيتها بزوجة الشاعر على السن النسوان أصابها بغصة مرة.

أستدركت زوجة الشاعر فداحة تصرفها، لما تنبهت فآبت راجعة تعتذر طالبة العفو، فقالت مكسورة الخاطر،

متأسفة يا هدى حقك علي.

قالو القلب كان غاب الجثة بالخراب والله معزتك عندي يعلمها الا الله، وتعالي نسوي العشاء.

وافقت هدى على مضض بهزة رأسها، اغتنت أثرها.

قال السر بغتة: ما رأيك يا إسماعيل في خطاب حسن الترابي.

هذا الرجل له كبر ما هو ببالغه عن طريق صناديق الإقتراع لذلك يتسلق بالعسكر، أمنيته أن يكون رئيساً للسودان ولن يكون. لقد سمعت من صديقاً لي أن الشيخ الدسوقي لقبه بالمسجم يعني الباطل الذي

لا يرجى منه. خطابة يا السر يدعو للجهوية وإشتعال الحروب، وربما تقسيم السودان لاحقاً. هذا الرجل في الحقيقة فتنة، لكن مصيبة البلاد الفكر فيها عقائدي ماسوني المنشأ، أقطع الشجرة بأحد أغصانها. غايته تمزيق الأمة العربية لمصلحة أمن إسرائيل.

وما العمل؟

انتم الشعراء عليكم أن تبينوا وتصلحوا. الكلمة الحق تمنع غسيل أدمغة الأطفال وحروب المرارات ومعسكرات النزوع.

قال نابليون "إنني أخاف هدير الأقلام أكثر من هدير المدافع".

الكلمة إذا أردنا لها قوة السحر، يجب ان تسبق القراءة السمع، بمعنى آخر محو امية الشعب، لتقوم الحضارة على قيم مؤسسة متينة، وللأسف ساستنا جميعا ساعون الى تجهيل الأمة، وتغييب وعيها لتساق كالأنعام. نفخ زفرة وتابع. المثقفون إذا جاز التعبير هم أداة الهدم الفعالة.

تقطب حاجبا السر استعاضة عن الاجابة. ران سكون حاصت فيه الأبصار في الفضاء.

كانت الانقلاب مولعة بالاصغاء، للمناظرة واستنباط جوهر الحقيقة، مهملة ما يحيطها، تكشف شعرها تفلتت خصلاته، تمردت مشاطرة الهبوب المجون والتيه. تلمس الضوء الخافت عن موطئ قدم بين طياتها. تثبتت مقلتي السر، مشدوهة بآية الافتتان فلم ترتد.

بهتت الانقلاب لقوة التحديق بضع ثوان، فطنت لسقوط الثوب عن رأسها،

أبدت حركات في غاية اللطافة لستر شعرها، نقلت السر لعالم الإلهام، علّ أبيات الشعر تنداح منظمة تصف احتراسها، واختلاس طرفها.

هام في وادي العبقرية يعتصر القوافي، وجد جعبته خاوية، إلا من تهالك يمنعه الوقوع فيه وقار سنه، وخالها القابع قبالته.

استفاق من سطوة تخيلاته بحضور المائدة. تفرّس الوجوه، بشّ ببسمة تحض لتناول الطعام، أرخى أهدابه عن عيني زوجته التي رضيت بثناء اسماعيل لطهيها. خطف خطفة يقدر بها حجم زهو الاطراء. لاح له احمرار وجهها. وفمها الضاحك بانت ترادف أسنانه. أطرق للأطباق مراعيا آداب الأكل، لا حرصا عليها بل تحاشى عيني الانقلاب. خذله التصنع، فمالت به رغبة التطلع. كان ثغر الانقلاب الملفوف، مزدانا بفلجة تتجلى فتنتها باقتراب اللقمة للشفتين. سلكت لقمته سبيلها للخد. مسح سقطته بسرعة خاطفة. سرق مخالسه يتلمس بها درجة السخرية، لاحظت الانقلاب هفوة الشاعر، كشحت عنه، انطوت على نفسها ظلت أسيرة تقوقعها حتى رحلة الإياب. اتجهت فور وصولها للبيت لغرفة المكتبة، معتزمة اجتثاث سطوة الوساوس بالاطلاع. راحت تفتش عن كتاب يسكن هواجسها المتطفلة.

بعثرت الأرفف، بتبديل اتكاءة الكتب للجانب الآخر. كان غلاف كتاب النشيد الشامل جذاب أغرى الانقلاب لتصفحه، كانت قصائده رصينة، ترفع مقاطعها عقيرتها لمناطحة الخواطر الفاسدة. غاصت في الأبيات الشعرية تجاري قريحة شاعر فذ استنطق الحروف بموسيقى رائعة. تجسد طيف السر خلال السطور بملامح صافية،

تحديق عينيه افترار شفتيه، نظراته النافذة للاحشاء، شاربه الأسود الفحولي. تهيأت أعضاؤها لنزعة اللذة، ضمت فخذيها أقشعر جلدها. باعدتهما

فارتجت عجيزتها. صرفت نظرها عن القراءة نحو أحلام اليقظة. أغمضت عينيها، تلمظت شفتيها الجافة، اشتعلت نار الرغبة.

كان جلوسها على الكرسي لا يستوفي شروط ما تطمع بلعت لعابها، شعرت بدبيب خدر فوق لواحظها، حنت للفراش. مشت اليه في شبه غيبوبة.

انطرحت طوقت الوسادة، أطلقت تنهيدة ارتياح. أسبلت أجفانها لتستقبل دعابة النعاس ورؤيا الشاعر — نامت، استرجع عقلها الاحتلام الأول بمعاناته.

صحيت مذعورة، محبوسة الأنفاس، تمطت ملأت صدرها بالهواء، نافضة اعياء احشائها، غطت عورتها، تمددت مستكينة الم بها مغص هين أنباءها بقدوم الطمث، نهضت تتحوط له. ارتدت ملابسها، نظرت في المرآة، أهملت اصلاح زينتها. حاذرت مواجهة خالها مدارية ارهاق مضاجعة الاحتلام. كان اسماعيل يرشف قهوة الصباح بمزاج معتدل، غير مسارها قائلا

تعالي اشربي معي القهوة

استسلمت لرغبته، تكلّست بالمقعد القصي مطرقة، تمعنت في أبخرة الفنجان. رشفت جرعة بسطت أعصابها المنكمشة. احتست

الثانية فاستأصلت شافة الانقباض. استعدت للجامعة متجاهلة تقلصات الدورة، احتلت مكانها بالسيارة، تمسكت بصمت بليغ كفاها شر الأفكار المغرضة. كان مكيف السيارة يرسل هواء رطبا منعشاً مزج بموسيقى كلاسيكية هادئة بثاها جهاز التسجيل. كان إسماعيل منتشيا يقرع مقود القيادة بابهامه، دندن بنغمة جرسية سرقت الانقلاب من صفحة وجهه قبس التفاؤل، كبح السيارة عند بوابة الجامعة، انسلت مولية إياه ظهرها. حثت الخطى مسرعة. كان الطلبة بحافة الممرات يتشابون لرؤيتها ببلاهة، أما هي فكانت تروم قاعة المحاضرات. وجدتها مغلقة استندت على الجدار. تلهت بحقيبتها، رنت للشباب الملتحين والفتيات اللآئي يرتدين ملابس سوداء، وجوههن مغطاة ببراقع سود، يتحدثن لشاب ملتحي يكثر حركة يديه كلما رماها بنظرة. تشاغلت بقراءة الملصقات الدعائية للتنظيمات السياسية، اعلانات احتفالات روابط الطلاب. دنت من ملصق رابطة أبناء النهود، مشت نحوه مسلوبة الإرادة. شدها حنينن لتتبع السطور، كانت الكلمات تزود مهجتها بأطياف مدينتها الصغير، تراءت لناظريها ذكريات مجسمة تكاد تلمسها لو مدت يدها، سرحت مع والدها عبد الرحيم، الألواح، قلم البوص، وفروته البيضاء، ذابت في الماضي لدرجة نسيانها الحاضر، مستها كف رقيقة، جفلت للأمام.

تبسمت الفتاة

تأكدت الانقلاب أنها فتاة فسكنت أنفاسها الوجلة

فقالت متحايلة على الخوف تقابلنا مرة بمدخل الجامعة

اكتفت الفتاة بإطباق أهدابها سكنت مدة ارتأت فيها امكانية البوح باسمها، فقالت باسلوب مدلل

اسمي وعد

ردت الانقلاب بهمس واهن، انا اسمي الانقلاب

فغرت وعد فاهها، وهي تمد يدها للمصافحة. كانت عينيها جاحظة لغرابة الاسم، ذاكرتها تعرف معناه الاستيلاء على السلطة بقوة السلاح، أما علما لتلك الرقة، فشيء غير مألوف. حست بانشغال بال الفتاة تنحنحت، لم تفق هزتها من منكبيها، ارتد طرف وعد، سألتها بهلع، مالك يا وعد، تحايلت وعد بافترار متكلف حاولت به طمس الدهشة، ابتكرت ذريعة، تعفيها من اجابة السؤال، دفعت الانقلاب تجاه قاعة المحاضرات واستطردت.

تعالي نحجز مقعدين بالصف الأول. المت بالفتاتين رهبة شديدة. كانت القاعة بقدر من الاتساع يبهر، كلما صعد مدرجاتها فوج، استبان كبر حجمها استهوت الانقلاب التحديق لمكبرات الصوت، الأنوار الساطعة، وأنفها يستنشق رطوبة الهواء، بشراهة لها وشوشة. كانت زمر الطلاب الوافدة تتزود من سحرها المقدس بنظرات قوية تكسب التوازن النفسي.

الفتيات يعشقن الاختلاس، والوسوسة الخبيثة، أوقدت نار جذوتها الغيرة، لانصراف آماق الشباب طواعية ناحيتها. كسى

سحنة الانقلاب، خفر ورّد خدّيها لما علمت ما يجري حولها. كفت عن حب الاستطلاع، لحضور المحاضر خلف منضدة التدريس، شخصت فيه جيدا في فترة السكون التي سادت. شعرت بوشائج إلفة تربطها به. كان في عقده الخامس تعتلئ أنفه الدقيق نظارة سميكة، يتواءم اطارها الأسود مع لون بشرته الأصفر، كانت تجاعيد وجهه ما زالت محتفظة ببقايا وسامة، قاومت السنين، شعره ناعم غزت مفارقه شيب موقر، أضفى للبسه الأنيق جاذبية.

بدد السكون بلهجة مصرية مستساغة.

صباح الخير

أتى الرد جماعيا، صباح النور يا دكتور

صمت مدة، استقصى خلالها الوجوه ثم استأنف

دكتور نبيل جرجس، أخصائي علم النفس بجامعة عين شمس، بدأ يحاضر عن بدايات علم النفس، وتطوره في العصور المختلفة، اسهامات علماء الاقباط والمسيحيين والمسلمين للارتقاء بمفهومه، نظريا وعمليا، لدراسة النشاط البشري متضمنا سلوكياته واجتماعياته، عوامله البيئية الوراثية وكل ما يتصل بنمط الحياة.

صادف حديثه هوى في نفس الانقلاب، فقد كان رأس الخيط، فيما تبتغي معرفته لسبر غور الاحتلام الفظيع وتداعياته. شحذت قريحتها لاستنباط معالجة نفسية ناجعة لحالتها، تمسكت ببصيص أمل يقودها للتفاؤل امتلكت زمام رضى نفسها، تشرب لون بشرتها

بحمرة خمرية، خضبت أناملها، استكانت لموجة حياء، جعلت تصرفها وكأنها مصابة بتخلف عقلي. دعتها وعد للخروج بعد انصراف الدكتور. انسحبت خلفها تتهادى كما لو كانت تمشي اثناء النوم. كان الدكتور نبيل بالبهو يتوسط تلاميذه الأقباط، يحدثهم عن احتفال عيد الميلاد، وصلاة القداس بترانيمها اللاهوتية، التي أقامها الأنبا شنودة لتطهير أحبائه في جميع أمصار الأرض. رسموا علامة الصليب على صدورهم، ثم انشدوا سويا آمين. تعدتهم الانقلاب ووعد، لا أنهما كانتا تلويان عنقيهما لمشاهدة المنظر الرائع. عدلت وعد إعوجاج رقبتها، وجدت نفسها أمام شبح أسود مرعب، ليست له ملامح انقلبت على عقبها ارتطمت بصاحبتها. أبدت الانقلاب جفلة بسيطة درت الدم بوجنتيها، فغدتا أكثر القا. انتابتها حساسية مفرطة لمنظر المخلوقة، الذي لا وحي بأي حال من الأحوال بالآدمية، بل بالفوضى المشبعة بالتخلف. تحرزت يدها عند ملاقاة الكف المغطاة بالجورب. تقاضت الفتاة عن نفور الانقلاب، بادرت بالسلام، واسترسلت باسلوب وعظي يستقطب ود الفتناتين.

نحن جماعة أنصار السنة المحمدية، قدوتنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) والسلف الصالح، حال الأمة لن ينصلح إلا بما صلح به الأوائل، نحن المؤمنات وأجب علينا ستر عوراتنا، حتى لا يكون الفساد في الأرض، وإني أرى بوجهك الفتنة يا أختي المؤمنة، قطبت الانقلاب حاجبيها لتميز إن كانت المخلوقة مقبلة ام مدبرة. انحرفت يسارا تتفاداها ولم تعلق. كانت وعد تتابع شاب ملتحي ليس ببعيد

يسرق النظر اليهما بالمخالسة، وكزت الانقلاب للعلم بأمره، أولاهما ظهره متجنبا غض البصر خلصت الانقلاب بحصافتها، ان الأمر محاولة استقطاب، حينها خطر على بالها بيت شعر المتنبي....

(أغاية الدين أن تحفّوا شواربكم .. ياأمة ضحكت من جهلها الأمم)

عضضت شفتها امتعاضا .

عرجتا حيث حلقة نقاش واسعة، تبارى خطباؤها في سياق أدلة وبراهين، تثبت تقاعس الحكومات الرجعية عن وقف حرب الجنوب المدمرة، بخلاف الحزب الشيوعي، ذو المنظور التقدمي الناجع لفض النزاع. كان الطلاب الجدد مبهورين ببلاغة الخطباء في حين ضمائرهم تتناوشها شكوك. كان القلق يسوقهم للتنقل بين حلقات النقاش الساخن، انضمت الفتاتان لحلقة برع متحدثها في تأطير مزايا القومية العربية الأمة الواحدة ذات الرسالة الخالدة.

أصابت العبارة الانقلاب بمرض التجوال، جرت رفيقتها لدائرة حوار وسيعة، تكفل للخطيب الغدو والرواح، فرد يديه الرشيقتين في الهواء لايضاح طلاوة لسانه الذي ما انفك يشرح مقاصد الصحوة الإسلامية، منطلقا من مقولات الأمام الصادق المستقاة من أفكار الإمام المهدي. كانت هتافات التكبير تدوي عالية، تتصاعد كلما سكت للم شوارد أفكاره، ليبلغ التشنج أقصى درجة لبعض الطلاب. دقت الانقلاب كفا بكف لحدة انفعال الفتيات الجنوني. زحف بها التطفل لركن جدل. حظى بجماهير طلابية غفيرة، تشرئب لمتحدث

لبق، يسرد مومضوعات متنوعة، يأكد أن حكومة الإنقاذ ساعية في تطبيق شرع الله، وحسم معارك حرب الجنوب، وانعاش الاقتصاد المتردي.

أما برنامج الصحوة الإسلامية مشروع ضبابي ليس به مرتكزات طموحة تلبي احتياجات الأمة

نحن الجبهة القومية الإسلامية، نؤمن بالمهدي كقائد اسلامي فذ، أما أبناؤه وأحفاده فقد حادوا عن جادة الطريق مثلا السيد عبد الرحمن خنثه الانجليز، منذ نعومة أظافره، وقس عليه أبناءه. من هذا المنطلق فالجبهة القومية وحكومة الإنقاذ هما الوريث الشرعي للثورة المهدية. تعالت تكبيرات صاخبة اثارت حفيظة طالب أنصاري متطرف، اقتحم الحلقة، صار يزعق بهياج، أفتوني أيها الطلاب، كيف ترث الجبهة القومية الثورة المهدية وشيخها منحرف الأخلاق.

ليس حديثا مفترى، فقد عرف عنه حب طبخ الأطعمة وغسل الأواني وأيضا التثني كالنساء داخل المطابخ.

انقدحت شرارة العنف بضرب الطالب الأنصاري بسيخة، لحظتها برزت كتائب المدججين بالسيخ الموارى خلف الظهور، والسكاكين المخبأة تحت الأقمصة دارت المعركة الوطيسة، كان عنفا في أوج قمته، دماء تسيل لا أحد يدري من أين. الطلاب الجدد يركضون مذعورن ذات اليمين وذات الشمال، فتيات يصرخن وأخريات مغمى عليهن. بيد ان الطالبات المنظمات، خضن معركة حامية استعملت

فيها الأحذية والعض بالأسنان، محدثات فوضى لا شبيه لها. هرعت الانقلاب وصديقتها جنوبا هربا من مواقع الاشتباك. كانتا تصرخان حينا وتغطيان وجهيهما حينا آخر. تفاديا لرؤية المشاهد المروعة. تقوقعتا تحت جذع شجرة، خشية طوفان الفوران. كانت المطاردة وحشية بدرجة لا تقبل التصديق. انهارت وعد لسماعها دوي طلقات نارية. صرخت كالممسوسة، بينما الانقلاب متماسكة نوعا ما، تتربص الفرص للهروب. فقالت مشجعة وعد للصمود،

لازم نشوف طريقة وإلا؟

فهمت وعد ما تعنيه، استنهضت همتها. كان دخان الغاز المسيل للدموع ينتشر باتجاهات عدة، نوبات السعال تطغى على جميع الأصوات، شرطة مكافحة الشغب تلهب بالهراوات الظهور بلا رحمة.

كتمت رائحة الغاز النفاذة أنفاس الفتاتين. كانت قوة الاختناق بمكان يستحيل معها الصمود، ركضتا ناحية البوابة، بعيون شبه مغمضة يؤلمها ذرف الدمع. تلاشت ظاهرة العنف الدموي، حلت محلها ظاهرة الفارين لاستنشاق الهواء. كانت قوة عراك الزحام تسقط الفتيات الضعيفات البنية يتصايحن، مستنجدات برجال الشرطة، كانت ضربات هراواتهم تكبح موج التدافع.كانوا سعيدين بامتلاكهم زمام المبادرة، لم يجدوا حرجا في النهر والتوبيخ واللكز. فشلت وعد في صد هراوة نزلت فوق كتفها كتمت الصيحة بتكشيرة، تخطت فتاة متكومة على الأرض، تتلوى من وطء الأقدام. كانت سيارات الإسعاف تتلقف المصابين شاقة صفوف متظاهرين يهتفون

بسقوط الجبهة القومية الارهابية وحكومتها، متحدين الغاز بالمناديل المبللة والشرطة بالحجارة.

كان المارة يفرون لأزقة جانبية تقيهم شر الدخان. انجرفت الانقلاب ووعد مع موج المسيرة الصاخبة قسرا، فقد سدت قوات مكافحة الشغب الطرق المفضية للأماكن الحساسة، فلم يكن بد أمام المتظاهرين سوى الشوارع الفرعية والأزقة الملتوية.

سارعت وعد والانقلاب بالانسحاب لزقاق هدأت ثورة ماسحي الأحذية به. انعطفتا لطريق الغابة البعيد، ابتغاء السلامة لمحطة المواصلات العامة. سكن روعهما تنفستا الهواء العليل. فقالت وعد وقد استبد بها سؤال حالت الأحداث دون طرحه، يا الانقلاب صحيح الشيوخ وزعماؤنا لواطيين.؟

رفعت تلك منكبيها بإجابة مزدوجة صعبة التفسير.

رجعت وعد السؤال الى جوانحها تستفتيها. كان الرد ان ابدت أعطافها تميعا، لم يكن كما ينبغي. خاطبت نفسها باعتزاز، أنا لم تدخل جوفي أنفاس الرجال، فما زالت أعصابي مشدودة. ارتاحت سريرتها لهذا.

obeikandl.com

٦

منذ رؤيتي ديوان شعري (أزهار لم تتفتح بعد) تتصفحه رهف بالعشة عشقت ذاكرتي التنصل من الواقع. عشت جسديا مع أهلي وعقلي يرتب الأحداث بدقة، لم تخطر على بالي. كانت الأخيلة خلاقة الطيوف، يصعب الفكاك من قوة استلابها. رضخت لسطوة سلطتها التي أرهقت كاهلي، بفداحة معاناة الازدواج وعنت السفر. تسلقت درج الطابق الأول بمشقة. افكاري ترزح تحت وطأة آلام أعصابي، حاولت كبح تهورها بالرجوع للواقع.

سالمت خالي ببرود عكس لامبلاتي، لم يولني اهتماماً. كانت روحه تتوق لعناق فتاته البريئة. طوقها بذراعيه، تعابث بضفائرها ركنت في صدره هنيهة نفضت عنها عناء الرحلة، انفكت عقدة لسانها، فخاطبته بحبور يكشف سعادة لا تضاهى.

أنا ركبت الهودج يا بابا

رد باندهاشه

معقول ما خُفتي أبدا

هزت خصلاتها، تطايرت ذوائبها في الأفق

سألها مباغتا:

- عجبتك البلد.

يا الله سمحه شديد، خصوصا جدي، كان يطوف بي كل صباح على البيوت نشرب الشاي، كانت عمتي دائما تثور لأنني لا أجلس معها إلا نادرا.

أغمضت عينيها تحلم بالايام الماضية، ظلت مدة كافية على صدره كفلت لها الاستمتاع بالدفء. فاقت من غفوتها لانسياب انامل بين طيات شعرها، محاولة جمع شتاته. رفعت اهدابها بتناعس. كانت قمر وقتها قد بلغت درجة عالية من الرقة لا تقاوم. عصرت رهف فوق نهديها أبدت رهف ليونه، كأنها تريد اختراق ضلوع أمها، انداحت أشواق قمر، أبعدت الفتاة، تتأملها جيدا ثم اعادتها لحضنها لتطمئن كررت العملية تلك مرارا، كانت تراها في كل مرة تختلف عن السابقة بسبب غبار السفر الذي طمس معالمها الدقيقة، وصبغ عينيها بلون الاهمال. ادنتها لقلبها الخافق، ثم منحتها قبلة حرى، نالها جبينها المعفر بزت بلاغة الحديث عن حبها. صافحتني قمر بعد ري ظمأ أشواقها بحرارة ما توقعتها قط، ثم حاصرتني بأسئلة كثيرة عن أحوال الأهل أجبتها باختصار شديد، عبرت البهو قاصدا غرفتي. بذلت جهدا خارقا للوصول لمخدعي. رميت امتعتي، واستلقيت أمني النفس بقسط راحة. كانت مفاصلي بها وجع طرد وسن اجفاني، لكنه دغدغ مهجتي، حائا اياها التوغل داخل ظنون الانقلاب.

بصدق فراستي الموهوبة، حدقت في السقف استلهم خيوط الأطياف نسجت رؤى تعينني لما عزمت اكتشافه. طاردت خيالاتي المجنحة، كنت قاب قوسين أو أدنى لنيل غايتي. جفلت خواطري لوقع

أقدام مقبلة، هذبت رقادي. كانت رهف آتية نحوي مرتدية قميص نوم شفاف، يشده للأمام نهدان كاعبان، تهتز حلمتاهما تظافرا مع رجفة وطأة قدمها، خيل إلي أنها تسير نائمة، نهضت متعجلا استفيقها، مسست كتفيها. رنت الى بانكسار، أدنوتها فمالت تلقائيا تجاه زندي سقتها للفراش بتمهل جلسنا متلاصقين، تعابثت بجدائلها. كانت أنفاسها تتردد بانتظام، اتاح لي سماع ذبذبات الشهيق والزفير. ضممتها،لامست خدي بخدها، لم يراودني حينها تقبيلها، بقدر ما راودني إشباع أحاسيسي المرهفة.

استكانت طيّعة لضغط ساعدي، تململت فوق صدري، ثم همست بخفوت :

- يوسف بحبك

انسلخت من تحت ذراعي وانصرفت كالحلم، تاركة سطوة أنوثتها تقتحم معاقل المرأة الأسطورية المعشعشة داخل عقلي. تنفست الصعداء؛ لقناعتي أنها الأسطورة وسواها وهم نسجته يقظا... تتآءبت لاغراء ملذات الأحلام.

صحوت مبكرا لكنني ظللت متدثرا انتظر اعتدال الجو، لأستقبل يوما جديدا. خصوصا وقد بت ليلة البارحة متفائلا.

انسحب غطائي، انقلبت استجلي الموقف بعيني الشبه مفتوحتين كانت رهف بجانب السرير منتصبة كالتمثال، تعلو فمها بسمة مشعة رمتني بغمزة مبتدعة، ثم تكلمت

صباح الخير

استحليت نغمة تغريدها، اصخت السمع للمزيد. استطردت تتدرجني للحديث

قوم كفاك نوم

تجاهلت قولها عمدا، لإثارة حدة طبعها لأرى جمال عبسها وزم شفتييها الصغيرتين الملتصقتين كقطعتي عجوة. أدمنت التعلق بوجهها، فراعني توالد آيات السحر وتمازجها ببراعة متقنة، وهي تهرب من التغضن، لتلتجئ للانشراح.معلنة فتنة ظهور الحياء. نازعتني رغبات شتى تهفو اليها روحي.

لثمت شفتيها بسرعة، ارتدت خطوتين قصيرتينن، تجاوبا مع انكماش أعطافها. هوت فوق أحضاني تتناهد، لفتها شعرت كأنني احتويت الزمان كله.

اتخذت حضني متكأ واعدا. كان تفتير زفيرها ينفذ الى جوفي بالانعاش. انجلت لحظة الغفلة ابعدتها عني برفق. الفيتها ما زالت تحت تأثير خدر الهيام، نهرتها رهف،! ارتعشت تركتها في حالة الوعي. رجعت ادراجي انتقي ملابس ارتديها تفحصت صورتي بالمرآة، خللت شعري نثرت على عطرا منعشا. كانت رهف وسط الغرفة، تطقطق أصابعها مرة وتعض بنانها مرة. غشيتها بحب مفرط، فمسست براحتي جيدها الأملس ثم طوقتها بشفتي الرطبتين. لعقت كفي بلسانها، كدت استمرئ أفعالي. بلغ مسمعي وقع اقدام ترتقي

الدرج. خطوت ثلاثة خطوات اقلتني للبهو. كانت عاملة النظافة، تتأبط أدوات المسح. باشرت نزولي بنشاط. هبطت الجزء الأول من السلم. لويت عنقي ألمح تشيعها لي لوحت لها بيدي، مرسلا وداعا مؤقتا، كان الحزن قد خبأ نضارة مقلتيها باصفرار شاحب، أصاب قلبي بحسرة لما تعانيه من براحة الوجد. سلكت الطريق المعبد بحالة نفسية سيئة. كانت سرائري تناجيني

انك لم تحبها كما تحبك

هتفت من أعماقي

أحببتها أحببتها

نفخت أنه، عصفت بها الهواجس، دلفت لزقاق يعصم عني دخان السيارات العتيقة، وغبار الإطارات، تنفست هواء صحوا مشبعا بنتح الأوراق، بدد مشاعر الاحباط.

تلمظت، تسلقت كثيبا رمليا، أحضر لترميم منزل صدعته سيول الأمطار. تفاجاءت بسيارتين صغيرتين تنحرفان بعد الكثيب تجاه باب قديم، تقل شباباً مدججين بالسلاح، وفتيات محجبات. انطلقت أعيرة نارية، وصياح وزغاريد صاخبة. كان هول الصدمة أثر على مسمعي، فما عدت أميز الأصوات. جرى رقص جماعي منضبط الايقاع، تلاه صياح موحد ابشري يا ام الشهيد، ولدك زوجناه بنت الحور، وصدحت زغاريد حماسية، استندت على السور المقابل للبيت. أشاهد فصول الماساة للنهاية، ازداد فوران الفوج، بظهور مرأة مرتبكة تحاول ستر

شعرها المكشوف. كان شحوب لونها وهزال جسدها لا تخطئهما عين، كادت تسقط وهي تعبر الباب الموارب، دارت حولها حلقة الفتيات اللائي مارسن طقوس عجيبة، بالوثب والسعي الممزوج بأناشيد جهادية مختلفة، لجر مشاعر المرأة لموارد الجنون المؤقت. شاركتهن الصياح والرقص الدائري لذروته الجنونية. ولجوا الدار محملين بمواد غذائية، اخرجت من السيارتين المكشوفتين، بعمل استعراض يلائم الموقف. طفرت لمخيلتي قصيدتي العصماء، كيف يكون الغد مشرقا، مختلطة بصورة الفجيعة. كانت أبياتها تتبدل بذهني بأخرى أكثر نضجا وحرارة تصف ما آلت اليه الأمة.

فاغتصاب البسمة من الشفاه، أمر مقبول انما تسرق الأحزان بالأكاذيب، تلك هي الكارثة العظمى.

انعطفت لزقاق اشتهي رؤية فتاة جميلة، تدلق ماء غسيل المواعين، تطمس روعتها ما أصابني من غم. لم اتوقع تكرار المشهد هممت بخفض نظري، لكنني ارجاءته لإطلالة امرأة حاسرة الرأس، استقبلت الفتيات المهوسات بثورة عنيفة، فاضت مآقيها لفقدها فلذة كبدها في حرب الجنوب اللعينة.... كان اعتقاد الفتيات أن زواج ابنها من بنات الحور، كفيل بامتصاص غليان غضبها. فقلن بصوت جماعي غنائي أبشري يا أم الشهيد زوجناه حورية

نفد صبرها فزعقت بعصبية كفاية،

أنتن ما رايدات عيال الحور، الواحد ذكره....

امسكت عن الكلام، رفعت مرفقها بزاوية قائمة كناية لكبره. ولولن الفتيات، ماجن مبهوتات قبل اهتدائهن لمكان السيارة. الفتيان الملتحيين انشلت أصابعهم بمقابض البنادق، سارعوا للهرب بسيارتيهما. لازمت الفتيات خيبة أمل، نكسن رؤوسهن، اخفاء لفترة وجوههن أسدلن الخمارات سترا للفضيحة.

انكفأن امعانا في التواري عن اعين السابلة الماكرة. نهبت السيارة الأرض تاركة غبارا يسعل الصدور، وجراحاً نازفة لا تندمل، اتكأت المرأة على الجدار، راحت تنوح باثة فجيعتها للحائط القديم.

كان الأطفال ينسلون من كل جهة تشرئب اعناقهم للظفر بمعاينة وجهها الكالح، تنبهت لموقفي السلبي، تقدمت لمواساتها في مصابها الجلل، اسندت رأسها بكتفي واصلت النشيج، سدت العبرة حلقي، فما تفوهت بشيء، قدتها للدار ببطء شديد توافدت النساء من فجاج الأرض يتناوحن بطريقة العويل القديمة. كان بعضهن محروقات الحشا، يبكين بدمع مدرار وأخريات يتصنعن بانين كطنين البعوض. مرقت من جو الحزن كئيبا متلف الأعصاب. كان ذهني يقدح افكار ملحمة القصيدة أكثر من أي وقت مضى، فما صادفته الوان من كوارث يعجز الخيال اختلاق مثلها. راقت لي فكرة الكتابة عن استشراء الفقر، الذي اوضحته المشاهد الفائتة. وطنت نفسي لتعرية جذوره. دخلت المعهد وفي نيتي الاعتذار عن الحصص، متعللا بالصداع الحاد. صافحت رفاقي منتهجا اسلوب المخادعة. لم تقم لي علوية، شددت راحتها لاطوع عواطفها، كاشفتها قائلا

- انا آسف جدا طرأت لي سفرة مفاجئة للصحراء.

لمست غمزات الرفاق الخبيثة. فأليت قطع دابر الشكوك السيئة فقلت مستأذنا - أشوفكم بخير

ردوا جميعا.

معقولة لحظة واحدة وتمشي نحن مشتاقين كثير.

فقلت اجابه المجاملة والشكوى

أنا بالأكثر لكن ما زال في أرهاق السفر،

وكفاي شفتكم طيبين وخلاص،

توردت جبهة علوية باعتقاد ما قلته يخصها بالذات، تلهت بالأوراق خشية افتضاح أمرها.

سرقت من بين خفرها نظرة عجلى حملتها هياماً فياض الدفق. أرضى غرورها، انسللت مفعماً بسرور مس شغاف قلبي وكبريائي المهذب، الداعي لتهافت الفتيات شجعتني ابتسامتها للمضي قدما، لما عزمت القيام به، سلكت الشارع الترابي الملتوي ذا الحفر العميقة، التي تستعمل مراحيض ليلية للنساء. اجتزت المساكن الفقيرة الحديثة الإنشاء، لفناء واسع يلعب به أطفال لا لون لهم سوى الغبشة، يحبون التعفر بأديم لوثت سطحه زبل الحمر. لم ينالوا حظ الالتحاق بالمدارس كانت أماني رؤوسهم الصغيرة، اقتناء عربة يجرها حمار، تنقل المواطنين وسط الأحياء العشوائية، يزينها جهاز تسجيل

يروج الأغاني الهابطة. لاحت لي العشش الواطئة تحفها بيوت وضيعة تتفوق عليها بحق الملكية يجاورها مكتب حفظ الأمن، يجلس حراسه بالعراء، كانت المسافة بعيدة لم اتبين سحنتهم، عرجت متوغلا في الأكواخ الخربة طارقا أزقة ملتوية التعاريج كخطوط الكنتور. هبطت منخفضا لا يصلح لبناء الأكواخ تتوسطه سيارات إغاثة يشرف عليها أوربيون، لاعلاقة لهم بالبشرة السمراء إلا حب الإنسانية.

كانت الراهبة ذات الخمار الأبيض، ترسم علامة الصليب بعد تسليمها مواد إغاثة؛ متجاهلة اللون والدين... رتل المعوزين يزحف لحصول ما يسد الرمق، في حين رجال الشرطة يهشون بالسياط لمنع نشوب العراك. طفرت لذهني الآية ولتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون. كانت حشود الأطفال تتقدم النساء لتحظى بأغطية تقي برد الشتاء. كان الذين أوتوا تصيبهم، تبدر عنهم انحناءة ضعيفة عرفانا بالجميل، حتى إذا برحوا الصفوف قلبوا ما بحوزتهم بحثا عن عيوب تدعوا للاستبدال، لكن سرعان ما تتبدد المخاوف، ليطل فرح غامض يلوح بين ازورار الحواجب. تفرست الوجوه، استخلص ما يفيدني، متقصيا حقيقة كل تعبير، عاينته ينضح، خزنت ما أصبوا إليه بذاكرتي. ذهبت لأبيات شعر سمعتها تناديني وسط الأكواخ سرت بالزقاق المؤدي إليها، صار يضيق كلما طويت مسافة منه. بلغت مكاناً لا يسمح إلا بمرور شخص انتظرت فوج النسوة المسنات يمر.

كانت خطواتهن وئيدة كدبيب النمل، مستعينة بعصاة للتوكؤ. كانت أسمالهن وشواشة بانغام جنائزية، متخذة الثقوب مزامير للعزف، منضبطة بإيقاع خشخشة الحلي الأثرية، الملتفة حول سواعد مجعدة الجلد. كانت شفاههن ترتجف باستمرار، لخلو الفكين من الأسنان. حدقت في عيونهن فتيقنت انها لا تراني بوضوح،لكنهن الهمنني شعراً جديداً. عبرت المضيق وجدت نفسي أمام بهو تفتحت بجانبيه أزاهير فقر مختلفة الألوان، ترتل للأبواب المنخفضة كيف يكون الغد مشرقا. وقفت مذهولا إصطنت للترانيم الموشحة بالروائح النتنة. ملأت رئتي بالهواء لتختمر العفونة في دمي لاجترها ابداعا، يدحض زيف البرنامج الحضاري. كانت حواسي مرهفة، تحصي الشارد والوارد غير أنها عجزت عن فهم حوار دار بالأكواخ بلهجة محلية موغلة في القدم. حفظتها لأعرف معناها فيما بعد. بيد أن الحوار انتهى بعبارة إلا في رأس الشيطان، قررت معرفة الحقيقة، تخبأت كي ألم بما يجري ومبعدا عني شبهة رجل المباحث. تسمرت أرقب مصدر الحديث. طال انتظاري، كانت ارادتي صلبة سحقت الملل، سمعت وقع أقدام بدأت تتحرك، تقاصرت حبست أنفاسي وجهت بصري تلقاء بوابة الكوخ الشمالي، لم أر شيئاً أول مرة. لكن بعد مدة استقامت أجساد ثلاثة شبان يرتدون زي افرنجي، تمازحوا ثم انسلوا قاصدين ميدان صغير تبينته لما تمطيت. شرعت اتبع مسيرتهم. كانت الشقة بيننا تربو عن مئتيي متر، قدرت أنها كافية لدرء الشكوك فأبقيتها، فتنا المنازل الغربية المأهولة، لم أعر الصبية الحفاة اللعوبين اهتماماً رغم ركوض بعضهم خلفي، انتهيت لفناء شاسع، تناثرت به

بقايا هياكل سيارات. انحدرت لمنخفض مليئ بأكوام نفايات البلح المخمر، رائحة غاز الإيثانول نفاذة، وسعت خطاي اجتازها نزلت حفرة ممتدة العمق، هرولت بضع ياردات مدفوعا بشدة الانحدار، راعني للوهلة الأولى تيس يلبلب لشاة حائلة، تأكدت أنها ثملة لهزها ذيلها ورأسها بالتناوب، في حين التيس يحفر الأرض بظلفه الأيمن، مهيئا اياها للمطارحة وهي خانعة لما يريد، فما برحت مكانها، تغنجت بتمايل أشعل نار فحولته، حاول ارتقاءها خذلته قدميه الخلفيتين للصعود، خرّ على قفاه يرفس. انفلتت ضحكتي مجلجلة، ضربت كفا بكف تعجبا لحالة سكره الفريد، مسحت دمعي لزوم الرؤياء. كانت بيمناي شياه ترعى النفايات بنهم متناسية فطرتها في رفع عقائرها للنطاح. كانت عيونها محمرة، تجحظ كما لو كانت تريد الخروج من محاجرها، موحية بدرجة عالية من الثمالة. هششتها، نظرت اليّ بازدراء واستخفاف، توجهت بسلحفائية لكوم آخر غير مبالية بوجودي. تطلعت للجبل عند سماعي دوي المفرقعات لتدريب المجندين الجدد. استدرت للجنوب فابصرت العشش المبعثرة ذات الرايات الرفرافة معلنة مع الريح الحرية المطلقة، لم يخامرني ارتياب، فما رأته عيناي هو بعينه رأس الشيطان. شرعت اتحسس طريقي للوصول، وقتها أينعت في رأسي أفكار مخيفة، نمتها طيوف رهبة السكون. توجست خيفة من اقتحام الأكواخ. اقتنعت بالطواف حولها. كدت أذعن لقراري، أبطأت خطواتي لكن سرعان ما داهمتني مقولة السيد المسيح مرددة عبارأتها بقوة «إن من يريد إنقاذ حياته فلايضيعها»، استعدت رباطة جأشي، تبددت مخاوفي رويدا رويدا مع

دنوي للأكواخ. كانت قدماي متحرّزة نوعا ما، بينما خيالي انطلق يجوس غياهب المجهول. انفك قيد خطواتي، استجابة لصرخة امرأة تستغيث ..قتلني ...قتلني. هرولت مسرعا انجدها، اخترقت الحواجز الكرتونية المنصوبة كسور تفصل الأماكن، كنت شجاعا لدرء وقوع الجريمة. ذهلت لهول المفاجأة لما وصلت للمكان، وقفت مشدوها لا اتحرك كالتمثال، كان الرجل قد فض بكارة الفتاة واندمج معها يمارس المضاجعة بعنف جنوني تبادلاه سويا.

كانت في بواكير مرحلة البلوغ في حين هو يربو عن الثلاثين عاما تحفّهم حلقة نسوة ورجال ثملين، شاهدوا المضاجعة حينا ثم تأبطوا أذرع النساء واختفوا. بقيت جواري امرأة مسنة تنظر بتلذذ للمد والجزر المصحوب بهياج ذروة المتعة. ندت من الفتاة صرخة تشنج رهيبة تلاها تقيء دفع المريسة من جوفها حتى سالت على خدها، واسترخت هامدة، وأنا ما زلت مشلول الإدراك لرؤيتي أول مرة هذه الممارسة.

انحنت العجوز لفصلهما بتؤدة، جرَّت الرجل بجهد متواضع لفك العضوين. كان الامتلاك كاملا، فاستحال لها الانفصال، أشارت إليّ لمعاونتها بتثبيت الفتاة. أمسكت ساعدها المغبر،كانت أنفاسها مشبعة برائحة الخمر، تتواتر لأنفي واهنة، تنبؤ بشبه الغيبوبة. كشرت أنيابها لآلام الانفصال. كان دمها ينزف، وهي تباعد بين فخذيها. بينما الرجل حينما وقف ترنح من شدة سكره، نظر إليّ بإنساني عينيه الذابلتين فترة، رسمت شفتيه ابتسامة حائرة، حركت شاربه

الكث، ثم نطق بلسان ثقيل:

- وين سروالي

ناولته العجوز إياه، وهي ممسكة عن الكلام، نفض قضيبه المتسخ بيمناه، شرع يرتدي سرواله بصعوبة، كاد يسقط قبل إحكام التكة.

رمقته بنظرة احتقار، قابلها بعدم اكتراث.

حولت بصري للفتاة المسجاة، ألفيتها سابلة الأهداب تتنفس بهدوء. كان جسدها العاري يتصبب عرقا، بلل ذرات الرمل الملتصقة بجلدها. تأملت نهديها المتكورين. كان بحلمتهما احمرار اثار غريزتي، بدأ جسمي ينشد كطبل أفريقي مسته السنة اللهب.

تبادرت الى ذهني أم أنور بمشيتها المغناج عشية الزيارة. تماثلت أمامي بكل فتنتها. جسمي ما انفك يواصل الشد. اجتاحتني رغبة ملحاحة في مطارحتها. خرجت من الأكواخ. مندفعاً تحدوني نزوة عظيمة، شردت جميع افكاري الماضية طرقت السبيل تلو السبيل أروم بيتها كانت صبوتي تزداد غليانا، كلما قصرت المسافة. غدوت قريباً من الانفجار. أوجفت خيفة وأنا مقبل علي الباب ترددت قليلاً قبل طرقه، ألم بي ارتباك ضعضع مفاصلي، تريثت برهه لملمت فيها أشلاء شجاعتي، مددت يدي المرتجفة أقرع الباب. كان لقلبي وجيب يفوق خفقه، صوت الطرقات الثلاث التي جاد بها متني. أنتظرت استنبط ما تسفر عنه مرت ثواني كانها دهور، سمعت صرير معالجة الفتح. ارتفعت خلجات انفاسي. سال عرق أطرافي جماً، تحدر

للسقوط تزحزح الباب، الموصد للوراء ببطء، تطلعت بعنقها تستبين الطارق انفلتت منها تنهيده، لما راعني وجلاً ارتعد، وافتني بجره خفيفه رشيقه حضنتني لولوج صحن الدار إمتثلت لقوة جذبها، تعثرت خطاي. عالجت القفل، ثم استهلت حديثها بصوت مرفه رقيق.

- تفضل.

هممت بالكلام. أشارت إلي بالدخول للغرفة، انسقت وراءها مسلوب الإرادة، لمحت لي بالجلوس على الفراش الوثير، قفلت راجعه. انفردت بنفسي. انبتها للتصرف غير اللائق الذي أغترفته، انتويت الخروج بعد قدومها مباشرة. جلت ببصري اعاين أثاث الغرفة و الستائر. كانت فورة عنفوان صبوتي قد خبأت. شعرت باستخراء سريع، عم خلايا جلدي، كان عقلي يقلب كيفية التخلص من الورطة. أقبلت مرتدية قميصاً شفافاً، أبرز تناسق جسمها قدمت لي كوب العصير، ثم جلست بناصية السرير، تطقطق أصابعها بقلق، رنت إلي وتبسمت. كنت ممسكا بالكوب لم أرتشف رشفه. كانت يدي ترتعش لخوف استولاني. قامت بتمهل مصطنع. اتجهت للباب أحكمت إغلاقه .آبت زائقة العينين تهالكت فوق صدري، راحت تدغدغه بنهديها اللينين، تحفزني للممارسة إنهارت عزيمتي رضخت لقبلاتها الشهوانية. نضت عني القميص القتني علي ظهري نشرت شعرها فوق وجهي، تمرغت بين ذراعي بجنون شمت رائحة بدني استرجعت ملاطفاتها فحولتي المفقودة... طوقتها، فأدركت التغيير الذي طرأ عليّ، تقهقرت للوراء، عرتني تماماً كان قضيبي استعاد

هيبته، انتصب في بطني كفطر عش الغراب. بحلقنا فيه هنيه أجلالاً لعظمته بلته بلعابها، كان كصاروخ روسي تأهب للانطلاق توحوحت وهي تنزل فيه فضت عذريتي، التي حافظت عليها منذ بلوغي اختلطت المتعة بالخوف. صرخنا صرخة الاشباع استكنا نلتقط الانفاس ظللنا هامدين لوقت طويل، لاعبت عجيزتها فتفتحت شهيتي لري ظمأ السنين. تبدلت وداعتي لعنف رجولي مخيف، هصرتها بقوة خارقة، ماءت تحتي بصوت ضعيف. جنيت أقحوان فمها، تسلقنا للقمة. كانت لحظة الامتلاك خرافية اللذة. قفزنا للأرض، لفتنا غيبوبة عجيبة، فقت عنها بالآم الارتطام بعد انتهاء النشوة. حاولت الفكاك من قبضتها. تشبثت بي أكثر، رجت خصرها معبئة كأس نرشفه حتى الثمالة. كدمتني بحصن خدي، ساعة التشنج اللامعقول. كان غرز أسنانها مبرحاً، يتنامي ألمه بمرور الوقت، دفعتها بطاقة كامنة خلصتني من وخز أنيابها. قومت عودي، ارتديت ملابسي. إنكبت تقبل قدمي، تحدوها لهفة عطش لا تروى رفعت أجفانها الناعسة متوسلة، غرست أصابعي في طيات شعرها المنكوش. إنفجرت باكية استنهضتها برفق، التصقت بي وهي تنشج، كففت بأطراف أناملي دمعات سالت فوق خديها، غضت طرفها، ثم لثمت زندي بتشوق محموم. هتفت بحزن وافر.

تعال كل يوم بيت معي، انا عمري ما حسيت إني..

بلعت ريقها والكلمة، وإستأنفت.

– إلا اليوم وزوجي أمره هين خليه عليّ.

إرتعدت فرائصي لذكرها زوجها.

تعجلت إنتعال حذائي، ولذت فاراً، عديت الفناء ركضاً، بلغت الباب، تريثت قبل فتحه، أتنصط وقع أقدام المارة اطمأننت. مرقت كلمح البرق. شرعت أسير بخطوات واسعة. لم يكن بوسعي التلفت، خشية إفتضاح أمري. طويت الأزقة، وما زالت أشباح الفضيحة تطاردني. كانت أوهامي تصور لي، أن المارة يحلقون في كدمة خدي. كان ألمه موجعاً، يفوقه إيلاماً تأنيت ضميري. راودتني فكرة الاعتراف لدى الشرطة، بارتكاب جريمة الزنا سلكت الطريق المؤدي للقسم، وأفكاري مشوشة. شارفته فتثاقلت قدماي، تأنيت فترة طويلة رتبت فيها الخواطر. تجلت لي فداحة ما اقدمت عليه. تسمرت لحظة، تنهدت فيها تنهيدة أودعتها معاناتي. تراجعت خطوتين، مهدتا السبيل للتخاذل، قرأت لافته قسم الشرطة. عدت أدراجي متوجها للبيت أتحاشى مواجهة الناس. طردت تخيالاتي السابقة، بترنيم اغنية كنت أدندن بها في الحمام. ضغط جرس الباب بارتعاب، منشأه التشكك في قدرتي على التصرف بتلقائية. واريت خدي بكفي، لما سمعت صرير الباب. استقبلتني عاملة النظافة بتجهم. أوليتها خدي السليم. ارتقيت السلم تذكرت العضة، أحكمت إخفائها. كان البهو مليئاً بالزوار دكتور أيمن وعائلته بجانب. خالي واسرته قبالتهم، هرولت رهف للقياي ملهوفة. وقفت أمامي، واضعة كفها على خدها مثلي، سهونا في أعين بعضنا مدة، لا أدري كم لبثنا فيها. تنحيت بعد إمتلاء روحينا بالحب. أخلت سبيلي، رحبت بالضيوف مطرقاً، تابعت

سيري أروم غرفتي.

إعتورني إحساس بالذنب قاهر. انطرحت في الفراش ويدي لم تبرح مكان العضة. سرحت ساهياً وراء أشياء اكتنفتها الضبابية والتفاهة. مست يد سبطي شعر رأسي، انكمش جلدي وقف شعره شعرة شعرة هبيت جالساً وسط الفراش، تلاحقت أنفاسي في الزفير.

لويت عنقي للسب

فقالت رهف بمسكنة

يوسف مالك.

كانت أنوثتها مزدانة بالبراءة، بخلاف نتانة طوايا روحي، اتخذت مكاناً تصبو إليه. همت باحتوائي رأت الباب مواربا... مشت على أمشاطها، أوصدته ثم أدبرت، حيث كانت مع اقتراب بسيط كفل الملامسة، طوقتني ثم طبعت على جيدي قبلة مسحورة، استعذبتها، أطبقت أجفاني للأحلام. أقلقها سكوتي فأكملت كلامها الودود.

- معقول كل هذا الشرود في القصيدة

ملت ألثم متن راحتها.

ضمتني أكثر، وأردفت ..تعرف ؟

شهقت فقط.

أغراها تنهدي بعصر نهديها الشامخين على ظهري، إتكأت بثقة تحلم وسموت إلى عوالم إخترعها خيالي.

قالت وسط الأحلام

تحب تعرف رأيي في القصيدة رديت بأنّه.

إسترسلت بطلاقة.

ستكون رائعة الشعر السوداني. سكتت، ثم شمّت رائحة عرقي، وتحدثت.

إخترت لها اسما.

أومأت.

أحب أعرفه.

حاضر.

قالت متبرمة طيب قوله.

مصيت شفتي. تكلمت بطلاقة كيف يكون الغد مشرقاً.

هتفت بفرح عفوي.

الله اسم رواية جميل.

داعبت مكان العضة بخدي، بثنايا شفتيها الرطبتين جفلت مبهور لطرق الباب. أجابت نداء خالي الناهر،

- الغدا يا رهف.

- حاضر حاضر جايين.

إنسللنا متتابعين في هدوء ورقة، خطفت الأبصار. تعمدت دكتورة قمر إبعادنا عن بعض حول المائدة، تحولت جواري مجنبة نفسها بدهاء ماكر، إنفعال أو تشنج فتاتها المدللة. مضغت لقمتي الأولى مطرقاً. أما الثانية، فقد وطنت نفسي فيها، بالنظر للوجوه استقرأ خبايا الضمائر. كان غريمي يتشبث بخيط أمل واهن عنكبوتي، هو قوة ضغط الدكتورة قمر، في حين أمه تعزف على وتر الأخوة، بخبث شيطاني فظيع. بينما إخواته يثرثرن مع حركات مائعة، تظهر ترف العيش. كانت رهف بواد تسرح فيه بأمانيها الخاصة، ضاربة صفحاً عما قيل جهراً وهمساً. حانت مني لحظة رميت بها خالي. كان مذبذباً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، بل في فراغ فكري موحش. تناولت رهف قطعة لحم مدتها إليّ، اخذتها منتشياً بالنصر العظيم. أويت لفراشي أنشد رقدة تجلب تهيؤات ميمونة، تعضد اقتراح رهف بخصوص الرواية الملائمة للأسم. مسحت مكان العضة برفق. كانت أخيلتي تنمو مع الدغدغة المستمرة، بأطياف غير مخلقة، لها اشكال عصية الفهم، خلتها أول وهلة، تتدلى من رحابة السكون اللامتناهي في الارتقاء. لم أجد خيوطا تربطها بالسماء. تركتها تتبلور كيف تشاء، تذرعت بالصبر، رامياً حباله المتينة تسعى في الكون. إتكأت على شقي الأيمن، أبعد شبح الياس. حدقت للأرض هرباً من ذلة الانكسار. راعني تصاعد دخان الأطياف، ينبجس من شقوق الأرض حاملاً رايات التاريخ، المتمايز العصور منذ القدم إلى الآن. حاوية الأعمال العظيمة والمنحطة، مقرونة باشخاصها. تجلى لي اولاً الزمن القديم، بكهنته ومعابد أصنامه، والملوك أنصاف الآلهة. القرابين

المقدسة للاحتفالات الجنائزية، وطقوسها خرافية الاعتقاد، ومدافن الاهرامات، وحروب تفي بأغراض النفاق. ومزالق الطمع وبوادر الانحلال. ولت مسرعة، تاركة المجال لظهور الحواريين، بالأناجيل المقدسة ينشرون المحبة والسلام، كما علمهم يسوع المسيح تعاليم تمنح الروح الإنسانية محبة تفانى، فحواها الإيثار. فشيدت الكنائس، وقرعت الأجراس. لاح لبصري رؤية «ابن أبي السرح»، يمتطي جواده العربي متقدماً جيوشه الجرارة نحو الجنوب، مشعلاً حربا ضروسا، بآت بالفشل في كسر شوكة الأهالي، الذين كانت لهم عزيمة قادت لإتفاقية البقط، التي صارت فيما بعد هدنة مستديمة. انسلّت من الأحداث أطياف العرب، بعمائمهم ومصاحفهم، في هجرات جماعية وفردية. نال منها غلام الله الركابي قصب السبق، فأوقد أول نار للقرآن بالمدينة العتيقة، مستفيداً من ملح المسيحية المخصب. وجاءت على منواله نيران خلاوي، أكلت الكنائس واللهجة المحلية ولون البشرة الأسود، مستبدلة ياه بآخر فاقع مدّ جذوره، فأثمر ممالك كست الكعبة بدافع انتمائها للصحراء العربية، والتفاخر بقبائلها حتى طرق الغزاة الأبواب، فتناسوا شيعهم، هرعوا للسيوف والأسلحة البدائية للذود عن الحرية الأزلية بشجاعة، حطمها السلاح الناري. سقطت سنار. كانت رغبة القائد إسماعيل، الرجوع إلى مصر بغنائم لا حصر لها، مع بقاء دوامها ببسط دينه الجديد، دين الاستغلال والقتل والضرائب الباهظة تحت وطأة الإذلال. خضع شيوخ القبائل للنهب، حفاظاً على الأرواح. تمادى في جبروته، جرح الكبرياء بصلف، ايقظ روح رد الاعتبار والمقاومة. إبتلع المك نمر

شيخ الجعليين، إهانة ضربه الغليون بمضض، ثبّت رجفة شاربه بيده، كبت غضبه بحكمة. كان عقله يدبر خطط الانتقام بنشاط موفور. طرح جانبا كل فكرة تحمل بذرة الفشل.... محص أكثرها نضوجاً، إطمأن إليها. بيَّت نية مشاورة خاصته. فقال مموهاً الغازي.

أنا تحت أمرك في كل شيء، بعد دعوة العشاء.

مسح إسماعيل عرق جبينه، وأجاب بلغة المنتصر.

- طاعة أمير المؤمنين واجبة.

نظر للقوم باستصغار، وقال بغطرسة،

ننتظر العشاء .

- أشار لقواده معلناً فض الاجتماع، نهض مختالا وخلفه القواد، لا يقلون عنه غروراً وأنفة. غلى ما أضمره الملك نمر بين ضلوعه، فتدفق اسراراً لأعوانه طالبا النصح، المشورة والمؤازرة. أمن اللقاء السري، الخطة وكيفية تنفيذها. أقيمت المأدبة، دارت كؤوس الخمر المعتق، وحلقات الرقص المجنون. غاب وعي إسماعيل، الجنود كادوا يطيرون من النشوة، اضجعوا خامدين تحت تأثير غيبوبة الثمالة. هجروا أسلحتهم لعتمة الليل. كان الحريق الكبير، افظع مجزرة بشرية عرفها التاريخ، أبادت الغزاة. ذاع صيتها في الأمصار، كانت ردة الفعل مروعة، قاد حملتها الدفتردار، متبعاً اسلوب الانتقام بالتنكيل والإبادة. دكت ديار. سبيت نساء وأطفال. فر الملك نمر وعشيرته، لجبال أفريقيا الشرقية، مخلياً القبائل المجاورة

تعاني نفثات غضب الحقد. كانت الضرائب باهظة تستخدم القسوة في جبايتها. كانت عائدات المحاصيل لا تفي بالسداد المستحق للنهب المقنن. فالتجأ الهجين لوسيلة تدر الأرباح، لمقابلة النفقات المفروضة. توغل جنوباً يجوب الأحراش والجبال، لا لنشر تعاليمه القديمة بل لترويع خؤلتهم السود، بامتهان تجارة الرقيق، وصمة عار الإنسانية إلى الابد. مستعملين أسلحة نارية سربت من بلاد الشمال. راجت تجارة النخاسة. كان أولئك التعساء يساقون زمراً مقرنين في الاصفاد. يحثهم الضرب بأعقاب البنادق، للسير قدما تجاه الشمال حيث المجهول المظلم. كانت النسوة مدمعات الأعين، الأطفال شاحبي الألوان تورمت أقدامهم الحافية، لقطعها مسافات شاسعة الشيوخ ينتحبون بأصوات مبحوحة، تلائم أرذل أعمارهم وجلودهم المجعدة التي قاومت عنت الحياة. كانت أجراس النخاسة يصدح رنينها بأسواق المدن الكبيرة، معلنة بداية المزاد. السماسرة ينعتون عبيدهم بالقوة، يجسونهم كما تجس الخراف طمعاً في رفع السعر. كان الأقوياء يرحلون إلى ميناء سواكن ومن ثم لعالم آخر، حيث أسياد أكثر بشاعة، أما الضعفاء يبقون عمال سخرة بالمزارع البدائية، لزيادة إنتاج مالكيهم لتسديد الضرائب المجحفة. كانت وسائل الهرب مفقودة بالشمال، إذ بمقدور أي هجين استعباد الفارين للعمل تحت إمرته. تراءت أخيلة الجباه، ألوانهم الصفر، ستراتهم الغريبة تماثل وجوههم الصارمة، الخالية من الرأفة يجبون الأموال، مضافاً إليها نصيبهم الخاص. اثار حفيظتي لكزهم بمؤخرة البندقية لرجل، اقتيد لساحة قضاء متواضعة خاطب قائده العمدة قبل ان يسأل.

سيدي العمدة رفض دفع ضريبة رؤوس أولاده.

سأله العمدة بحدة .

- مالك ما بتدفع الدقنية.

أجاب بنغمة استدرار العطف.

أبوي العمدة ما عندي عبيد للزراعة.

إتنهره العمدة.

إشتغل إنت وسدد حق الحكومة.

أطرق الرجل ولم يجد جوابا. وجه العمدة حديثه بحزم للجابي ؟

- ما عنده شيء يدلل.

أجاب آخر بغبطة.

- له ثلاث نعجات حلوب.

- دللوها وسددوا حق أمير المؤمنين.

نكس الرجل رأسه ولم ينبس بحرف، مخافة عقوبة الجلد كاتما غبناً لا يستطيع الإفصاح به. دلكت خدي على مهل، استلذ بوجع الألم، إستدرت لشقي الأيسر، تحوطاً من شلل خدر نجم عن بطء سريان دمي بالأوردة اليمنى، صور الأطياف تتجسد أمامي بوضوح تام، مستهجنة الماضي كله. كان إنبعاث الأخيلة من أديم ارض، يشكل الأحداث اليومية الحقيقية للحقبة الماضية، للإنسانية بترتيب

فني مضطرد، اتاح لي فرصة تكوين راي حاسم. جاءت مشاهد لم تخطر ببالي، تأملت تجلياتها بين معالمها المطموسة، إذ بدأت تدريجياً تأخذ طابعها المميز، بدرت لي أولاً القفاطين الزاهية الألوان والعمائم البيضاء، لمحت وجوه الشخصيات كما لو كانت حية، يحفها خشب منحوت رائع الأشكال الزخرفية، مدهون بلون بني جذاب شخصت فيه ملياً، ثم أطبقت أهدابي أقلب المشاهد في ذهني بتروي، مستخلصاً عصارة جوهرها، توطدت ثقتي إنني أرتع بخيالي داخل المساجد وما الصناديق البديعة، سوى منابر الأئمة. أصخت السمع للخطبة. كانت وعظية تستعير نمط السجع، شملت خاتمتها الدعاء للسلطان عبد الحميد بالنصر على الكفرة، الملحدين، وجعل أموالهم وأولادهم غنيمة للمسلمين. تلاشى الطيف في ذاته مبيناً إماماً على منبر متواضع، يتلو خطبة عصماء تدعوا للفرار الى الله خشية يوم تشخص فيه الأبصار، متخذاً أسلوب الموعظة الحسنة لخلو الديار من الطواغيت. باعدت أهدابي عن بعض، فتجاسر خيالي ينبش خبايا التاريخ، هضمت ما سبق، أسدلت جفني، واصلت تعقب الرؤى المتجددة. كان قهر الحكم التركي الاستبدادي، حول سكان الشمال الى عبيد من الدرجة الثانية، لسلاطين وأمراء الأتراك، والنفعيين من ملل أخرى. ستون عاماً ونيفاً يتراكم الغبن في صدور نفر من سلالة ضحايا المجازر. كانت التربة خصيبة لبذرة الفكرة الكبرى. مدد الرجل الملتحي ساقيه على فروته، نقل بصره في الفضاء بإسراف، أفرغ زفرة أسى مكبوت، خاطب نفسه باعتداد، أنا المهدي المنتظر، أملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً. إستولت عليه

الفكرة، ناجى نفسه.

سأبدأ نشر دعوتي غداً وسط سكان الجزيرة. تلهى بصوف فروته، ثم جهر بالقول لذاته. الان أيها المهدي أكتب رسائل لعلماء الدين. أشعل زبالة سراجه، راح يخط منشوراته لرجال الدين بالخلاوي، مستدراً عطفهم لتعضيد موقفه للقيام بالثورة ضد الاتراك.

سبق إستشراء بناء المهدية، أشعة الصباح، فقد صادف منذ الهمس به، هوى لدى المواطنين البسطاء، يحدوهم أمل للأخذ بالثأر، راقت لهم الفكرة، تدافعوا لمبايعته، حضه النجاح الباهر الإقدام بخطوة جريئة، ألحت عليه. إمتطي صهوة جواده يروم مشائخ الخلاوي للاستشارة.

كان الطواف ظاهرياً يرمي للشورى، أما باطنه ينطوي على جس النبض. نال تأييد البعض، لانقداح شرارة نار الثأر في أدمغتهم، فالحملة الإنتقامية ما زالت معشعشة في الرؤوس. بيد أن العالم ود بقوى لما زاره، اعتبر دعوته بدعة محدثة، وللتأكد سأله مستوضحاً عما سمعه متناقلاً.

- أأنت المهدي المنتظر ؟

ردّ بإيماءة تأكد زعمه.

فقال العالم ود بقوى.

- إذن الله غشانا ما عنده جنة ولا نار.

خلص المهدي الى أن مقولة العالم، حمق ليس إلا. ركب صهوته ميمماً شطر الجزيرة. كانت الجزيرة قبلة الوفود، المبايعة من مناطق نائية أمنوا بالدعوة. سف عبد الله التعايشي تراب موطئ أقدام الفرس. قبل أمشاط المهدي، إظهاراً للطاعة والإخلاص، ثم همس في أذنه بالأخبار الجديدة. تجهم المهدي للنبأ الخطير، مسح لحيته مستدعياً الأفكار، فأستطرد عبد الله جاهراً بالقول.

سيدي الإمام مشائخ الحكومة، أوشوا للحاكم العام بأمر الدعوة وخطورتها، وإحتمال يداهموننا الليلة.

– إذن سيكون لنا أمراً آخر بعد الإفطار.

هرع عبد الله يذيع نبأ الاجتماع، متحدياً الغيم الهاطل ولزوجة الوحل. طمر الأهالي البسطاء إبتهاج جنوني، فنفروا عند الغسق بموائدهم للساحة ساعة إفطار رمضان، تشغل أذهانهم افكار ضحلة، بينما عاطفتهم مشبوبة لرؤية المهدي. كانت أفواههم تتعجل بلع الطعام ليس لإسكات غريزة الجوع، إنما بلهفة الانتهاء منه. اشرأبّت أعناقهم بتطلع وجومي للمهدي، في إصغاء مرهف هيأهم نفسياً للطاعة المطلقة. أطلق المهدي كلمة الجهاد، تردد صداها في براح كون، لم تألفه المنطقة منذ الأزل.

إنعكست على الأنفس، فأنتشت طرباً للحن الفريد، ذو النغمة الناشذة التي لم تشبه الأصل. كانت الأفئدة فارغة، لم يمس أوتارها عزف متقن الترجيع. تجاوبت بحماس أترع كوؤس زهد الحياة،

فبات الاستشهاد أمنية الأرواح. فروا متحمسين لاسلحتهم البدائية. تغلي دماءهم لرد اعتبار قتلاهم. جاءوا متأبطين سيوفاً ما خرجت من أغمادها إلا في مواسم الزواج والختان. إلتفوا حول المهدي، عقولهم تلتهم الكلمة بشراهة، تفجرت تكبيرات قوية مزقت ستور الظلام. لمعت الصوارم الممشوقة في الأفق، مبتهجة بيوم سفك الدماء القريب. تشتّت الأفواج وسط مزارع الذرة، تملأ صدورهم عزيمة سحق جيش الحكومة. كانت انوفهم تسرق استنشاق الهواء، تزفره ببطء، مخافة زيادة حفيف الأوراق، آذانهم حساسة تفرز بدقة، وشوشة الريح عما عداها. كانت الباخرة تمخر النيل بصوت منخفض، ملتمسة عنصر المباغتة لإخماد التمرد. كان الجنود مطمئنين، لتأديب حفنة الأوغاد، وأن هجومهم الليلي نزهة عسكرية لأسر زعيم الشغب. عمروا البنادق، رست الباخرة، نزلوا للياسة، كانت التعليمات محددة وسهلة التنفيذ، أدوا التحية العسكرية، وبدأوا الزحف. كان المزن يهمي استجابة لنقيق الضفادع، الشبقة لموسم الإخصاب، سكتت عن المناجاة لضوضاء مخاضة الوحل. كان انقطاع النقيق، إشارة للثوار بقدوم أفراد الحملة. انشدت الأعصاب على مقابض السيوف، وعيدان الحراب، انحبست الأنفاس، باتت لحظة الانقضاض وشيكة. الجنود مرتخية اصابعهم على الزناد، وهم يخوضون البرك الآسنة. كانت وثبة الالتحام جيدة التوقيت، رويت السيوف العطشى بالدم، تاركة حيزاً لصرخة الفزع التعبير عن نفسها. حسم الكمين المعركة لصالحه، تعالت التكبيرات الزاحفة تجاه الباخرة في جنون فريد. اعتورت ربان الباخرة موجه ذعر

مرعبة، عجلته بالإبحار نحو الشمال. شقت زغاريد الانتصار سكون الليل. كانت أنامل الثوار، تتحسس غنائم البنادق بمتعة شاذة، لا يمكن وصفها. أدرك مضمونها المهدي. فاستنبط خياله وجه الشبه، بين معركته وغزوة بدر، هلل وسط أصحابه كبر تكبيرة ساعدته على تلفيق الأكذوبة، بطعم مستساغ يسهل بلعها. قال بعد جس رفاقه بنظرة حصيفة، إن معركتكم هذه كمعركة بدر الكبرى فأنتم من الآن الأنصار. هتف عبد الله التعايشي بانفعال حاد.

- نحن أنصار الله وأنصار المهدي.

رددت الحناجر المقولة بصوت داوي، أثلج صدر المهدي، واصل حديثه بأسلوب منمق.

- بعد هذه المعركة، علينا بالهجرة الى الغرب تيمناً بالرسول الكريم.

صدح عبد الله التعايشي عاليا

- إلى الغرب يا أنصار، إلى الغرب يا أنصار.

سيطرت على الجزيرة حالة فوضى للم شتات الأمتعة للهجرة، إذ لم تنزل بشاعة الحملات الإنتقامية ماثلة للأذهان. أنتظر سكان الجزيرة حلول الظلام، ليواريهم من عيون الحكومة. أومضت النجوم إذاناً ببداية خلو المساكن.

مخرت المراكب العتيقة، النيل الهائج، متجهة للشاطئ الصحراوي. الشياه تيعر، الحمير تنهق، الخيول تصهل، قطة

ملونة تموؤ، والأطفال يصرخون لوخز موج البرد، النساء والرجال يتذرعون بالجلد، لقناعتهم بدنو يوم الخلاص. أيدي الشباب تدير المجاديف، مقاومة تيار الفيضان. كانت الأمواج تلفظ زبداً بكثبان الرمال. المراكب تفرغ أفواج العصيان على اليابسة. حدق الخبير للسماء جيداً، قرأ موقع النجوم. سرى بالمهاجرين، سالكاً طريق غير مطروق يضلل الجواسيس. كانت القرى تستقبلهم بالكرم، لكنها غير متحمسة للانضمام للثورة، غير ان تمرد هؤلاء على الظلم، حرك سكون بركان كراهية الأتراك. كان عدم مشاركة الأهالي للأنصار مصدر إحباط، كاد يطفئ وميض الأمل المشرق، لولا سرد المهدي بأسلوبه اللبق تاريخ الصحابة ومعاناتهم في نشر الرسالة. واصلوا التقدم نحو الجبال بعنت تجاوزته عزيمة الإصرار. كان طعم حلاوة الصبر، الاستقبال الحاشد الذي أعده ملك الجبال آدم. لقد فاق تصور الأنصار، بكثرة المؤيدين الذين تلقوهم خارج القرية، بالطبول والدفوف وذبائح تمحو طالع النحس.

رست الباخرة الهاربة على شاطئ النيل الأبيض، بأخبار هزيمة الحملة استولت على الحاكم العام حالة هلع فظيعة، جعلته يذرع بهو القصر جيئة وذهابا، تتلاطم أفكاره كأمواج ضفة النيل الأزرق. اتصل بكبار قواده، للتشاور في دراء الكارثة وكذلك وزارة الحربية بمصر طالبا المدد. كانت التدريبات العسكرية جارية على قدم وساق تحت إشرافه. كان عقله مرهقاً لانتظاره ما تسفر عنه محادثات القاهرة.

حسمت حكومة جلالة الملك، أمر قيادة الحملة التأديبية

بعد مشاورات مع المندوب السامي البريطاني، انتهت بتولي الجنرال هكس المسؤلية، نظر الجنرال الى نياشينه المعلقة بسترته العسكرية بزهو، ثم حرك عصاه للأمام بتعالي يتماشى مع خطواته العسكرية المنضبطة. أشعل تبغ غليونه، نفث دخاناً كثيفاً، صعد الباخرة. كانت ذكريات حرب الهند الصينية، تتوارد الى مخيلته بتفاصيل دقيقة، زادت ثقته بقدراته الحربية، فقد سحق التمرد العظيم ونكل بقادته تنكيلاً روع الشعوب. ابتسم بسخرية. شرعت الباخرة تمخر تجاه الجنوب، خيل إليه أن أبسط خطة مما درسه بالمدرسة الحربية العظمى، كفيل بإبادة الدراويش الهمج. أطل للشاطئ من النافذة. كان النخيل يميّد ظلاله على صفحة الماء، مناجية النيل بأسرار أزلية عفيفة. الموج يطوق الظلال باشتهاء، تفور صبوته عند رمال الضفتين مشبعة الشبق، بتلاحم عنيف بإغراء من وشوشة الجريد. كانت الطبيعة تعري مفاتنها، كلما توغلت الباخرة. مستدرجة الجنرال للإغواء. كشفت له عن ساق مغزلي أسال لعابه. حسرت ثوبها عن الأرداف الممتلئة، ساقته لمواطن الإثارة بتفسخ داعر. استلب إرادته. إنقاد سهلاً لدلالها، حتى إذا بلغت ملتقى النيلين باعدت بين فخذيها، تطلعه عورة الحسن عند الأصيل. صعق الجنرال لجرأة الخرطوم القاصر. تملى من آيات الروعة المعراة جيداً، هبط مدعياً الصلف تجاه تبرج الطبيعة الخلاب. رد تحية القادة العسكريين بلا مبالاة، مستخفاً بقدرتهم التدريبية والتكتكية التي فشلت في قمع تمرد دراويش. شدّ يد الحاكم بقوة انزلت عليه السكينة، صار يبحلق لنياشين وأوسمة الجنرال اللامعة، ناسياً فداحة الأمر الجلل. رماه

هكس بنصف إبتسامة، وابتدر الحديث متعالياً.

أرغب في رؤية معسكرات التدريب الآن ؟

تلجلج الحاكم العام قليلاً ثم أفصح.

- هذا غير معقول يا سعادة القائد، لابد أن ترتاح حتى موعد حفلة الاستقبال.

- حاضر

دارت نخب الاحتفال، وسط جو لطفته نسمات النيل الأزرق، المعتقة بأريج موسم الأزهار المفوَّفة بمزارع الجزيرة البكر. قرعت كوؤس الخمر بأمنية الانتصار، أحدثت رنيناً عانق موسيقى الرقص المجنون.

إلتزم هكس الوقار، في حين القادة، يرقصون بفرح تلقائي أدهش الأضواء. كان الانتشاء يرتقي كلماً تلامست الكؤوس، الى هياج جنوني، أريد به غسل مرارة الهزيمة. وبال الجنرال مشغول بإعداد الخطة المحكمة، للقضاء على التمرد مستصحباً معه سمعة بريطانيا العظمى. إنسحب لغرفته غير آبه بمجون المتخلفين، إنهمك في مراجعة خرائطه وخططه الحربية طيلة الليلة، أصطفى ما سكنت إليها روحه. أشغل تبلغ غليونه مع أول خيوط للفجر، بمزاج عالي الطمأنينة، راح يغدو في البهو بخطوات متزنة، استنشق الهواء الرطب وهو يتوق لمعاينة تدريب الجيش. نفض غبار انواطه، لتحي أشعة الشمس بالبريق وأيضاً الحاكم العام المقبل. تبادلا تحية الصباح الجديد،

كلاهما مفعم ببزوغ فجر مشرق. تناولا القهوة لتدفئة صدريهما. إمتطيا صهوة جواديهما، جابا شوارع المدينة الخالية ميممين سكنات الجيش. كانت طوابير الجنود، تؤدي التشكيلات التنظيمية بنشاط وهمة، حدتا القائد تقديم التحية والتمام بثقة. حدج الحاكم العام الجنرال بطرف متسائل.

أجاب الجنرال هكس برأي قاطع.

لا بأس به.

فقال الحاكم مستوضحاً أكثر

هل التدريبات كافية لإرسال الحملة قريباً؟

قال هكس.

– عامل الزمن مهم، فكلما تأخرنا قويت شوكة التمرد، لكن نعلن التأخير للتمويه، ثم نهاجم معاقل التمرد في أسرع وقت.

أمن الحاكم بأطراقة متفائلة، تقدمه لتفقد طابور الشرف. تسربت الأخبار للمهدي، بسرعة خارقة فأرسل مندوبين للأهالي يحثهم على دفن الاباز. كون فصائل تناوش الجيش ليلاً، لبث الرعب فيه. كانت عيونه تأتيه بالأنباء. فصائل المناوشة تفر وتكر، محدثة بلبلة وسط الجنود، أرهقت كاهل الجنرال هكس، بالتفكير في الحيلولة دون وقوع خسائر. كان السهر والعطش، ينخران عضد الأعصاب، ممهدان الطريق للإحباط. كانت روح الجنود القتالية عند الغاية الكثيفة، في أسوء حالاتها. إذ لم يحالف الحظ الجنرال في

تقدير الموقع الصحيح، فقد ظن الغابة حصنا يحميه شر هذه الليلة، أمر بالمبيت.

أخطر المهدي بحالة الجيش، نظر للسماء مستلهماً من وميض نجومها ساعة الصفر. إهتدى بدهائه، أن هزيع الليلة أنسب الأوقات لشن الغارة. حرض جيشه للانقضاض. كان الطوفان عاتياً إبتلع الحملة وقائدها، مخلفاً نصراً زائع الصيت. اضطُرّ به حاكم أقليم كردفان تسليم مدينته. تقاطرت الوفود بعد النصر من شتى بقاع البلاد للمبايعة. أوصاهم المهدي بالتمرد في كافة الأصقاع. أختمر في ذهنه فكرة فتح الخرطوم، مقتدياً بالمثل أضرب الحديد وهو حامي. أشعل الأمراء نار تمرد، طالت جميع الحاميات المصرية بالسودان، إضطرت بموجبها الحكومة المصرية إخلاء السودان، فأرسلت الجنرال غردون لتنفيذ عملية الجلاء. كانت جيوش المهدية تتقدم بخطة مدروسة نحو العاصمة جارة وراءها، أفواج نساء وأطفال لا مثيل لهم في التاريخ. كان العتاد سيوفاً وحراباً وبنادقاً، غنمت من الجيش المباد في شيكان، وفؤوس وغيظ دفع البعض للحرب بالأسنان كان الاجتياح كاسحاً أطاح بالخرطوم ورأس غردون، مولداً سروراً لا يدانيه سرور فشّ غبن ستين عاماً من الاضطهاد. لم يثن المهدي الانتصار عن التفكير في نشر المهدية بالأرض قاطبة. دعى الأمراء الكبار للاجتماع، لا لإبداء الاراء ولكن لتقديم الطاعة العمياء، لما يصدره من قرارات يتم بموجبها تعيين خلفاءه الأربعة المهديين، الخليفة عبد الله، الخليفة شريف، الخليفة علي ود حلو، الخليفة

السنوسي بليبيا، لتأخذ المهدية الطابع العالمي. وقع نبأ الخليفة لعبد الله، موقعاً صادف هوى راود نفسه بأحلام عظيمة، فأنسل يطارد خيط فتح الأمصار. فض المهدي الاجتماع شرع يكتب رسالة للشيخ محمد الخليفة، يحضه للانضمام تحت راية نصره المؤزر كمهدي منتظر. حملها أحد أصفيائه قرأ الشيخ محمد الرسالة لمريديه. ثم أشار لتلميذه المقرب، دنى منه، فخاطبه بصوت مسموع.

هات القرطاس وقلم البوص. غمس عوده المبرى بالمداد، وكتب بهدوء بسم الله الرحمن الرحيم

– يا محمد أحمد بن عبد الله، إن أردت أن تهدي الناس، فإنني أطفئ نار خلوتي وأتبعك، أما تدعوني أتبعك كمهدي منتظر، فهذه فرية لا استطيع حملها معك.

رفع طرفه، كان حواريوه يرشقونه بنظرات تحير... إبتسم ثم استطرد...

– الحكم التركي سيء، لكن هذه الثورة أسوء لأنها دعوة تطرف، فهي كالخمر ضررها أكبر من نفعها، تجلب للبلاد بلاوي لا قبل لها بها.

إنكب يدون منظومته السرية.

١١

طالع المهدي المكتوب بإندهاش، أصابه بغصة مرة جعلته يتقاضى عن نبأ اغتيال أنصاره الشيخ منىّ، بزعم خروجه عن تعاليم المهدية، أصلح عمامته المتدلية، جال ببصره في الأرجاء بحثاً عن شيخ آخر يكسب تأيده. طفر إلى ذاكرته الشيخ عمر، أحد أقطاب الطريقة الصوفية التي كان ينتمي إليها. صوب الى أنصاره نظرة مختلسة تعالت تكبيرات، لم يألوها اهتماماً كما يجب. فقد كان باله مع الخليفة عبد الله الذي فهم إشارته، فراح يسرج الجواد. شد لجامه ليمتطيه المهدي. كانت زمر الأنصار تركض خلفه بأقدام حافية، وجلاليب مرقعة ترقصها الهبوب، يكبرون تكبيرات تنفض عنهم ألم التعب. كان حواريو الشيخ عمر ملتفين حول نيران الحطب، يتلون القرآن بتراتيل موزونة جيدة التجويد. سعلوا لما تغشاهم، غبار الحوافر والأقدام الحافية الخشنة. إنتبهوا لفوج الزوار، ركض الصغار يعلنون الشيخ بوصولهم. هبط المهدي عن جواده إحتراماً للشيخ الوقور، تهافت لاحتواء الشيخ، قالده بنفس رضية تعرف كرم الضيافة، ثم ساقه حيث مكان إعتكافه. ريثما ينضج الطعام. استغل المهدي سانحة اختلائهما، فاسر إليه بتأييد المهدية.

رد الشيخ بأسلوب سلس. أنا ما عندي شغل في الدنيا، إلا القرآن وناره.

لم تكن في المقولة ما يدل على المبايعة. لكن المهدي استنتج الحياد. شاركه الطعام ثم استاذن للانصراف، طوق الشيخ بذراعيه ونطق شاطحاً.

«مافي فكة إلا مكة»

تبسم الشيخ لكذبة الجهالة، ثم أجاب:

- أنا حدي معاك شجرتين جدي الاثنين، وإنت حدك مقرن البحرين.

لم يعر المهدي اعتبارا له، اعتلى ظهر فرسه عائداً. ماجت أم درمان فرحة بإيابه. كان الخليفة يدفع الناس يميناً ويساراً عنه، الكل يريد مس جسده الطاهر، بيد أن الأمراء ضربوا خيولهم للتسابق، رافعين رايات حفاقة. إنتشئ المهدي لقوة تأثير سحره على الملأ، همس للخليفة عبد الله، يعلمه باجتماع للخلفاء والأمراء والعالم الضرير بداره رد الخليفة عبد الله بمسكنة.

لكنه يا سيدي المهدي، مجاهر بعدم اعترافه بالمهدية، الأنصار كلهم بيقولوا إنه كويفر.

إفتر فم المهدي، وأجاب ببساطة.

- ليس على الأعمى حرج.

تلاقت عينا الخليفة شريف، بعيني الخليفة عبد الله التعايشي الذي يكن له بغضاً، للحظوة التي نالها بالتهافت والخضوع المصطنع. في

حين هو أجدر بالخصوصية، لصلة الرحم. استهجن الخليفة عبد الله نظرات الخليفة شريف الحاسدة. قطب حاجبيه نكاية به، إذ إختاره المهدي الخليفة الأول واخلص خلصائه، وخادمه الوفي، أعلنها المهدي من فمه على الأنصار خليفة بمنزلة أبو بكر الصديق.

باتت دائرة الصراع الخفي تتوسع مبعدة الشقة. غير أنهما في حضرة المهدي، كانا يميلان للمداهنة والنفاق والتظاهر بالود. أختفى بعد وفاة المهدي المثيرة للجدل والشك. كرس الخليفة عبد الله، جل اهتمامه لتوطين دعائم حكمه، بتهجير العشيرة من غرب البلاد لعاصمته الجديدة، في اكبر هجرة عرفتها القارة لتأمين وضعه السياسي، مرتكزاً على الجهوية والتعصب فتاجج صراع، راح ضحيته العالم الحسين الزهراء. وأعتقل لأجله الخليفة شريف، وعصيت قبائل الشمال فكانت مجزرة المتمة. كان الجهادية لا يتورعون من ارتكاب جرائم وحشية، بحجة كفر خصومهم بولاية الخليفة عبد الله. كانوا لما يقترفون المذابح، يأتوا بضحاياهم للخليفة مضرجين بالدماء. يعلنون للملأ فساد عقليتهم. كان الخليفة يرد على الناس بقلب ليست به رأفة:

- حولوا عن وجهي الرمم.

كان ذووا الضحايا يكظمون الحقد على مضض، يمصون شفاهم لبلع الإهانة، يحملون الجثث للمقابر في صمت مريع.

كشح الأمير يعقوب عن النعوش الخارجة من ساحة بيت الخليفة

عبد الله. أرخى لفرسه العنان يجري بالفناء مثيراً أتربة الفرح مع خيول حرسه الخاص، إبتهاجاً بالأخبار الواردة من هزيمة جيش الزاكي طمل، فلول الأحباش وقتل ملكهم ودك العاصمة غندارا. ترجل عن جواده، هز سيفه في الأفق، يلهب حماس الأنصار، سمع زغاريد نسوة، دنا من شقيقه وأسره بالنبأ القيم. ذرع الخليفة عبد الله فناء داره ذاهباً وآيباً، يتذكر أيام المعارك الوطسية ضد الاتراك. توهجت لديه فكرة غزو مصر، ونشر المهدية في أرجاء المعمورة. انته أخيلة تجريد الحملة الكبرى. هام في ربوع أطياف الرؤيا المستقبلية الزاهرة، غير آبه لدخول جنوده بالأسير الأبيض، ذو العينين الخضر موثوقاً بالحبل. همس في أذنه يعقوب، مطلعه على قبض الأنصار الجاسوس الإنجليزي الكبير، سلاطين باشا. عبس الخليفة قليلاً، واصل سيره دون إلتفاتة. فقد حامت في عقله الكتابة لملكة بريطانيا يدعوها للمهدية، إستهوته الفكرة إستدار يرى الإنجليزي الأبيض. إلتقت ناظريهما الشيطانية، بلمحة عالية المكر أوحت لسلاطين بانتهاج سبيل المراوغة، باغت الخليفة بنطق الشهادتين، وانتمائه للمهدي وخليفته، بلكنة فهمها الخليفة. أمر بفك وثاقه، ثم رمقه بعين رضى حببت لسلاطين طبع المداهنة، فابتدر بلكنته الأعجمية

أنا اخترت لنفسي اسم عبد القادر.

هلل الأنصار بابتهالات فوضوية، رفعوا معها السيوف والحراب بالأفق. ثم شدو راحته مهنئته باعتناق الإسلام على الطريقة المهدية. لم تقتلع عبارات سلاطين، جذور الارتياب في نفس الخليفة، فوسوس

لعيونه مراقبته خلسة، وإطلاعه على تحركاته، أول بأول، مال بجسمه للأمير يعقوب، وأسر في أذنه، مذكراً إياه اجتماع خلوتهما. إبتلع يعقوب لعابه، مستعيناً به للبوح بما تم إنجازه، بخصوص حملة مصر واختياره للنجومي قائداً لها، ورؤياه ان تكون إستيطانية، باصطحاب المقاتلين الانصار لأسرهم، حتى يكونوا بذرة المهدية في مصر. عبث الخليفة بلحيته البيضاء، يستدر خواطر أفكاره العجيبة، فجر عند خلوته بشقيقه يعقوب، عزمه على مكاتبة ملكة بريطانيا، للإيمان بالمهدية وبه. صعق يعقوب لهول المفاجأة ردحاً، ثم كبر الله أكبر الرجال خلقوا للشدائد. نويت بكره بإذن الله أكتب الرسالة يا يعقوب.

وأنا إن شاء الله، أكمل مؤنة الجيش قبل صلاة الظهر.

واظب عبد القادر على الصلاة صباحاً ومساءً، مع الإصغاء لقراءة راتب المهدي وذلك إمعاناً في التمويه. إنطلت الحيلة على مراقبيه، فجزموا عند مجلس الخليفة بصحة أنصاريته.

فرد بالمجلس شيخ غاضب.

والله ما زالت أنصاريته ناقصة، وحياة المهدي وخليفته.

استفسره يعقوب بعبارة تعجب

كيف يا شيخنا وهو صباح ومساء بالجامع ومع قراء الراتب.

أجاب الشيخ بتروي.

يا أخوي يا يعقوب، ما هو أغلف

هرش الخليفة فروة رأسه، منقباً الأمور، ثم وجهه حديثه للشيخ.

طيب أنت ما تكمل الناقصة.

أنت تأمر يا سيدي الخليفة وأنا أطيع.

على بركة الله يكون طهاره بعد طلوع الشمس.

وصل خبر الختان في تلك الليلة لعبد القادر، بواسطة مخلص الخليفة، ألقاه إليه مغتبط النفس لحظوته بنقل الخبر. بهت عبد القادر مدة لهول المصيبة التي حلت به.

تحسس قضيبه باستغراب، لاعناً الفكرة التي سولت له إعتناق الإسلام. جاب فناء كوخه مهموماً، عساه يهتدي لحيلة مخادعة تيسر هروبه. كانت الليلة مظلمة وحارة الطقس، يكاد سمومها يحرق البشرة، إشرأب من خلف السور. كان الحراس يتحاومون تشديداً للحراسة. شخص للسماء، الفى نجومها هادئة. رسم على صدره الصليب، رتل ترانيم يسوع المسيح كي تعصمه من الخوف. كانت عيناه تلاحظ إدبار الظلام تدريجياً، تاركا المجال لأشعة الفجر حرية الانتشار. مع صياح أول ديك، سيطر عليه ذعر مبالغ فيه عند إطلالة قرص الشمس. إرتعدت أوصاله لدوي طلقات نارية، تخللتها زغاريد جزسية، جمدت الدم في عروقه، انفتح باب السور، امتلأ صحن الدار برجال ونساء، تكسوا سحنتهم بهجة غير عادية، أجريت له النسوة طقوس عجائبية الاعتقاد، تدرأ كيد الأبالسة، ثم ذهبن بالزغاريد، مخلفات

في جوفه جذع لا يوصف. دلك الخبير قضيبه لفسخ الحشفة، اعتورته لذة، امتزجت بألم ممتع إنتهي برجفة الأمناء. مسح الخبير مخلفات الرعشة، بقطعة بالية دون إكتراث. شرع يفك التصاق الجلدة السميكة عن الحشفة، مستخدماً أظفر سابابته الطويل، بحركة نصف دائرية مترددة. كانت خلايا جسم عبد القادر تتكمش وتتفرد، من شدة نشوة الألم العظيم، تطابقا مع ازورار عينيه الخضر. أنجز الشيخ عملية الفسخ ببراعة متقنة، وإنحنى يشحذ سكينه على قفا نعال جلد البقر، بسرعة تقشعر لها الأبدان. كانت آلام الختان، وسخونة الأعشاب القديمة المسحونة لتطبيب الجرح، أنزلت به بؤساً وقتياً رهيباً سرعان ما ذاب وسط إبتهال الأنصار. كان الاضطراب النفسي الذي عاناه في ليلته، يفوق أضعاف وجع لحظة الختان. شدّ جلبابه للأمام، مشى بتمهل مفرط في التحرز. كانت أهازيج بهجة الأنصار. تسوقه بعناية نحو المضجع. جلس بتحوط كي لا يلامس الجلباب، قضيبه الملفوف بخرقة قماش تبدوا في أعينهم نظيفة، زحف ببطء، استقر بوسط الفراش، إتكأ بعد جهد مبذول. عاين في السقف الخرب. كان عقله يعيد ذكريات الماضي وأفكاره الشاذة، فقد كان يؤمن حتى نهار امس، أن الشيطان أسطورة، اخترعها الانسان لتبرير أعماله الشريرة، لكنه إستوثق الآن، أن الفكرة التي أتته بعد الأسر، كانت مكيدة من بنات أفكار الشيطان. مدد رجليه سهواً، انفلت ألم الجرح يعم جسده المكدود. عض شفته مقاوماً استشراء الإنهيار النفسي. أخذ نفساً من بين اسنانه المكشرة، بعث في وجدانه أمل الهروب خاطب ذاته بإصرار.

سافر لأقوض حكم السفاح.

فضت الملكة فكتوريا الرسالة بحضور مجلس اللوردات، قراتها فاستشاطت غضباً، ضربت المنضدة بقوة، للمسخرة وبكت بحرقة للإهانة، زرفت دمعاً كالدم.

ربت الملك «إدوارد» على كتفها بلطف، ثم تكلم بلغة لينة تمتص الإنهيار.

إنها خطرفة درويش جاهل ليس إلا.

ردت بتشنج وسط النحيب.

أبداً إنها وصمة عار للإمبراطورية العظمى، وسفك للدم السكسوني النبيل، فما زالت مرارة مقتل هكس وغردوزن تسد حلقي. إنه عار لا يغسله إلا فتح السودان.

أجاب اللوردات في لحظة واحدة.

الجنرال كتشنر بالقاهرة، يجري ترتيبات حملة الغزو.

فقالت وقد بدأت ثورتها تهدأ.

- مدوه بكل السلاح الذي صنعناه.

- أريد سماع سحقهم قبل موتي.

هز الملك إدرود رأسه بالإيجاب ثم نطق.

سيحصل ببركة يسوع المسيح.

رسموا الصليب على الصدور، انشدوا ترنيمة، ختمت بلفظ آمين.

برأ جرح سلاطين باشا. محص جميع الخطط الماكرة، للإفلات عن رقابة الخليفة اللصيقة. كسب ود حراسة، بدهاء المحنك وفر له فرص إختلائه بالمواطنين، المعارضين لسياسية الخليفة القمعية، وتعسفه في الحكم على الخصوم، بالأحكام الرادعة. رغم تفاهة الجنح. كانت خطة الفرار محكمة، أمن نجاحها الكارهون للخليفة الطاغي. نصحوه بالتنكر ليلاً، بملابس إمراة ملثمة. أعدوا له جمل بحي شعبي ضعيف المراقبة، شرحوا له خطة تبادل الإبل، باماكن محددة على ضفة النهر. أعوانهم يبدلون له الجمل بأخر، كلما طلع نهار يوم جديد. كانت رحلة الفرار أسطورية التمويه والتخفي. دخل مصر اماط اللثام عن وجهه، وكذلك معاناة ادغال أفريقيا، وسخف الدراويش، استبشر كتشنر بوصوله خيراً، ففي جعبته أسرار تقوض دولة المهدية. جمع الخليفة مجلس حربه للتفاكر فيما يفعل بعد هزيمة جيشه الغازي لمصر وإعتقال قائده النجومي.

قال في معرض حديثه.

أنا عندي إحساس، الكفرة مبيتين النية للزحف علينا. قولوا شورتكم.

– كبروا بحماس، امتشقوا سيوفهم، ثم هللوا نحن انصار المهدي وخليفته. إطمأن الخليفة صار يهلل مهيجا عاصفة الانفلات.

حلل كتشنر المعلومات القيمة التي بجعبة سلاطين، فوضه كمستشار عسكري خاص للحملة. زحف برفقة سلاطين، المتحمس لإعادة فتح السودان. كانت أرتال الآلات الحربية الضخمة تسير ببطء، خلف قطبان السكة حديد، المدهشة للبسطاء. كان «كتشنر» يحرر منشورات يوزعها بين الأهالي، بصفته مفوض ملك مصر وأمير المؤمنين، للقضاء على فساد المهدية. كانت الآلات تحسم المعركة تلو المعركة، لصالح جيش الفتح. الانتصارات تعضد في نفوس البؤساء زعم الرفاهية التي بشر بها كتشنر. عاونوه بإخلاص طمعاً في الخروج من دائرة التعاسة. إنفرد الخليفة بالراي بإدارة المعركة الكبرى. سافهاً اقتراح عثمان دقنة المحارب المتمرس في تحطيم، أركان صندوق الجيش الإنجليزي بالشرق، أبان قيام المهدية. ولإيمانه الراسخ أنه حامل لواء المهدية والخليفة بمنزلة الصديق، وفارس يقهر الكفرة على وضح النهار. كانت مأساة التاريخ تسجل الجريمة البشعة على صخور التل، المنحدر للنيل منذ الأزل بمداد دماء إنسانية مشبعة بالطمع والنزوة، منذ عصور قديمة، استنكر المجزرة البشرية، بصخب أمواج الشط ممزوج بدماء حماقة الآلة وتهور البسطاء، كاشفاً استغلال الأديان الرحيمة لإرضاء هوى الأنفس المريضة. لاذ الخليفة بالفرار، تاركاً أشلاء أصابت الإنسانية الحقة في مقتل. كان الجنود الغزاة يتخطون الجثث قفزاً، تحثهم الفرحة لاقتحام المدينة. لم يدر بخلدهم استقبال النسوة لهم بالزغاريد، وابتهاج حقيقي لانقشاع الظلمة. وأد احتفال النساء والأطفال، شهوة الاغتصاب المعروف لدى الجنود الفاتحين. فانتشروا بالبلد

لحفظ الأمن، متناسين الفساد الذي دائما يصبغهم. طارد كتشنر وسلاطين، فلول الأنصار والخليفة للقضاء عليه قبل استحفال أمرهم بغرب البلاد.

اجتاحت شوارع مدينة لندن والمدن الكبرى، مظاهرات فرح قياسية عند وصول أنباء الانتصار الباهر للأبطال، رافعين صور القائد العظيم كتشنروالأعلام مع رقص جنوني فريد.

كان أفراد أسر الضحايا، يسيرون في الشوارع بمشاعر، اختلط فيها الفرح بالبكاء على أبناء قتلوا ودفنوا بالأرض البعيدة، ذات الشمس الحارقة كنارالهاوية في الكتاب المقدس. صلوا ليباركهم الرب. لم تتمالك الملكة «فيكتوريا» أعصابها، بإزاء خبر فتح الخرطوم رسمت الصليب على صدرها،وأخذت تجأر بصوت عالي استدرعطف الملك «إدوارد». أحاطها بذراعيه في احتواء ودود بدد بدوره الضباب. شعر بسكينة أنفاسها من خلال حركة ضلوعها همس في أذنها بفتور.

سأدعو الليلة الوردات، لشرب نخب النصر، قبل زيارتي هذا المساء اسكوتلندا أيدت الملكة موقفه بإطراقة خجلى، شجعته لمواصلة الكلام بخفوت عذب.

أود رؤيتك بأجمل زي ملكي.

ثم خطف قبلة، طيعت اعطافها المشدودة. مالت تستند عليه، مجبرة خطاها للاتجاه نحو الدولاب. إنتقت ملابس تليق بعظمة ملكة بريطانيا العظمى ليوم النصر الخالد. إرتدت الفستان الوردي،

وضعت التاج فوق رأسها. نظرت في المرآة إقتنعت بعد صراع نفسي حاد، أنها سمت لدرجة الكمال من التأنق، تميدت برشاقة، مزهوة بدمها السكوني النقي، لم تجد مفراً من العبث بجدائل شعرها الأشقر، المعربد مفتخراً بجذوره المتأصلة النبل الإنساني، الضارب في أعماق التاريخ. تبسمت لحظة لغرورها الذي تأكدت، أنه حتما يثير حمية الملك واللورادات. إطمأنت لزينتها ثانياً بالمرآة. ثم خرجت تستقبل الوفود المهنئة بالانتصار كانت موسيقى قصر بكنجهام كلاسيكية، مفعمة بعبق الماضي الممتد لمستقبل يصعب التكهن بعظمته، اما الحاضر فقد قرعت له كؤوس أصناف الخمر الخمس، فاحدثت رنيناً غمر عزة الملكة بالنشوة. صافحت اللوردات ودمعها يذرف، هتفت بصوت حشرجه الصبر.

– لقد أعاد لنا اللورد كتشنر هيبة الأمة.

هز وزير الحربية يدها ثم لثمها بشوق إجلال. إنتابها شعور بأن القبلة، كانت نارية الشهوة. تمنت لو كانت في ساعة مضاجعة. أنحنى شاعر الأمبراطورية كيبلنج توقيراً لجلالها المبجل، همس إليها بتواضع، سأنشد لك قصيدة النصر وحرب الكرامة.

ردت ببسمة صافية، أثلجت صدره فانتحى جانبا تاركا المجال لرئيس الوزراء، لويس جورج المتفائل بما حققه للمبراطورية من انتصار عظيم. صافح الملكة بروح معنوية عالية، قابلتها بصلف لا يدانيه كبرياء منذ الأزمنة المنسية، ألقى الشاعر قصيدته العصماء، واصفاً فيها شجاعة الغازي وبسالة المدافع التي فاقت حد

الكمال. لكن في واقع الأمر هي اغتراف فظاعات منحطة لقوة دمار وحشية، وهمجية جهل مستعد لترويج فكر الأكاذيب الفاسدة. فقد كان أجدر به إلقاء شعر، يحث الإنسانية على قطع الأصابع المهمازة، لإشعال الحروب كي تجني من دماء الشعوب، الرفاهية التافهة. صفق اللوردات للمعاني التي خيل إليهم أنها سامية، في حين أن الملك أدورد، صفق لسعادة الملكة المفرطة، وما تجلبه عليه سعادتها بعد الرجوع من رحلة استجمامه. كان يتوق لليلة ملاطفة دافئة تقيه برد الشتاء. استدار ناحيتها بوجه طلق، تأمل ملامحها المشرقة، أفتر ثغرها الرطب طواعية، غرودت إليه بطرف شرح صدره، فأنطلق خياله يهيم في أحلام مستقبل، هو بكل المعايير أفضل من أيامه الماضية. راقبها تختفي بين دهاليز قصر بكنجهام، بخطوات تليق بعظمة الملوك، أظهرها صوت الحذاء، الخافت على السجاد الفاخر. كانت في حالة نفسية موزونة، دفعت باب غرفة نومها، وقد سيطرت عليها رغبة لحوحة للاستلقاء، والتمتع باسترخاء تام فوق طيات، المخدع المرمري المعطر. كانت نعومة ذوائبه، تداعب جسمها بلذة تشوق مسرفة، تستقطب الأحلام السعيدة من اقاصي الدنيا. أسبلت أهدابها لسطوة النعاس وتخديره.

غرقت في النوم بعمق، داهمتها رؤى جميلة عن أطفالها، انقلبت لجانبها الأيمن مع تنهيدات إرتياح مغناجة. شعرت بباب الغرفة ينفتح ببطء، جلست وسط السرير، تنظر بإزدراء. كانت شخصية القادم، زنجي أسمر، له شارب أسود مقوس، تطل من ملابسه الأفريقية

المرقعة الرخيصة الفحولة الكاملة. تلجلجت برهة ثم قالت فزعة.

أأنت من.

أجاب بصوت مداري، جار الانفاس، الأمير يونس الدكيم، جئت من السودان لاتزوجك.

تمتمت منزعجة.

أأأنت كيف دخلت القصر، أخرج أخرج.

رد بأسلوب حازم.

أنا لا تعترض سبيلي المسافات، ولا البحار، ولا الحرس الملكي، أنفلت من شقوق الصخور، ونفس الأوراق الخضراء وأيضاً من العقل الباطن للإنسانية، اتكلم جميع لغات العالم، وآت بالسحنة التي تعجبني. بغيتي الزواج بك ليمتزج السراب بالضباب، ننجب أطفالاً يحملون دم البشرية.

تقدم نحوها يمشي متربصاً. انسحبت من السرير. إحتمت بالقائم البعيد عنه. نظرت إلى صورة السيدة مريم العذراء، رسمت الصليب على قمة نهديها، ثم خاطبتها مرعوبة.

- أنقذيني أيتها العذراء المحبوبة.

ألتفتت إليه وقالت بلهجة تهديد.

- لو اقتربت خطوة، سوف أصرخ للحرس.

لم يرعو يونس الدكيم بل اقبل صويها بثقة، متحفزاً للانقضاض، هرولت تجاه خزانة الملابس، جذبت المسدس من بين لفائف الأقمشة، اطلقت طلقات نارية، لم تصبه بأذى فكرت تهرب، عبر الأبواب السرية، وجدتها جيدة الإغلاق. تعالت صرخاتها، والزنجي يدنو. بات ليس لها مأرب، غير الركض حول المخدع المخملي. كانت المسافة تقصر عقب كل دورة، مع تصاعد الأنفاس. العرق يتفصد، الخوف يتسلق قمة الذروة. قلبها كاد يتوقف، حين استطاع مسها. تمرت استعداداً للمقاومة الشرسة. أبدت عناداً عظيماً، وهو يحاول تطويقها، تمنعت فترة طويلة، خارت عزيمتها لضغط قوة ساعديه، أبت تقبيله مدة، رفضت فيها الاستسلام لإرادته. كانت ملامسة الاحتكاك لها مفعول عجيب، عجل بها للارتماء فوق المضجع، تجاوبت مع فطرة الطبيعة، بامتزاج مشبع الله وحده يعلم اين وصلت فيه. استكانت متكلسة. كان شعورها لحظتها أن روحها تكاد تزهق من عناق الضباب والسراب. صحيت مهلوعة، لقرع الباب، لظنها ارتكاب فضيحة لا تغفر بحق التاج البريطاني. تنفست الصعداء لما عرفت أن ما جرى هو حلمٌ فظيعٌ. فردت الوسادة المطوية بجوارها، ثم تحدث للطارق برقة ادخل.

انحنت مربية الأطفال، انحناءه مهذبة، ثم سألت الملكة بأسلوب شفاف منمق. مولاتي هل ستأخذي الاولاد للصلاة بالكاتدرائية.

سكنت هنيهة، تتقي الإجابة المثلى. ردت بعد تمحيص.

اذهبي بهم لحديقة الملاهي أولاً، فإن لي أموراً أود تسويتها.

اشرأبت إلى صورة مريم العذراء، ويسوع المسيح، وتلت الصلوات بخشوع، وفي نيتها الذهاب لكاتدرائية وستمنستر الاعتراف بالخطايا التي اغترفتها ليلة البارحة، بالأخص الشهوة التي إجتاحتها إبان تقبيل وزير الحربية، راحتها ولم تذكر وقتها، تمجيد الابن المخلص يسوع المسيح، فعوقبت على ضلالتها بالحلم المزعج. كانت لهفتها للاعتراف بدرجة عالية، جرفتها عن الاهتمام بشئون الأسرة. تيقنت وهي تتسلق درج الكاتدرائية، أن غفران ذنوبها حجر الزاوية في بقاء الإيمان بمجد الرب في قلوب أطفالها. أنشدت قداس يسوع المسيح، لتتكلم بإخلاص أمام القديس عن إشتهائها. تفرس القس الراهب طوايا نفسها بحدس مرهف، رسم علامة الصليب بالصليب المتدلي على صدره، أطبق جفنيه ليرى بنور قلبه. وقفت ساكنة مبهورة بعظمة التجلي، فجاءها صوته ريان المقاطع.

أصغي إليّ.

بحلقت فيه بانهماك، ثم ردت باستلطاف.

– إن قلبي معك أيها القديس.

فقال وهو مغمض العينين.

سأل الحواري شمعون، يسوع المسيح، سيدي لماذا أنت تصنع الخير للناس وهم يردون إليك بالإساءة.

أجاب المخلص.

كل إناء بما فيه ينضح.

رفع طرفه، ووجه الكلام إليها بطمأنينة.

أذهبي فليباركك الرب.

تواثبت الملكة فكتوريا، لفرط سعادتها حتى خيل أليها، انها لا تجري بل تطير باجنحة الإيمان. غشيتها موجة تواضع أنستها عجرفة الملك.

صارت تحيّ شعبها بالقصر، ببشاشة لم تسعها الردهات والغرف، وكذلك عيون الموظفين النشيطين لخدمة العائلة المالكة. سكبت على أطفالها تحنان موشي بالمرح. شعرت بحناياها تمور بأعمال خالدة. تنتظرها الإنسانية. تزينت حتى يبدو جوهرها ومظهرها متطابقان، أغمضت عينيها كما فعل القس. تخفي الملك ادورد في مشيته لما رأها في حالة التنور. إنقض يطوقها خلسة، شهقت للمباغتة والقبل المطبوعة على جيدها. سرت الرعدة إلى مواطن الإغراء. تفوه الملك بأسباب قطع الرحلة، في حين هي دخلت غيبوبة الشهوة الفوارة، لإشباع الغريزة.

كانت معركة الليله متكافئة، رويا ظمأ الطبيعة، بامتلاك مصحوب بصراخ جنوني لم يعهداه قط. كانت بعد انتهاء كل ممارسه تستنشق رائحه عرقه ، تهتف بصوت طيع.

إنني اشتم فيك رائحه العالم.

انشرحت أسارير الملك ادورد للفحولة التي نزلت عليه، فكلما امتطى صهوة سباق المتعة نشطت خلاياه لفوران جديد. نضب المعين

من ماء الحياة فتعانقا عناقا يروي ظمأ الروح بعد متعة الجسد همست الملكة فكتوريا وهي تحت سيطرة النشوة

– اليوم أحب اصطحابك في زيارة تفقدية للجزر البريطانية المباركة.

داعب نهديها بقبلة خاطفة فكت عقدة لسانه فقال مؤكدا علمه ببواطن الامور. اللورد كتشنر يشرف لندن اليوم وسوف نقيم له بالقصر حفل استقبال تاريخي فقالت غاضبه.

– لماذا لم تخبرني قبل الآن.

كنت أخبئه كمفاجأة سارة لك.

أف وماذا اصنع له انا الآن.

– يكفيه فخرا تقليده وسام الإمبراطورية العظمي.

اكتظ القصر بصفوة المجتمع رجال مال وسياسيين، سفراء دول صديقة، جنرالات جيش تتلألأ بستراتهم العسكرية النياشين والأوسمة رجال الصحافة يجوبون ساحة القصر في حركة دوؤب مفادها قلق الانتظار. كان خيالة الحرس الملكي يجرون العرض العسكري الفريد احتفاء بالورد كتشنر في موكبه المهيب. عزفت الفرقة الملكية موسيقي النصر الخالد. كانت خطوات كتشنر المتكبرة علي البساط المرمري تواكب اهتزاز شاربه الذهبي، في حين سير اقدام رئيس الوزراء لويس جورج متعالية علو انجاز حكومته. صفقت الأكف تصفيقاً شديد العفوية والتعبير، لم يشعر كتشنر باعتداد مماثل طيلة

حياته. وأصابع الملكة تثبت الوسام علي صدره نبت عنه انحناءه تبجيلية لجلالة عظمتها، بادل ابتسامتها السنية بأفتراز تكلف فيه الحزم. فقالت مثنية عليه.

لقد أصبحت رمزا لكرامة هذا الشعب ولاجلك اصدر المرسوم الملكي الاتي.

أنشئ بصفتك حاكم السودان كلية غردون تخليدا له، ومدرسة كتشنر الطبية عرفانا بجميلك وان تصدر قرار تحرم فيه الرق بالبلاد، فواجبنا نقل الحضارة إلي أولئك التعساء، انحنى ثم أفصح.

لك مني السمع والطاعة يا صاحبة الجلالة.

كان لويس جورج يمينه ينتظر نهاية تقليده الوسام ليطلعه هو الأخر بالوصايا المهمة ناي به جانبا ثم أسره هامسا.

أن صاحبة الجلال تملك ولا تحكم وبيدي مقاليد الأمور ورفاهية شعبنا تعتمد علي ملأ الخزانة الوطنية من خيرات الأرض وسياستنا تقوم علي مبدأ فرق تسد.

obeikandl.com

٢١

أجفل قدوم طيف رهف عن ناظري أطياف أشباح القبور، فتوارت في لمحه بمخابئها، شخصت إليها دون أن تطرف أهدابي خيل إليها وهي متكئة علي الباب انثني مفتون ببروز نهديها، شدت فستان المدرسة الفضفاض لأسفل تريني تكورهما الجيد، تفلتت ضحكتي لا إرادية، قابلتها بتغضن مصطنع، كبح جماح سجيتي العفوي، فاعتلت وجهي تعابير الجد اقبلت نحوي باستحياء مسرف في الانطواء افسحت مكانا تجلس به قربي. كانت إرهاصات ارتباكها واضحة إنما كانت تداريه لهي أشياء في منتهي الخطورة، تلهت بأصبعها ثواني تاركة لي فرصة التخمين لما جاءت من اجله. تمسكت باللامبالاة، لكن نفحه شذي عطرها هيجت غريزتي، لثمت راحتيها اللاهيتين، انقشع ثوب المسكنة المتسربلة به، وجهت إلي نظرة صارمة فهمت منها الشروط المسبقة التي تود إملاءها. طوقتني لتطمئن الي خضوعي التام لسطوة نفوذ انوثتها البكر. ملت طواعية بغية احتكاك كتفي بنهدها الأيمن المغرور، رضخت للمداعبة الأولي، توقعت ساعتئذ حظوتي بضمه بريئه تنعش روحي، أسبلت جفني استعداد لقشعريرة الملاطفة التي اصبو اليها . فاجاتني بنفور لم يكن في الحسبان، صدتني عنها بقوة اثارت شكوكي، اذ كيف افسر مغزي النعومه الشفافه والانقلاب للسلوك العدواني. لم اجد تحليلاً منطقياً سوي أن حدسها اكتشف خطيئة الامس. تشعبت في مهجتي سبل التماس الأعذار، كدت افشي

سري بالاعتراف لولا تسرعها لتعتيبي قائله.

أنت لا تفلح الا . . . . ؟

استأنفت بعد السكوت بحدة أقل.

– ابن خالتي سجل للدراسات العليا وانت همك الا المعهد، أبداً ما فكرت فيّ، أنا نفسي أشوفك شيء كبير، لكن ولا على بالك.

مسحت دمعة ترقرقت باهدابها. تنفست انا من تفاهه ما قالته دنوت أرأب الصدع الذي اصاب دواخلها لففت حولها ساعدي ثم همست لها بحنان يبعث الإلفة – حاضر، حاضر.

تركت دمعة الفرح تنحدر دون مقاومة، لتغسل الكابه الناشئة عن عدم تحقيق الحنين بالصورة التي تكفل المظهر الاجتماعي المرموق. ارتمت فوق صدري تشنج علي فترات متباعدة، انتشلني من رتابة الركود لا تجاوب مع مشاعرها الحية فاضطررت للبوح بنيه بدء الإجراءات اليوم. التصقت بي جاريتها بضمه شديدة تسمو عن الالفاظ، تملصت مني ثم نظرت لساعة معصمها، لم تنطق لكنها رشقتني بتقطيبة جميلة ختمت اللقاء. شرعت أستبدل ملابسي تأهباً للخروج، فقد فتقت تلك المخلوقه مسارب في ذهني خطيرة، أشدها خطورة البعد الاجتماعي. كان عقلي خاويا إلا من فكرتها، وأنا أستغل المركبة العامة. الركاب يثرثرون في مواضيع، تافهة بأنانية. المتسولون عند محطات الوقوف يطلبون الصدقة عبر النوافذ. سيارات فارهة تنهب الأرض مسرعة. إمتثلت للبلاده التي ألمت

بي، فما عدت أولي ما يدور قدراً يذكر. إتكأت على المقعد الأمامي، مستسلماً لغفوة الوسن، المتنامي مع هدهدة السيارة. استيقظت قبل معبر النهر الحديدي، نتيجة الضوضاء. عركت عينيي كيما أزيل غشاوتهما. ذهلت للمشهد المروع. كان معوقوا الحرب، بدراجاتهم ذات الإطارات الثلاثة، يسدون المنفذ، مزودين بقنابل يدوية، إمتلكوها أبان خوضهم المعارك الطاحنة بالجنوب. كانت دراجاتهم تتحرك في كل الاتجاهات، لمنع التسلل للخرطوم، يهتفون.

- أعطونا حقوقنا.

في حين أفواههم بعد كل هتاف. تدخن لفائف الحشيش بشراهة، هربا للمستقبل الزائف. كانت أرجلهم المبتورة، تجدف في الهواء بتلقائية، كما لو كانت زعانف سمك. سعلت من الدخان الخانق، بينما قوات مكافحة الشغب، متوجسة من اقتحام معاقلهم، خشية وقوع ضحايا. السابلة مأخوذين بمنظر فداحة المأساة الفظيعة. النساء يذرفن دمعاً، يستحيل حبسه، مع نشجات مؤلمة تعترض الشهيق.

كانت النسوة اللائي معنا بالمركبة، ينتحبن بصوت مسموع، يؤكد معاناة أسرهن بتلك التعاسة. كان الرجال يتحلون بالصبر، الغصة تسد حلوقهم، مكتفين بفرك أياديهم حسرة، بدلاً من التفكير في إيقاف حرب القارة اللعينة. ابتلعت عبرة خانقة كريهة المذاق. ركزت بصيرتي، أستلهم من الواقع المخزي الوجه الاخر للوحشية، الذي هو باي حال من الأحوال، يعصب التكهن بحقيقة فظاعته. مكثنا طويلاً، مؤملين إنصراف المعاقين. انطفت بارقة الأمل لنشوب المهاترات.

صرف السائق النظر عن مواصلة الرحلة، ففضل العودة للمحطة الكبيرة. أوقدت رحلة الإياب في عقلي، قدرة هائلة للتفكير، في كتابة روايتي كيف يكون الغد مشرقاً. إذ كلما أشرقت شمس انحدرنا للحضيض. أربعة عقود بعد الاستقلال، والأمة ترزح تحت الإملاق والجهل، مقتفية أثر تاريخ معوج، خبيث الحلقات، واحدة منها الحكم الثنائي الازدواج الشرير، مبتكر فكرة المناطق المقفولة، نواة الشقاق المدمر. خضنا معه كعبيد غمار الحرب العالمية الثانية، لا من اجل الإنسانية بل لأطماع رضاعة من ثدي الشيطان. تقنا للحرية. فكانت ثورات، وشهداء بجلناهم، أنشأنا حولهم الأساطير التي غيبتنا عن إدراك خيوط الأبالسة الخفية. كان أول غزلها هنري كوريل، بذرة الفكر الغريب، الذي تمخضت عنه الجبهة المعادية للاستعمار. ولإستشرائها مورست مع أعضاءها، سياسة التشريد والاعتقال، على مبدأ الممنوع مرغوب، وحتى تكون الفتنة أشد من القتل، ألبس لها في مصر إبليس عباءة الإسلام في الإخوان، لصد الكفرة على سبيل الضد يظهر حسنه الضد. مستغلين العاطفة لفساد العقول.

وبما أنه سهل الانتشار. كان لابد غرس الأول قبل مدة كافية، لتستبت جذوره. أما الخيوط الأخرى، يكفي نفض الغبار عنها بالوعود، لتكون الأنانية جذابة. حتى السياسيين المخلصين، ظنوا في أنفسهم، الذكاء الخارق والحنكة الفذه، بطرح الاتحاد مع مصر، لمواجهة العدو المشترك، فاتهم إدراك الأيادي الخسيسة التي تفوق المستعمر سفالة. بلعوا طعم، الاستقلال السلمي بشهية نهمة، استغنت

عن المضغ. مرت المركبة محازية منزل الزعيم، تطلعت غصبا عني. كانت مشاعري شغوفة بإلقاء نظرة للعلم. ألفيت ألوانه الثلاثة، تتماوج مع ريح الجنوب، لم تصبني الرعدة، التي تلم بي كلما شاهدته سابقا . كان يرقص باستخفاف، قابلته باشمئزاز وتأفف؟ إذ بات لا قيمة له في وجدان الأمة. فقد اختار السفهاء علم آخر مرائي، ترمز ألوانه للنفاق وسفك الدماء، مثلما هي الأخرى رايات أفريقيا.

لم يجن البؤساء منها، إلا الشقاء، إما بإضافة مساحات جديدة، او خلق حدود حديثة. تنتقي ألوان زاهية، رفرافة توقد نار الحرب. لويت عنقي تجاه الركاب. كانت رؤوسهم تتمايل عن اليمين وعن الشمال. تجاوبا مع تمايل السيارة. دققت النظر إليها، لعلي استنبط الأفكار القيمة، التي ولدها هذا الرج. قربت حاجبي، تهكما إذ تبادر لعقلي، وضاعة ما يدور بها، مستنداً على الواقع، المتردي للحياة اليومية. يعني ببساطة ضحالة تفكير العقول. نفثت زفرة ضجرة، فجرت رؤى جديدة، مغايرة لما كنت مقتنعا به سلفاً. إذ اندلعت في ذهني، تخيلات اوحت بها الوان العلم الخفاق. منذ كان في عالم الغيب، مروراً بخلقه الأول، بعد الحرب العالمية الثانية فاسترجعت ذاكرتي أحاديث أبي عنها. بداية بتدريبه على الأسلحة الحديثة وتنفيذ الخطط العسكرية، وانتهاء بالسفر الى مصر.

قال لي :خطب الجنرال «مونتجمري» في الوحدات، لرفع روح الجنود القتالية، مردداً عزم حكومة صاحبة الجلالة إعطاء الدول المستعمرة، الاستقلال بعد هزيمة دول الشر. رسم الصليب على

صدره، ثم استطرد.

– قال رئيس الوزراء تشرشل، أعظم إنجليزي على وجه الأرض في مجلس العموم البريطاني.

بحق المخلص يسوع المسيح، سوف نفي بوعودنا للدول المستعمرة.

قال ابي محدثا عشيرته.

أنا رغم لَكْنَة لسان الخواجة فهمت قصده، إلا شيء واحد ما دخل دماغي، شر الألمان.

كان صعبا على سجيته البسيطة، الحكم على قوم لم يعاشرهم، ولم ير أحداً منهم ابدأ لكنه عرف الإنجليز، منذ نعومة أظافره، بدهاءهم الماكر.

وسرد لنا. لما سمعنا الجنرال يقسم بالرب أنهم سيعطوننا الاستقلال، وسوست لنفسي فاليكونوا أشراراً، الله وحده يعلم الغيب.

وصف لنا المعدات الحربية، التي لا أول لها ولا آخر بطول الصحراء وعرضها. دبابات، مدافع، بنادق، قنابل، خنادق محفورة. سيارات كبيرة كميات ذخيرة، لا تحصى وأشكال وألوان من البشر. سكت برهة فتل فيها شاربه الطويل، مع حالة شرود فريدة، ثم باشر يحكي.

– لما ناداني الضابط الإنجليزي، مشيت الى خيمته بمشية

عسكرية منضبطة، رفعت يدي بالتحية. عاين لي معاينة قوية، سويت فوق وجهي صرامة حقيقية، أخفي فيها صغر سني، تأملني زين وضحك ضحكة صغيرة.

قال لي:

- فحل كل شيء تمام.

رديت عليه بصوت عالي.

تمام سعادتك، نحن سودانيين كلنا جاهزين

صمت قليلا ثم نطق.

خلف دور، معتدل مارش.

إنصرفت حزيناً، شفت فوق فخذه ورقة مكتوبة بكلامهم، خمنت إنها رسالة لأهله. ساعتها شعرت بمرارة الأمية. كان حبي لكم كبير، وليت وجهي جنوباً، ونفخت نفساً طويلاً، كله حنين. كنت متأكد من وصوله للبلد، ولو بعد سنين، جاءتني الهبوب الهابة من جهتكم، ميزت رائحة عرقكم، المخلوط بعفن جرة البهائم، وقتها مات الخوف في قلبي. كانت غارات الألمان الأولى فظيعة، تطاير الناس من القنابل قطعا.. قطعا، خصوصاً المصريين، يشهد الله ماتوا بفدائية. أما نحن أسود أنا لما شفت الجثث بعد الغارة، آمنت أن الألمان أشرار. لمينا القتلى، دفناهم بعضهم سوينا لهم شواهد، وبعضهم صلبان، وشنينا الهجوم الكبير. كان الألمان بيقاتلوا من أجل النصر، وكنا مع جيش الحلفاء، نقاتل من أجل الحرية بضراوة. كانت مدافعنا

والطائرات تمطر العدو بنيران الغضب، مع زحف مشاة جهنمي جبار، كسرنا شوكة صمود الألمان، اقتحمنا معاقلهم، شتتناهم بدداً. كانت قذائفنا لما تسقط عليهم، ترى الدخان يسد عين الشمس. اشتبكنا، كان الطعن والصراخ الرهيب. داهمنا الخنادق والمخابئ. أسرنا جنود ما بتعدوا رأيت في عيونهم هلع ما بتوصف، عرفت وقتها إننا والحلفاء أكثر شراً على الأرض، خصوصا لما حاول جريح، قتل الجنرال منتجمري، تصديت أنا، لطلقات مسدسه، التي لم تكن جيدة التصويب، فأصابت ذراعي الأيمن وفخذي. أبدنا الجرحى انتقاما للمحاولة. كسبنا المعركة، سوينا نصب للجندي المجهول. تضاحكت بخبث للبدعة الضلالية الكبرى الجندي المجهول، هؤلاء يموتون بالملايين، في المعارك الطاحنة، ولهم رمز واحد في كل بلد، ولا أعرف إلى أي نفر ينتمي، في حين العالم يعرف هتلر، موسيفيني، روميل، منتجمري، نابليون، بونشيه، وآلاف جنرالات العالم الثالث، بينما المصلحين الإنسانيين، ينجبوا دائماً فرادى، والجنرالات يولدوا كما يولد الناموس. طرقت الباب بنفس منقبضة، مكثت برهة أتاني فيها ضجر القلق. فرقعت أصابعي بعصبية، محاولاً اغتيال زمن الانتظار الممل. فتحت صبية النظافة الباب بوجه متعب، ترى في سحنته البؤس. كانت أكمام فستانها مبللة، من جراء مسح البلاط. نحرها ينضح عرقاً، بلل أعلى الفستان فالتصق بصدرها النامي. مازحتها ساخراً من نفسي.

– ما شاء الله صرت حلوة.

وارت وجهها بكفيها، مصدقة أنها رائعة وجذابة بناء على إطرائي، الذي رميتها به. كانت نيتي الدعابة، صعدت إلى غرفتي وبخلدي، ما زال يدور حديث أبي القيم، عن فترة التحاقه بالجيش.

رقدت استرجع سرده للأحداث، استعادت مخيلتي جلسة العائلة بكوخ الضيافة. كان أفراد الأسرة، يجحظون في أبي بتركيز خرافي للإصغاء، وهو يروي احداث ما بعد الحرب أحتسى جرعات ماء، وتابع بأسلوب مشوق.

لما رجعنا من العلمين. كان عددنا قليل الأغلبية قعدوا في مصر. وصلنا الخرطوم قعدت ثلاثة أيام سلمت العهدة العسكرية، أخذت إجازة شهرين، وجئت البلد اتزوجت مراتي الأولى الله يرحمها ماتت بعسر الولادة. كان حفل زواجي مبالغ فيه خمسة عشر يوماً بلياليها، رقص وغناء، عدت بعده لسلاح المدفعية، تنقلت بمديريات الشمال ثم أخيراً الجنوب، لما حصل تمرد سنة خمسة وخمسين، حاولنا إخماده من باب خبرتنا في القتال، كبدناهم خسائر فادحة في الأرواح، قبل يدخلوا الغابة لحرب العصابات و..

قطع أبن عمي حديثه بسؤال جرئ.

صحيح يا عمي أتزوجت في الجنوب.

آي يا ولد، أنا عمري قلبي يكره الزنا ما كنت مثل أصحابي العساكر الزنانيين، لهم عيال ما تعد. توكلت على الله وعرست من قبيلة الفرتيت بنية في طور البلوغ سمحة، يشهد الله لقيتها مقفولة،

ووقت جاءنا التبديل حاولت أسوقها معي للشمال، أبت خليتها حامل، لكن قبل السفر وصيتها إذا جاء ولد تسميه فرح، ولو بنية تختار الاسم على كيفها.

جئنا الخرطوم لقينا الجيش الإنجليزي والمصري، بمحطة السكة حديد مستعدين للرحيل. كان الخلق لا يعلم عددهم إلا الله، ناس يبكوا، وناس يلوحوا بالأيادي، وحريم يزغردن.

اعترض عمي مجرى كلامه.

إلا قول لنا يا فحل أخوي، قصتك مع المصريات، اللحم الأبيض.

سكت هنيهة، فتل شاربه المبيض.

لما جئت البلد، أبوي حلف على بالطلاق أخلي العسكرية، وأعرس وأتاجر بالإبل في مصر بدرب الأربعين. وجدت المصريات ما شاء الله، عرست واحدة خلفت لي بنتين.

افسد دخول صبية النظافة غرفتي توارت خواطري، شرعت تنظف البلاط مدعية عدم وجودي، كانت تغني وهي منحنية، تزيل الغبار بالقطعة المبللة. صرفت النظر عنها، استدعى شوارد أفكاري المستعصية. شعرت بأرهاق ذهني موجع، ملت لشقي الأيسر، لربما أظفر بحالة نفسية مغايرة، تبعد عني الصداع. لم أصدق ناظري للوهلة الأولى، حتى استوثقت أنني لست في حلم. كانت الصبية تبدأ المسح من الحائط مع ترقيص خصرها، حتى إذا لامست سريري بفخذيها، عاودت الكرة دون أن تتحول لمكان آخر، تزيد في كل مرة إنحناءتها،

كي تغرر بي. داعبت بأناملي عجيزتها المكورة. أبدت ميوعة، ووحوحة شجعتني لمواصلة العبث. جذبت فستانها، تهاوت فوقي بلا تحفظ، قبلت ثدييها البكرين، ثم طرحتها تحتي. عصرتها بضلوعي، لمتني بساعديها، تبادلنا المماحكة لبلوغ المتعة دون الممارسة، تنهدت تنهيدة شبق، تلاها تشنج كاد ضغط صدرها يخترقني، تذكرت فتاة رأس الشيطان. فأنهلت أكدم خدها ونحرها، في حين خصرها يطأني بقوة، بلغت الارتعاشة وراء ثيابي، ظللت مطوقها، استنشق أنفاسها الفاترة، وقد دخلت في إغماءة اللذة، استنهضها لتفيق. آبت من أحلامها المرجوة، بمشقة أتلفت اعصابي. نهرتها فارتجفت وهي ما زالت شبه يقظة، مشت كأنها تسير نائمة. رددتها بصفعة للوعي، ثم زجرتها بحدة تمي نظافة الغرف وتعالي المطبخ.

جهزت طعام الأفطار، ونفسي متهيئة، لإخلاء البيت. ناديتها فجاءت مستحية. أجلستها جواري، لتأكل مطمئنة. لم تكن راغبة في الأكل بقدر ما كانت تواقة لرتع عشب الملاطفة، منتهزة فرصة خلو البيت. لمست ذكري، أخرجته لها بهتت لمعجزته، قربته منها جفلت ثم قالت.

- بقتلني، بتقتلني

رجعته تحت البنطال، دغدغتها عند الركن، ثم إنتقلنا لموضع آخر نشهده عناقنا، عضيت حلمتي نهديها، ثم باغتها... كم رجلا قبّلك ؟

شهقت بتقطع وتمتمت.

أأأنت أول واحد.

رشفت رحيق شفتيها، بأنانية لا تعرف الشبع. كان غليان شهوتي يهفو لمزيد من النيران، عريتها حتى السرة، تساجلنا العراك حتى الذروة، هدأ فوران فتوتي تركتها ممددة تتناهد. ذهبت لغرفتي منهك القوى، يدب فيّ فتور شديد خالطه وسن، تمددت بالفراش طالباً لحظة الغفوة. تناهى إلىّ دبيب أقدام حافية لم أكترث. صك أذني صرير الباب المتجه للإغلاق، خيل لي أن هذه المراهقة، لم ترو ظمأها الحسوات الزائفة، فتعقبتني لتنهل جرعات حقيقية، تبل صدى بلوغها المبكر. وطنت نفسي لصرخة الغضب، أنكمشت لأفرغ حمم جوفي، بلعت ريقي لتكون النبرات قوية، هممت بتحريك لساني للتوبيخ. فاجاءني على غرة الصوت الناعم المألوف لدي.

الشاعر الرقيق ولا على باله الهم.

اعتدلت جالسا، استقبلها وقد زال توتري البغيض في لمحة، معقبا وراه رزانه وقوره، ألهمت رهف تطويق عنقي ولثم خدي. استمرأت المسكنة، طمعاً في استنفاذ دفئ عاطفتها الغنية بالألفة، لعبت بالشيب، المخبأ وسط شعر رأسي. كان عقلي نشطاً، للتكهن بما تتفوه به وحسن تأويله على الوجه الأمثل.

اهتديت للمثل الشعبي.

تزوجوهن بالموجود، وعيشوهن بالكذب، هبطت علي سكينة، ميلتني تجاه زندها، حلمت بالمستقبل المشرق يلوح حلف أهدابي،

الخاضعة لحالة تنويم أسطوري. أستوعبت رهف بفطرة الأنوثة استقراري النفسي، فاماطت اللثام، بإفشاء سر صراع خالي والدكتورة قمر في تقييم علاقتنا. كانت وجهه نظر والدها إنها شيء عابر، تقتضيه فترة المراهقة، وأي اعتراض في الوقت الراهن، تترتب عليه نتائج سيئة تضر بمستقبلها الدراسي.

فقالت تنبهه:

- ربما استفحل الأمر لكارثة.

فرد أبي.

- إذا كانت هذه رغبتها، يجب علينا احترامها.

قربت رهف فاهها من أذني ووسوست، لما سمعت كلام أبي، اكتشفت إنك روحي ومصرة أتزوجك، قبل دراستي بالجامعة، إنت سامعني.

أومأت بأهدابي

فاسترسلت أحب أسمع رأيك.

فرت مني بدايات النعاس

صحت متحمسا.

بكره أبدأ شراء الأشياء.

امتصت ينابيع فرحتي، بإطراقة موحية، وأنشدت بشفاه طوعت

الحروف.

- إذن تعال اشرح لي الفيزياء.

جلسنا متقاربين، وبعيدين عن الملاصقة، مبرهنا للدكتورة قمر صفاء نيتي، وترفعي، وهي ما فتئت تروح وتغدو، بين مكان خلوتنا والغرف الأخرى. كانت حناياها تجيش، بأمور تعذر الإفصاح بها، فاستعاضت عنها بنظرات استعطافية، رشقت رهف بمعظمها، والمتبقي رمتني به، إضافة لتوبيخة مغلفة بظرف، تبينتها مندسة بالتحديقة المسروقة، فهمتها باستراقة لحظي وقوة حدسي، فقابلت انزعاج قمر المخفي ببرود شبه شيطاني، ساعدني على تمليك رهف أسرار الفيزياء، بأسلوب هين رطب جفاف العمليات الحسابية، وتخطاها ليشمل وجهها النضر. كنت اختلس متعة مشاهدة فقاقيع الرضاب، تغيب داخل تلافيف شفتيها. زجرت الطفلين ليكفا عن الضجة. كانت عاملة النظافة متكئة على الحائط جاحظة العينين، لا يطرف جفنها، تبدو عليها بلادة خرقاء، تطوي في أحشائها تذمر مكبوت، نفخ نار غيرتها. لم تجرؤ للدفاع عن حق أنوثتها في امتلاكي. كانت ثورة بركانها عديمة المنفذ، لكنها عبرت بزلزال، رأيته يجتاح ركبتيها، أهملت معاينتها المتوسلة. باشرت شرح المسألة. فطنت رهف لحالة الصبية النفسية العجيبة، وهي ترنو بمحاجر ثابتة، عزتها رهف لشعور الصبية بالدونية في كل شيء. تهلل وجه مراهقتي للمقارنة غير المتكافئة، غمزت اليّ تطلعني لما توصلت له بشأن عاملة النظافة. جاريتها بلمسة ودودة، تأكد مزاعمها. ساداً

بذلك جميع مسارب معرفة الحقيقة. جاء خالي من المستشفى، تململنا سويا، مظهرين الانضباط والأدب ونحن مستوري العورة، سوى خصلات رهف الفاجرة. مازحنا بوضع كفيه فوق رأس كل منا. همهم بعبارات غامضة، قابلة للتأويل. اخترنا الشطر المتفائل، ومن ثم شبكنا أصابعنا، مطلقين العنان للأحلام تترعرع. انتشلنا صوت سقوط المكنة من السهو العميق. كانت الصبية قد قذفت بها على البلاط، انتقاماً للألفة المنسجمة بيني ورهف، هبطت الدرج مسرعة، يسمع نحيبها. زمت رهف فمها، استخفافاً بسلوك الصبية الأرعن. احتميت بالسكوت وإدعاء الغفلة، إيماناً مني بتفاهة الموقف. انتقلنا لمائدة الطعام. كانت عقولنا تمحص الفكر لاختيار العبارات الصائبة عند الحديث. اشمأززت لنغمات المضغ. كانت حاسة ذوقي بليدة، عجزت في تحديد الصنف الشهي، خضعت للتمطي عوضا عن الأكل. عرفت الدكتورة قمر بطريقة متلصلصة، فقدان شهيتي للطعام. غمزت إليّ خلسة للتزود، فسرت إشارتها بأنها لم تكن خوفاً على صحتي، بل خوفا على رهف إذا حذت حذوي. انصعت لرغبتها، مجاملا إياها. كان خالي يخطف بين الفينة والأخرى، المعاينة لفتاته الجميلة، حاضا لها بالبسمات تناول المزيد من الأطعمة، تعوض بها مضاعفات السهر. فرغت من طعامي، انتقلت للمنضدة، انتقي مسائل فيزيائية وردت بالامتحانات. لحقت بي رهف أدنت كرسيها مني، تنهدت بارتياح أنثوي مغري. صويت نحوي نظرة عجلى خطيرة، جعلت قلبي سريع الخفقان، ارتعدت قدمي لملامسة ساقها. كان عناق الأقدام رائعا، إنسانا دبيبه مراجعة الدرس. طفرت إلى ذهني

فكرة الزواج. فقلت لها باسلوب المستلهم.

ألحقيني بالغرفة.

أكتفت بالإيحاء ولم تنبس بحرف. توجهت صوب خزانة ملابسي قرير العين، استخرجت المال المدخر، منذ عهد بعيد نويت فيه، إقامة مشروع اقتصادي. قلبت رزم النقود بإنتشاء غير معهود، مفاده الخطوة الإيجابية للارتباط المقدس.

تخيلت عدد أطفالنا الأربعة، بأعمارهم المتدرجة كأعمدة الرسم البياني. كان الولدان بسحنة نوبية تنتمي للفراعنة، في حين الطفلتين الصغيرتين، ورثتا لون الصحراء السخي، تلهيت بشرائط ضفائرهما، وقبلت وجنتيهما، بتحنان أبوي رفيع المستوى، أشعل غيرة الولدين فتدافعا، طبعت على خديهما لثمة، أردت بها محو الحساسية. حكيت لهم قصص اختلقتها، حولقوا فيّ ببراءة، تحايلوا بالبكاء للمزيد، سمت مشاعري لتلقينهم، جرعة إنسانية ابتكرتها، ثم لففتها بالمزاح. إبتلعوها بابتهاج بديع، فردت ساعدي في الهواء لاحتوائهم ارتدا إلى صدري خاويين، فقت من أوهامي، شخصت للنقود المتراصة بحجري، تقهقر الباب. انفلت صفيره حاداً، منبئاً بدفع وافد. كانت رهف آتية بمحى عجائبي، فقد امتلكت الفوضى والوقار معاً، فتنت بتناسق روعة التضاد. تسمرت على مقربة مني كسيرة الطرف، يئست من الانتظار الطويل.

فقالت برفق.

نعم.

رجعت للعقلانية بكلمة نعم.

أمرتها تجلس جواري. أطاعت بلا جدال. رحلت جسمي لمواجهتها، أعطيتها المال المدخر، وهي ساهية لا أدر فيما تفكر. أفسدت عزلتها قائلاً.

امسك قسط العرس الأول.

امتثلت للوعي بأخذ نفس. لحست نحرها. سرقت قبلة من موضع العضة، هرولت. قدحت دعابة شفتيها، جذوة إتمام الزواج بدماغي فصار نشيطاً يفتش، أيسر السبل لجمع المال. هاجم ذهني اقتراح بيع الإبل التي بالصحراء، ارتفعت روحي المعنوية فبت يقظاً، أتقلب بالفراش حتى أشرقت الشمس. جاءت تمشي على أمشاطها، لم تدخل سوي قدمها اليمني، لوحت بيدها وهي في غاية السعادة، ثم انصرفت للمدرسة. شاطرتها التلويحة. بدلت ملابسي حملت الحقيبة، وخرجت قاصداً المعهد. كان بالي مشغولاً كفاني ملاحظة ما يجري بالأزقة، وأيضا ملل المسافة الطويلة، سرت مباشر. للفصل، حييت الطلاب بتحية الصباح، وسوسوا كالأبالسة. تجاهلت سخافة سلوكهم الردئي المنحط، فقد عزوت غباوتهم للحاضر المظلم، المطل من بؤبؤة أحداقهم. أسكتهم بنظرة صارمة. وانخرطت أدرس قوانين نيوتن للحركة، بفن أنساهم عقد مواعيد اللقاءات السرية. طرحت الأسئلة. كان التحصيل جيداً رميت بالطباشيرة الركن القصى. يممت وجهي

لمكتب المعلمين. كانت علوية تعاني اضطراباً نفسياً خطيراً. سلمت فلم تتبس ببنت شفة، وضعت راحتي فوق كتفيها، بنية امتصاص مسببات القلق. استجابت للمستي بعض شفتها. فقلت استميل ودها.

- مالك يا علوية

عدلت قامتها

- أشعر بصداع بسيط

طوفت كفي تحوم بظهرها، قاصداً تهدئة أعصابها. إستكانت للمس، فمالت برأسها نحوي، أدرت وجهها تجاهي برفق، قرأت تعابيره. كان الشحوب يتوارى رويداً رويداً، تاركا للإنشراح إبداء رونق جمال وجه الثلاثين ربيعاً. إنحلت عقدة لسانها، فخاطبتني بلهجة منخفضة.

- أتزوجني يا يوسف.

فقلت مراوغاً أنا لا أملك إمكانيات الزواج.

فقالت بحماس يدحض ذريعتي.

إنت تعال واتكلم.

شبكت أصابعي بأصابعها، تماديت في النفاق، كل هذه المعاناة بسبب الزواج. أمطرتني بعبسة أسى، ثم قالت وكأنها مخنوقة.

شقيقي علي جاء من منطقة العمليات، وساقه مبتورة.

قربت حاجبيها، ثم أنت بحرقة، وأبانت.

- انفجر فيه لغم.

أقشعر جلدي بانكماشة سريعة، مكثت ساهيا لهول الصدمة. جمعت شتات شجاعتي، ضغط راحتها مواسيا لما أصابهم. ثم قلت نهاية اليوم أمشي معك أشوفه و...، قطعت كلامي بمسكنة.

- لو ما عندك حصة نمشي حالا على الأقل نفطر هناك.

تأهبت الخروج. وقفت تسوي ثوبها، متعمدة إبراز ثمرتيها للأمام، متيحة إظهار نضجها للرائي. كان عقلي مزدحما برؤى فظاعة الحرب. وهي تلغو بأحاديث رديئة لا تواكب ما بذاكرتي. دلفنا لزقاق به كلبة، تحرس جروها اللعوب. احتمت بي إتقاء عبثه. ملنا يساراً، تعدينا كوم ترابي يتزحلق به صبية، فتحت باب موارب، ولجت خلفها أشارت بسبابتها لغرفة نائية، إنتابني توجس وأنا أطأ الدرج. كانت النوافذ مشرعة، تيار الهواء يرقص حواف الملاءات. كان على مستلقيا، يرنو للسقف كالممسوس. أنزل رجله المبتورة التي ردفت بالسليمة، محاولا تهذيب رقدته. صافحته بحرارة مشجعاً إياه تجاوز المحنة، كشر أنيابه وتحلى بالصمت. ملأت ناظري فيه. كان شاربه النامي يوحي ببلوغه سن العشرين، بينما وجهه ذو التجاعيد، يربو عن الأربعين عاما. كانت عيناه مشدودة الجوانب، كعيني جرو حديث الولادة. لم يراودني شك أنه يدخن الحشيش، رسخ قناعتي التفاتاته المستمرة. تسربلنا بالسكوت. قدمت علوية بالمائدة. عرفتنا ببعض، لم يتفوه

قط، صار يتناول الطعام بنهم مخيف، رغم إتكاته المائلة، طرفه لا يرف. استنتجت قذارة الجانب الآخر من الحرب. ناورت بالسؤال عن حاله، لم يجب استفسرته عن الروح المعنوية للمقاتلين بمناطق العمليات، حدق فيّ بذهول فظيع. ماتت هواية الثرثرة. لكن حملقته الشاذة، انعشت موهبتي الفذة، لأبتكر الأحاييل لكشف الثغرات. فقلت عرضا، ألم يحاربن معكم المجاهدات ندت عنه صرخة جنونية أرعبتني. صار يأتي بتشنجات عجيبة، وصياح عالي عجل بحضور أسرته هلوعين. كان حب تعذيب ذاته بلطم وجهه وصدره بعنف لا يطاق. حاولوا إيقافه بقوة. شعرت بفداحة ما اقترفت. استأذنت بغية الفرار من مأساة لا تحتمل. شرعت مارقا، تفاديا لعاصفة الاستياء التي تعصف بعلي.

فقالت "علوية" بلهجة رجاء، شديدة النعومة.

– لو سمحت لحظة. أنتظرني

وهرولت للداخل.

تودتدت بمكاني كالعود المدفون.

كانت أخيلتي تلملم، أشلاء الحقيقة المرة، أن علي لم يصب في جبهة القتال، بل في معركة الطبيعة السلمية. نفخت أنّه موجعة جالت وسط ضلوعي. مستنكرا بها زواج الحكومة الجماعي، مسحوق تجميل الوجه. داهمتني كآبة غاشمة، أعتطني الإحساس بالاحباط المدمر، انطفأت ومضة حلم المستقبل. سارت علوية بجانبي. عرجت للدرب

المؤدي للمعهد، جرتني من كم قميصي وقالت برجاء أذهلني. تعال نغشى خالة درية أسلمها صرفة الصندوق.

أطعت أمرها بسذاجة. دلفنا يمينا لزقاق ملتوي تراصت به أكوام زبالة مبلولة، تجاوزنا مساكن خربة هدمتها السيول. أبطأت علوية في مشيتها، اتجهت لباب قصير صدئي طرقته. بحذر، مارست تلفتات استكشافية، لم أبالي، كان عقلي يتصفح فصول رواية كيف يكون الغد مشرقاً. أصدر الباب صرير ضعيف رمقتني مستجدية مع إشارة خاطفة تدعوني للدخول. قادتني فتاة الاستقبال، لغرفة منعزلة فاخرة الأثاث، لو قورنت بأثاث حجر هذه الأحياء الفقيرة. هزمت وحشة خلوتي، بالمعاينة للأشياء الباهظة الثمن. كنت موليا ظهري للباب المشرع باطمئنان، بيد أن وصده المفاجئ فوقني. استدرت للخلف. كانت علوية تنضو ثوبها بعجالة يرادفها تميع، عرفت منه أن الدار وكر للدعارة السرية، تعاقبت فكري فكرة تلو فكرة، رجحت اللجوء للمخادعة. اقبلت علوية تهزئ كالمخبولة.

تعال ألمسني، أنزع فستاني

ارتبكت أوصالي لهول المشهد. تعرت من تلقاء نفسها. أخرجت من حقيبتها قنبلة يدوية. انتهرتني أخلع ملابسك وإلا انفجرنا، أنا متأكدة إنك تحب تهيجني بالعهد، أخلع ملابسك أذعنت لمشيئتها وقد بلغ زعري شأوًا عظيماً، أنساني اسلوب المراوغة للأمساك بالقنبلة. تقدمت وفي عينيها جنون عنفوان الشهوة. مستني فانتصب ماردي كجندي لبس خوذة الحرب. صفرت للعملاق، رمت بنفسها بين أحضاني خائرة

القوى، نسيت جريمة الانتحار، ناولتني القنبلة عن طواعية، قبلتها فبدت لينة الأعطاف، ميدتها فتجاوبت مع هصري بالأنين. طرحتها فوق المخدع، كان اهتمامها فض بكارتها، زادت قسوتي، سمت هي إلى قمة الإشراق. ضغط عليها أظهرت تماسكا لا ينفل، يهون آلام المعاشرة. تذرعت بصبر خارق ليتم الإيلاج. كان ختانها الفرعوني القديم، سداً منيعهاً صدّ غزوات فحولتي. خسرت المعركة لكني هدهدتها بأوهام أغرقت وعيها. بارحت صدرها قبل أن تفيق. سرت على أمشاطي وانسللت كاللص. كانت ذرا غروري عالية، لتساقط النساء عليّ، افتتانا بآلتي التي لا يأتي بعدها ظمأ. طويت المسافة مختالا، باعتباري الرجل الأول المجبر للمضاجعة بالقنبلة، وشارفت المعهد فأبطأت سيري، لالتقط انفاساً تعينني لاختراع كذبة للزملاء، كان جسمي ما زال يعاني ألم شراسة المصارعة. ولجت وقد أضمرت الخروج. كانت "سحر" بالفناء تروح وتجئ، قاطعة مسافة قصيرة لا تحتاج لحركة دؤوبة، مضللة القادمين بخديعة حفظ القصائد. وقع بصرها عليّ فجاءت مهرولة. وقفت قدامي تلهث، حدقت فيها جيداً، أدركت مغذاي فقالت.

انتظر لحظة أخذ نفس. سكت ساكنا راجيا ما تبوح به.

بللت فمها باللعاب، تمايست طرباً لإضافة التشويق للأخبار. مللت سذاجتها البدائية، عليت صوتي.

تكلمي وإلا ..

- حاضر حاضر

قرعت أسنانها، كأنها تود رمي الكلام دفعة واحدة. اشتطت غضبا لمماطلتها، فقلت بعصبية.

يا بنت ما عندي وقت أضيعه

- سمح.

خفضت رأسها وإبتدرت الحديث همساً.

فزت لك بموعد يوم الجمعة من الانقلاب في البيت بالخرطوم.

وجمت لذكرها الانقلاب، فقد نسيتها تماما لمستجدات طرأت على حياتي الشخصية، أقصتني عن التفكير في قراءتها. غزت الأخيلة مهجتي منظمة تنظيماً دقيق التواتر، فبدأت خواطري تنسج الأطياف.

obeikandl.com

٩

فركت الانقلاب عينيها ابتغاء، تخفيف سخونة الغاز المسيل للدموع، ووعد ما زال ذهنها ينقب مجريات الأحداث. كان نبأ المظاهرات تفشى بالأحياء السكنية. الأطفال لهم هواية السؤال عنها للسابلة. كانت الانقلاب تعاني ضيق تنفس وصداع، يحاصرها بضغط نفسي سيئ، ودعت وعد عند مفترق الطرق، وداعاً بيّن صدق مشاعرها الإنسانية. استغلت مركبة عامة. عقلها يكاد ينفجر. بذلت جهداً مقدراً من الانتباه، حتى لا تتعدى المحطة. نزلت بالمكان المحدد. سارت برؤية ضبابية، أسهم فيها الغبار وآثار الغاز المسيل للدموع. اتكأت بقائم الباب تقاوم دوخة. قرعته بسبابتها الواهنة. كانت الرعشة المؤقتة تداهم مفاصلها. هنيهة ثم تختفي. عاودت الكره بشدة،مقاومة بوادر انهيار. ابتدرت هدى حديثها بطريقة جافة، جارت بها القرع المزعج.

- حاضر حاضر.

استعدت للزجر، مفترضة طرق جامع النفايات. ملأت رئتيها لزعقة النهر، حبست أنفاسها، لما شاهدت الفتاة بتلك الحالة الرديئة. سكت غضبها. فأنكبت نحوها، ماتت كلماتها، فلم تجد حرجاً في تأبط ذراع الانقلاب. استدرجتها للغرفة بمشقة. راقت أنفاس الفتاة عند الاستلقاء، وهدى منتصبة تحولق، بجنون صوب

الجسد المسجي الذي دبت فيه الحياة. ركضت مسرعة وأتت بالماء. كان حلق غريمتها يسمع به الكرع. قعدت بجزء من عجيزتها على حافة السرير، تحسست جبهتها، فبدت لها الحرارة طبيعية. فركت يديها تأهبا للحديث، سوت خصلات تطفلت على جبينها، ثم قالت بحب استطلاع ماكر.

– مالك يا بنت، مالك يا بنت.

لم تملك الانقلاب سوى البكاء والهزئ، شيء فظيع، فظيع.

إزور حاجب هدى لهواجس ظنون، وجدت مخيلتها خصبة. ان الفتاة سقطت في الرذيلة. جالت بخلدها، حكاية سلمى بنت النجار، التي أعيدت بعد زواجها باسبوع. فقد وجدها العريس مفتوحة.

طلقها وطالب بتعويض خسارته. ابوها مات متأثراً بالصدمة، وأمها بلعت لسانها السليط ورحلت من الحي. أخوها الكبير قالوا عرف مكان رحلوا هددها تقر بفاعل الفعلة قتلها قتلة شنيعة قالت جارتها النحيفة نسوان آخر الزمن فردت أمها مالهن النسوان، أنا ما شايفة فيهن عيب المشكلة في الرجال اكلوهن السحت لازمن يخدمن خدمتهن الفارغة، والله لوالواحدة لقمتها نظيفة محل تمشي قبلها يحدثها لكن أبوها غشاش لم يصنع الأساس الجيد. تذكرت احتلامها الأول، نهضت مذعورة فقد خيل لها أنها فتحت، تحسست فرجها بإصبعها الأوسط، فألفته كمركب الورق التي تلعب بها في براك الخريف، وجدت غشاء البكارة سليماً. ضمت فخذيها

مع شهقة لذة. من يومها صارت تتحاشى الرجال، حفاظاً على عذريتها، مستعيضة بالاحتلام فقط لإشباع شهوتها، تذكرت ليلة زواجها. آلام الأيام الأولى، قبل فض بكارتها، لقد صرخت صرخة إيلاج العظمى، التي اوصلتها درجة الغيبوبة. سرت دواخلها نوعاً ما، لكسر شوكة غطرسة الفتاة. ارتاحت نفسياً لعبارة الجمال مسحور. تبسمت في خبث شامت، لتحطيم كبرياء الانقلاب المزيف، الذي سبب لها إحباط مدمر، نخر أعصابها. أخذت الفكر تتري واحدة تلو أخرى، تمحصها ثم ترميها وراء ظهرها، ما عدا خطة الشيطان زينت لها إمكانية، ترميم شرف الفتاة بواسطة قابلة يدفع لها بسخاء، وهي كفيلة بالسداد، وقد عرفت فيما بعد كثيرات، تجاوزن المحنة بالدفع، والأسرار محفوظة، ففتيات الخرطوم يجرين العملية بأم درمان والعكس، فالقابلة لا يهمها من أين أتت، أوما أسمها، إنما العطاء المغدق. اعترض خيالها طيف الحمل، إذ ربما هي حبلى من الممارسة. تضاحكت بدهاء لإجابة عقلها السريع.

أليس لديك حبوب منع الحمل.

لوت فمها ثم خاطبت نفسها السعيدة.

- حقيقة كل مشكلة ولها حل.

قطع رنين جرس الباب، استرسال تصوراتها العبقرية، نظرت لساعة الحائط، عرفت زمن عودة الطفلة، هرعت تستلمها من معلمة الروضة عند المدخل. لم تستطع الطفلة سارة التحكم في ضبط

البول، فانداح يبلل ملابسها، فقدت هدى صبرها، فأنهالت تلطمها حتى لا تكرر فعلتها الشنيعة، وهي تتكلم من وراء أسنانها.

أسكتي والله لو ما سكت، اقطع لحمك، أنا ناقصة هم.

صمتت الطفلة خشية مواصلة الضرب، مسحت دمعها بظهر كفها، وصدرها ما زالت تداهمه نشجات. بدلت هدى الملابس بالغرفة، طرحتها على السرير نهرتها أرقدي.

خطر ببالها وهي تهدهد سارة، أمر في غاية الخطورة، إذ كان ينبغي توصية الفتاة، للتحلي بالشجاعة، حتى تبعد شك خالها. هرولت لتقول النصيحة بهتت بالبهو، لمصادفتها إسماعيل.

تلجلجت وجلة، رسمت ابتسامة تمويه.

قالت مدعية الجزع.

- هجمتني يا أبو سارة.

ضرب صفحاً مما قالت وداهمها مستفسراً.

الانقلاب جاءت؟

سكتت ثواني، تبحث إجابة خالية من الانزعاج والتردد، نطقت بعد استيفاء شروط الرد المقنع.

جاءت منهارة وما بتتكلم، أنا ظني يمكن شافت حادث مروع، وهي نائمة بالغرفة. شخص إسماعيل الفتاة عن كثب، لمس جبينها يستقرئ بحاسته، درجة حرارة جسمها. باعدت أهدابها، رأته يرنو

ليها، نسجت على ثناياها افترارة ضئيلة، تنبئ ببداية تخطي الأزمة سألها.

حالك كيف، محتاجة طبيب.

نفت بهزة تلقائية.

تنفست هدى بهدوء، لعدم موافقة الانقلاب استشارة الطبيب، أسرت لذاتها بلباقة، يا الله ذكية في إخفاء الشرور. نظرت إليها بمكر واضمرت، مكاشفتها غداً مما استنتجته من الوهلة الأولى. سقطة طيشها، وإنها قادرة لتغطية الفضيحة بإعادتها للعذرية وصور خيالها هيئة إنكسار الفتاة، وإنصياعها للأوامر بيسر، تسرب لحلقها طعم النصر العزيز، تاهت في تذوق حلاوته ردحاً. ما لبث أن تحول لغصة، بعد سؤال إسماعيل الانقلاب، عن أعمال العنف والشغب بالجامعة. غطت الانقلاب وجهها بكفيها، حاجبة عقلها وعينيها رؤية المشاهد الدموية، حركت رأسها يميناً وشمالا ثم نطقت.

- فظيعة، فظيعة.

بلعت هدى غصة الأوهام، ففرت فاها توطئة لتمكين هواية حب الاستطلاع. إتخذت مكاناً يتيح فرصة واسعة، لابتكار أسئلة التطفل.

فقالت بعد وجومها الأحمق.

يا إسماعيل ماتوا فيه طلبة.

الإشاعة المروجة القتلى عشرة، الجرحى لم يحصروا. البنات

المغمى عليهن عددهن غير معلوم، لكن في اعتقادي يربو عن الالفين.

لا حول ولا قوة إلا بالله.

تفوهت بها هدى وانداحت تثرثر.

تعرف المصائب كلها من تحت رأس السياسيين، ما علموا النشء أدب الحوار، وموضوعية المناقشة، ليكونوا دائما في القمة رغم فسادهم الروحي. الديمقراطية لو وصلتهم للحكم، هي جوهرة التجربة الإنسانية، وإذا أقصتهم، هي نتاج غربي لا يصلح للدول الفقيرة. فيسعوا لتقويضها بحجة الدكتاتورية المستنيرة، أفضل الأنظمة لإدارة الدول النامية.

مع سن قوانين الصالح العام والتعسف، حاولت الانقلاب استرضاء النعاس بأطباق جفنيها. كانت مؤخرة عقلها تجفله، باستدعاء صور الأحداث متتالية، تشنجت لمنظر قسوة الطعن، وعبس مقاومة ألمه، وهياج رد الاعتداء بطعن، أكثر شراسة انتقامية. انكفاءت على بطنها فراراً من طيف النزف. احدثت الاستدارة انقلابا في مضمون افكارها، ما كان يمكن انبثاقها ابدا لولا الوضع المغاير لخلايا المخ. تجلى لها الاختلاف الشاسع، بينما تعلمته من أمور دينها على يد والدها الشيخ عبد الرحيم، وما رأته اليوم بالجامعة. فما تدعيه التنظيمات الإسلامية، لا يمت للإسلام بصلة، بل استعارة الاسم، لإخفاء الفجور السافر وسفك الدماء باسم الدين، وقهر الخصوم

بالتشريد. طارد مهجتها ماضيها وهي رائحة غادية تخدم الضيوف، الجنوبيون يجلسون القرفصاء، لمحاسبة والدها في حصة محصول الفول.

هللوا لنصيبهم الوافر

قال مفوضهم بأسلوب ملحون.

نحن يا أبونا الشيخ كنا نكدم من سنين، ما لقينا فائدة إلا عندك، ربنا لو مد في الامر نجئ نكدم ثاني. رطن للنسو بلهجته المحلية القديمة.

أطلقن زغاريد مجلجلة، ثم لاعبن طفلة بأغنية عجمية

يا قشامبم شيتيت مريال أبوك ما بشان شمل، يا جنوقا شيتيت جمال الواي دينق.

لم تدر معنى القصيدة. غنتها بطرب، رقصت غير آبهة، لزوار توافدوا لمعرفة سبب الزغاريد. تبينو مغزها.

فقالوا سوياً بتهكم

- إنت يا الشيخ بتسوي بدعاً تطلع العبيد فوقنا.

تضاحك لجهلهم ثم تلى...

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾

خفضوا رؤوسهم، فاستطرد علمني علماء الأزهر الشريف، والمشايخ الثقاة أن الإسلام دين رحمة لقول الله تعالى لنبيه **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾** تفرس وجوههم ثم أردف.

تعالوا أقرأ لكم ما تيسر من القرآن.

تلا، **﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾**.

امتصت الترنيمة إرهاق الصدمة، هبت واقفة، نوت التلاوة، اقتحمت هدى خلوتها وسبقتها للكلام.

الغدا جاهز.

لبت الانقلاب حديث هدى، فقد كانت معدتها خاوية. شرعت تسكت تقلصات الجوع. كانت حاسة ذوقها، متدنية لا تشجع المضغ. هدى وإسماعيل يسرقان التحملق ولكليهما رؤيا مختلفة. حددتها رواسب العقل الباطني. أما هدى فما زالت كئيبة للظنون السيئة. كان هم الانقلاب بعد الأكل الصلاة وأوراد الاستقامة. آبت للفراش، تمددت وعقلها فارغ من الأفكار المؤرقة.

شدت الأخبار المصورة انتباه إسماعيل. فقد عرضت المأساة الإنسانية البشعة، في الشرق الأوسط، أدغال إفريقيا، الصومال، البلقان، أطفال من جميع الجنسيات بداية بالبيض وانتهاء بالسود. تفتحت عيونهم على عالم سادي يستمتع بالمعاناة، بإشعال الحروب. خالجت خاطرة كسفير سابق، محاولاته المستميتة لتقريب الشقة بين الدول الغنية والفقيرة، في حين السياسيين يخادعون بتلاقح

صراع الحضارات. أزال دمعة أصابت بصره بغشاوة. حدق بالمذيع وهو يقرأ النبأ، نسبة لأعمال العنف التي لا تشبه سلوكنا، وأخلاقنا الفاضلة قرر مدير جامعة القاهرة فرع الخرطوم، إيقاف الدراسة لحين إشعار آخر، بهت للنبأ المبتور، إذ أغفل عدد القتلى والجرحى، والدوافع الخفية للعنف. خامرت عقله الإطمئنان على الفتاة، وبالمرة يخبرها بوقف الدراسة. انتعل حذاءه، سلك سبيله. كان النور يبرق فوق فخذيها العاريين، سترهما ثم آب لغرفة نومه. كان الدخان بالبهو كثيفاً، هيج حساسية عينيه فادمعتا، لكن رائحته المميزة، عبت شهوته للممارسة الوطئ. كانت هدى قابعة بفوهة حفرة الدخان، ملتفة بغطاء صوفي، تنفذ خلاله خيط دخان حامي خانقة. محتملاه ابتغاء نعومة البشرة، ومطارحة تمتد حتى إيلاج الفجر. تمخطت ميسرة التنفس للبقاء، دقائق تطمح فيها لذروة الكمال. قامت تتهاوي وقد وصلت قمة التهيؤ. تجاوبت مع زوجها تجاوباً نالت به غاية المراد. تمطى زوجها إسماعيل نافضا تعب محاككة الليل. تطهر، انتعشت مسامات جلده لاستقبال الصباح. صلى . تأنق كما يجب، عرج يتفقد الانقلاب، اختلس الوقع محبذاً ارتعاشة المباغتة. لين صوته.

- صباح الخير.

غشيت الانقلاب رعدة، جمدت يدها عن ضفر خصلاتها. تدثرت بالوسادة اجتاحته ضحكة منخفضة، ولدت الكلام.

عندي لك خبر جديد.

استأنف قبل سؤالها.

مدير الجامعة أوقف الدراسة. عموماً ما فارقه معك المكتبة في البيت. عندك اي طلب. نفت بلحظها. أجلت الخروج من الانطواء الى انقطاع وشوشة حذائه. لفت شعرها عقيرة واحدة يممت وجهها للمكتبة. انتقت كتاب علم النفس التحليلي، يحدوها تشوق لسبر أغوار النفس البشرية المعقدة. فكت طلاسم نوت تطبيقها، واستخلاص نتائجها من نفسية هدى. كانت أول التجارب ساعة تناول الطعام. كانتا متقابلتين، تسود كلاهما الريبة.

استشفت عبر تلصصها اضطراب هدى الطفيف، فسرته ظن سوء مجافياً للحقيقة. ما استطاعت طمسه بالأطراق، عزمت الانقلاب بعد سرقها اللحظ، تحليل نفسية هدى بالمعايير المناسبة. خلصت إنها طيبة نوعاً ما، ذوقها رفيع، خفة ظلها تتعدى أحيانا حدود اللباقة. تنفعل بسرعة لدرجة، التهور. يخمد فورانها بعد تنازلي مفاجئ. غيورة، يستهويها حب التملك. لها حساسية مفرطة ضد جمال النساء، خباثتها متوسطة، قابلة للزيادة، تستشيط غضباً عند ذكر الضرات. أجمل خصالها مضيافة، تقدس النظافة لدرجة تفوق المألوف. إنشرح صدر الفتاة، للتحليل الموضوعي لشخصية هدى وقدرتها الاستقرائية في تقدير استنتاجات نموذجية، مجردة من الأهواء. أدركت بعد انتهاء التشخيص، أنها تمتلك حدسا راقيا تستطيع به جس الخبايا خلال تأملات تعابير الوجهة وحركة الأطراف، زائداً نطق الحروف. صنعت بسمة وردية لما حققته بالإطلاع الوجيز. انتصبت لفكرة مهمازه،

هي دفقة شغف لقراءة الأدب الوجداني. طوت مسافة غرفة المكتبة. بعثرت تعاضد الكتب، جعلت الغالبية تركن لليمين، باشرت التنقيب بالرف الأول، ثم الثاني، لم ترض ذوقها عناوينهما. انتقلت لثالث، لفت انتباهها مجلد لامع الحروف قرأتها بالنظر، طاغور شاعر الهند العظيم. سحبته لم تقطع وشيجة ملامسة الكتب.

كانت صورة طاغور بلحيته الكثيفة، تعطي انطباعاً تفاؤليا. في عينيه بصيص نور يصنع للأجيال المستقبل، إنه طاقة لا يتبدد توهجها، ثرة تجسد الحرية في أسمى مراميها. أنجرفت مع فيض الشعر. كانت القصائد دافئة الألفاظ عظيمة الجرس، ألحانها نابعة من صميم الأرض. سبحت بكل حواسها، اصغت لموسيقى الأبيات الشعرية، الملهمة من عبقرية مرهفة عشقت إنسانية الإنسان. أبدى إسماعيل ضوضاء تنبئ بقدومه، لم توليه الانقلاب أدنى اهتمام. ظلت منهكة تنهل السطور الساحرة المقاطع. يجرها مقطع لمطلع مستدرجاً إياها الى طرب مجنح.

فقال إسماعيل عبارة حاسمة تردها للواقع.

- يا بنت تعالي الشاي، وقت المعهد قرب.

كان طرفها مثبت تجاه الكلمات الخلابة ما كان بوسعها النظر إليه. فتولى لسانها احترام وجوده فأجاب.

- حاضر حاضر.

اقتفت أثر أقدامه بعدما تحشمت. لأجل وقار خاص تود انتزاعه

منه، وكذلك تقدير تفرضه على هدى. كان الغضب يمور في أحشاء هدى، وهي جالسة قبالتها ترشف الشاي، بأدب جم يتأبط كبرياء حقيقي. ساررت خلجاتها بامتعاض.

بماذا تفوق هذه المتعجرفة نساء الدنيا. إذا كانت معتدة بجمالها، فهي مغشوشة حواء والده. نفخت أف مسموعة. نقل إسماعيل ناظريه، تبين الصراع الخفي، تبسم بخبث، طفرت لذهنه عبارة إن كيدهن عظيم. دارت برأسه أمور كثيرة، رتبها حسب الأولوية. إرتدى ملابسه الأنيقة، نثر عطرا عبقا يلائم مكانته الاجتماعية المرموقة، بصفته سفير سابق. إنسل خارجاً يحث الفتاة كسبا للوقت، قابلته الانقلاب بتأنق بسيط فيه رونق جميل. مازحها بغمزة نزلت على هدى كلسان لهب النار امتصت الإهانة ببرود خرافي، مؤملة به قهر شعور الدونية، الذي يتغشاها كلما أجرت المقارنة. عضت بنانها بحرقة، ومزلاج الباب ارتد لوصده استقرت الانقلاب بالمعقد، أفكار جديدة تتناوشها، غنية بمصطلحات علم النفس الرادعة لتهافت الرجال. كان همها تحجيم مدير المعهد ومن ثم بقية الزملاء، فهي ليست للمتعة فقط، بل إنسانة صنواً للرجل، لها صفات إنسانية ترفض حب التملك وأغلال العبودية. نزلت قدمها اليمنى، مّرقت قوامها الفارع. هذبت أطراف ثوبها المتفسخة استجابة لرغبة إعصار. أحكمت طياته فاعتصم بالهيبة. ترجلت. كان عقلها في تلك المسافة القصيرة، بخر جميع أفكارها المنسوجة لإفساد حيل الرجال، حيال الاستئثار بذاتها. زجت بنفسها المرعوبة خلف خالها لمكتب المدير. كانت

تحس بدواخلها خالية من أسلحة الدفاع. شاهدت زلزلة جوانحه إبان الترحيب. تخوفت من انتقال عدوى الرجفة عبر المصافحة. ترددت في مد يدها، لكن يده الممدودة فرضت مجاراته. يئست من تحقيق الغلبة بكفها. لسانها تفوه، السلام عليك يا خال مرجحا ميزان القوى لصالحها. شدت يده بقوة عصفت بأحلامه للعدم، فاكتسب وقاراً مفروضاً، تسلق به درج المصعد. لم ينهه عن هواية الثرثرة، كان استقبال الخبير عادي رغم إطناب المدير بأهمية الزوار. شعرت بيده مومیائية وهي ممسكة براحتها. رمقته فوجدته جامد القسمات. تهللت نفسها للظفر بأحاسيس ميتة، عند التعامل أو الملامسة أثناء الدرس. رامت الرفاق بطواف شمل الخبايا. جلست أمام الجهاز، لم تلق بالا للوسوسة. إنشغلت بتحقيق طموحاتها. كانت قدرة استيعابها عالية حضت الخبير، بمدها، بمعلومات إضافية تواكب ذكاءها المتقد، هبط للطابق الأسفل. انتهز زميل فرصة غيابه، دنى يبث لواعج هيامه الملتهب منذ اللقاء السابق. عرض عليها الزواج، وأئداً به سنين طيشه. أسر لها أنها تستحق الرفاهية التي ينشدها مع زوجة مثلها. عدد ثروة والده الفاحشة. ذكر المصانع، العقارات، أرصدة البنوك، مزارع الدواجن. أصغت ببرود أسطوري. في حين طالبات المعهد يأكل أفئدتهن حسد شيطاني، لفوز المتخلفة بالنعيم المطلق.

كان خاطبها يحلم بسقوط الفتاة في حبائل الترف الخيالي. قدر صدودها بتمنع زائف، قصد به التغرير بعواطفه المشبوبة. سرقت لمحة عجلى كشحت، لاكتشافها لمعة خده الربوية. هبطت متأففة من

ضحالة مستواه. آب لرفاقه مذهواً بالنصر.

قدم مدير المعهد صدقة شفتيه، ثم استطرد ملهوفاً.

- تفضلي تفضلي، أكرم مسواك ردت برقة.

شكرا خالي منتظرني في الطريق.

انساق يتبع خطاها أداء للواجب لوح لإسماعيل وقفل.

بادلت خالها الود، فقال محبوراً

- كيف الدراسة.

عركت أنفها.

- حقيقة شيء عصري وشيقة.

ران صمت بليغ، أذعنا فيه للنغم الموسيقي الطروب. تمايلا كل على حده،بدرجات متفاوتة، تطّرد مع تنوع اللحن المرتبط بذكريات الماضي. كانت هدى بالمطبخ تتلهى بغسل الأطباق، وبدماغها عشعشت حكايات نسجتها ليوم غد فتل خيوطها الضوء الخافت، ترأت لناظريها دعابات المخرج جلال، ثورة زوجته الغيورة، إنطواء زوجة الشاعر من حديثه المتفلت، في حين هي تجنح للمزاح، مدعية السيطرة والتمكين. شرد دخولهما تهيؤات الأطياف كانت سارة مرحة لدعابات الهمز.

تختبئ تارة بكتف الانقلاب، وأخرى تساجل بها إسماعيل بتكشيرة.

صرت هدى وجهها لعبث اللعب.

فقال إسماعيل محاولاً طمس الآثار.

- قولي طلباتك الناقصة.

زمجرت.

- الله يصبحنا بخير.

- آمين.

انقلبت حده طبعها للين.

طيب هات ورقة وقلم إنت دائما نساي.

لوى عنقه مستصغراً تصرفاتها، شاطرتة الانقلاب الهزئ من وراء ظهرها كأنها تلاطف الطفلة. خاطبتها بأسلوب رجاء، جست به ردود افعال هدى.

أنزلي يا حبيبتي خليني أساعد أمك.

فقالت هدى معترضة.

لا لا سوقيها معاك الغرفة.

هدهدت الانقلاب الطفلة بترانيم غنائية تأتي بالنعاس، انطرحت جوارها. كان عقلها خاليا من الأفكار المقلقة للمضجع. لم تراودها نية تبديل الملابس، بل تواقة لاتكاء، تزيل وجع عضلات قدميها، التي ما برحت تتكمش وتنفرد لطرد الفتور. كانت لذة ألم المفاصل،

استقطبت الوسن من أوكاره غير المنظورة.

غطت في نومة عميقة. حلمت بأشياء تافهة مسح بلاط، غسيل أطباق إزالة غبار المناضد. صحت لنداء خالها الجهور.

يا بنت قومي كفاك رقاد، الشمس شرقت.

تمطت وهي متأثرة بحالة اللانوم العذبة التخدير. لمس كتفها، تثابت . فقال.

- صباح الخير.

فردت بأدب رفيع.

- صباح الخير يا خال.

- صباح النور يا نوم الضحى، أنت ناسية اليوم عندنا ضيوف.

سترت عورتها من تحت الغطاء، قامت وهي ما زالت ترزح تحت قيد الكسل. كانت هدى نشيطة يحفزها للعمل، عشقها ثرثرة أصدقاءها. انخرطت معها في تجهيز الأصناف كانتا ممسكتان عن الكلام، حتى الذي يبدر لتجويد الطهي. غابت هدى لوقت قصير، اطلت بعده في أناقة تامة، لم تستشرها لإبداء رأيها كعادة النساء، لقناعتها بتدني ذوق الفتاة، إذا قيس بذوقها الرفيع. امتنعت الانقلاب عن الإطراء، لكنها أشادت في سرها بروعة الفستان. راودتها رغبة ارتداء ملابس، تليق باستقبال الضيوف. انتقت فستان رخيص صارخ البهاء. عاينت إليه في المرآة ثم خرجت. كان البهو يعج بالضيوف.

الأطفال يتطاردون وراء سارة. خالها يعانق جلال بمودة، الشاعر ينتظر دوره للملاقاة. هدى تسالم زوجة جلال باحتضان مرائي. فقد كانتا تتنافسان بإدعاء زائف، السلوك الحضاري الذي لابد ان تمشي على منواله، زوجة الشاعر الأقل مرتبة. فكلتاهما تدعي مثل أعلى يحتزا به. سالمت الانقلاب، الشاعر السر فوجدته يحذر المواجهة. صافحت زوجته، فألفتها عفوية المسكنة. انعطفت ترحب بزوجة جلال. كلف الشاعر السر نفسه بمهمة التعارف، فقال بحسن نية.

ندى زوجة جلال.

أطرق، ثم أكمل الانقلاب بنت أخت إسماعيل.

تقلص وجه ندى. إذ تبادر لذهنها في لمحة، أحداث الليلة المشهودة، لم تأخذ هذيان جلال مأخذ الجد، لكن الآن شمت رائحة الخيانة. مدت يدها بعجرفة صامتة، تجاهلتها الانقلاب، زادت شكوكها لتهافت زوجها للقاء الفتاة. رشقته بنظرة وعيد. أدرك منها شراسة الشجار المرتقب. كشح عنها مبيتا نية زيادة الطين بلة. نفذ بجلده لحجرة الضيافة، ودماغه تمحص أفكار زواجه الثاني. تأكدت ندى بعد هروبه، فداحة الوهم الذي عاشته، غلت الثورة بعروقها، جلست متكورة، ردفت ساق بساق، رنت للأشياء ببصر زائغ شديد الانفعال. ران سكون، حاولت هدى كسره بمزحة لطيفة عن زوجها. كانت خفة ظلها ضرب عبث لا طائل منه. فالوجوم مستمراً. أدركت بفراستها خطورة الموقف، فندى الثرثارة تلتزم السكوت، أمر لا يصدق. فانتهجت خبائة التلصص. كانت ندى تحدج الانقلاب

بطرف دامع، لاذت الفتاة عنه بالتطلع للسقف، مؤمنة أن ما يعتمل بصدر ندى وهم صوره خيالها. فقد عرفت بقريحة النساء، غيرة ندى على زوجها. غادرت مجلس النساء للمطبخ، عادت بمائدة الطعام واعتصمت بالصمت. تبآطأت ندى في الأكل رغم تشجيع هدى، التي كانت مغتبطة لما آلت إليه ندى. تفرست في وجه زوجة الشاعر، لمعرفة تأثير وقع الأحداث على قسماتها. كانت صفحة وجهها خالية من تعبير يستشف تأوليه، سوى السذاجة التي تجعلها دائما تابعة، لوت فمها بسرعة ماكرة، للتفوق الذي حظيت به. مضغت الانقلاب لقم معدودة صعبة البلع، وانسحبت لغرفة المكتبة، فارة من نظرات الريبة. رجح احتمال غيرة ندى لدى هدى، جوهر المشكلة. معتمدة في تحليلها، التنافر الواضح بين ندى والانقلاب، المحتكرة جاذبية مغرية للرجال.

لم يخطف جلال قطع الشواء كعادته، بل صار يمضغ اللحم باحتراس، قاد الشاعر السر للتنندر موجها حديثه لإسماعيل.

- أظن صاحبك أيامه كملت.

رد إسماعيل مبكتا.

- كل شيء إذا فات حده، انقلب الى ضده، وكفاه الله الشر ما زال عياله صغار.

سفه جلال سخرية رفيقيه. فما كان يتبلور بمهجته أكبر بمراحل من سفاسف الأمور. حسم تردد رأيه بعد مكابدة، على طلب يد

الانقلاب، لكن كيفية مصارحة إسماعيل بالخطبة، كانت مصدر مشغولية باله. نقح فكره الاختلاء به. انتقى الكلمات المناسبة، لطرح الموضوع والإجابات المقنعة، للأسئلة الحرجة. سكنت روحه للتنور المنطقي، لحل معضلته وتحقيق هدفه المرجو. حسن أداؤه في تناول الأطعمة، في حين بدا رفيقيه، أقلعتا عن سرعة التجوال بين الأطباق. فطن إسماعيل إلى تغيير ملامح وجهه، التي طوراً تجنح للانكماش، وتارة تركن للانبساط. أبطأ في مغادرة المائدة للإنفراد به. اغتنم سانحة انصراف السر لغسل يديه فقال، معاتبا له.

أنت صرت غريب الأطوار، تكتم أسرارك في قلبك وهذا ما عهدته فيك.

- أف، ليس كل ما يخص يشاع للأصدقاء.

- أكيد استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان.

- إذاً عرفت جوهر الحقيقة.

أي حقيقة.

- احتكار الخصوصية الى وقت ما.

هذه ألغاز يا جلال، أنا أحب الوضوح ولو بقدر يسير يمكنني من المساعدة.

- وفرت عليّ مقدمة طويلة.

- يا أخي خير الكلام ما قل ودل، وأدخلوا البيوت من أبوابها.

– حاضر.

قالها جلال وسكت، يجمع شوارد الألفاظ. واستطرد بعد تمكنه.

– أنت تدري موقفي المالي ممتاز، ومركزي الاجتماعي مرموق، مصادر دخلي متعددة، يعنى بكل المقاييس أمتلك زمام حياة الرفاهية.

– نعم؟

– لكن لماذا التلميح بهذا الكلام.

– لأنني راغب في الزواج. فقد أحل لنا نكاح النساء، مثنى وثلاث ورباع.

– لكن لا تنس يا جلال، فإذا خفتم ألا تعدلوا فواحدة.

– إن توخيت العدل.

– تكون جدير بالزواج.

– هذا الموضوع يتطلب مساعدتك.

– من أي ناحية. إقناع زوجتك مثلاً بالأمر الواقع بعد إتمام المراسيم.

بحلق جلال في أرجاء الغرفة لزمن كافٍ، ثم قال وقد ظهر تحيره.

– أبداً إنما تقنع العروس الجديدة، وكل طلباتها مجابة. مواصلة

الدراسة بالجامعة موافق.

بهت إسماعيل لحديث رفيقه المشّفر، ذو التأويل المتباين.

قطع جلال استغراقه ببتر حيرته النامية قائلاً.

بصراحة أنا طالب يد الآنسة الانقلاب، شاورها في الأمر وغداً انتظر ردك النهائي.

أجل مجئ السر، تواصل طرح المسألة. فضل كلاهما الإنزواء داخل قوقعة نفسه. كانت أراء إسماعيل المكبوتة، تميل لتفاسير كثيرة، معتدلة ومتطرفة. إذ تناوشته خصال التقاليد القديمة، وأفكاره العصرية المكتسبة. رجحت موروثاته العتيقة، كفة ميوله الشرقي عندما أبصر ندى مصفرة الوجه، تتقر أسنانها بالفناء، اصطنع المرح لوداع ضيوفه، لم ينس تقبيل الأطفال . فقال جلال محاولاً إشاعة البهجة.

- بعد اسبوعين الدعوة عندي غدا.

أستهل إسماعيل الموافقة بالإيماء، ثم أدبر. فطنت هدى. لظهور بوادر غضبه تلمست خطى أوبته، ممنية نفسها بإهانة قاسية تردع غرور الانقلاب، جاشت بحنايا صدرها غبطة، وهي تنتظر ذلة الفتاة المتكبرة. طفح سرورها لرعدة إسماعيل الأولى، التي أعلن بها بداية الغضب فقال.

قولي لي ما دار بينك وجلال في الأيام الماضية، بالحرف الواحد.

أستشعرت الانقلاب خطورة الأمر. نفرت حاجبيها من شدة الذعر، ثم قالت مبهوتة.

– ما فهمت قصدك يا خال.

لانت حدة طبعه، فكرر السؤال بطريقة مختلفة النبرات.

أنت اتفقت مع جلال على الزواج.

نفت بهزة كالرعشة، ثم أفصحت.

– أنا ما شفته إلا في زيارة السابقة، واليوم هنا في بيتك، ولا أعرف عنه اي حاجة.

طلب مني إستشارتك في قبول الزواج منه، وطلب الرد عليه بكره.

أنا ما عندي رغبة في الزواج الآن، على كائن من كان، أنا همي الجامعة وخلاص.

زمت هدى ثغرها مدارية بتلافيفه خيبة الأمل. امتصت عبارات الانقلاب الشبه بكائية، ضباب ثورة إسماعيل الناشئة. فلم يجد غضاضة في مس شعرها بتلطف. قابلته هي بإطراقة خفر جذابة، أوقدت نار غيرة هدى فعضت بنانها.

ابتدر إسماعيل كلامه برنة حنينة.

ما رأيك الليلة نزور خالتك ميمونة وسحر و....

اعترضت حديثه هدى بانبهار.

فكرة رائعة خالص. أنا نفسي مشتاقة أشوف ميمونة وبنتها.

غيرت دفة كلامها الرقيق للهجة آمرة.

- قومي يا الانقلاب أجهزي محتاجين للوقت.

نفذت الأمر طواعية، بالنهوض عن الكرسي. تميدت هدى توقعاً للمس إسماعيل منكبيها، ومن ثم دفعها لغرفة النوم، لانتقاء ملابس أنيقة تناسب الزيارة مسكت سارة طرف ثوب الانقلاب، مشتطة إياها بصرخات مفتعلة، تود بها الارتقاء لكتف الانقلاب. كان عطر هدى متوائماً، ووقع حذاءها المدبب، وأيضاً حواف ملابسها المتماوجة في زفة ابتهاج لا صنو لها، وهي تحسرها لولوج السيارة. ركنوا للسكوت، وسيارتهم تنطلق شمالاً. كانت سارة مفتونة، بالمناظر المتوارية من خلال النافذة، وهم يصغون لموسيقى هادئة يبثها جهاز التسجيل. ارتعدت الطفلة لزلزلة الجسر الحديدي، ارتدت تحتمي بصدر الفتاة. انتعشت روح الانقلاب لنسمات النيل الرطبة، ودفء زفير الطفلة حولتْ تجاه الجزر المخضرة، والشواطئ المونقة. المزارعون بادواتهم البدائية، يحصدون الخضر، مراكب الصيادين تمخر بمجاديف تحركها سواعد قوية. وأخر رأسية تخضع لقبل أمواج عاتية، تنثر الماء بالأفق. تجاوزوا المعبر. رجعت الطفلة لشقاوتها، مازحت المارة بلسانها، ثم بعبس أبرز أسنانها الصغيرة.

دلفوا للطريق الترابي، جعلت حفرة السيارة تهتز بشدة شتت

الأفكار، وريثما تستقر أمام البوابة. كانت قوة الرج قد ضعضعت المفاصل. إنسلوا متعبين نوعاً ما، سوت الانقلاب ثوبها، الذي افسد عبث الصغيرة تهذيب لفائفه. ولجت قبل هدى. عصرتها ميمونة بنهديها المترهلين، عصرة ولدت عندها الإحساس بالطمأنينة، احتضنت أفراد العائلة، بحرارة شعور الإنتماء، لم تجد حرجاً في الاستكانة للثمات سحر، الملهوفة لثرثرة اللقاء. لفت انتباهها غلاف كتاب متكئ على وسادة السرير، قرأت عنوانه بالنظر، أزهار لم تتفتح بعد. ميلت عجيزتها للجلوس، ساقها حب الاستطلاع لتصفح أوراقه. تلت بعض أبيات القصائد، سحرها جرس النظم. جاءها إحساس قوي باستلافة. عاينت للنجوم بحثاً عن مبرر تناله به، تهومت في رحاب الكون الفسيح. كادت تصل مرحلة التغيب. أوبتها سحر للواقع بعبارة.

تفضلي.

ثم تابعة بثغر مفتر.

ديوان شعر رائع لأستاذ الفيزياء بالمعهد.

أمسكت الانقلاب بالكوب، ثم أجابت.

مما شفته شعرت بموهبة صاحبه، يا ريت تسمحي لي بقراءته، وإنت عارفة الجامعة موقفة الدراسة.

فقالت سحر وهي تتأهب للجلوس جنبها.

أنا شفت على شاشة التلفزيون، بداية الدراسة بجامعة القاهرة

الفرع يوم غد و...

قاطعتها الانقلاب مفزوعة.

- إنت متأكدة، متأكدة.

- طبعاً، احتمال يعرضوه ثاني.

ركزت الانقلاب بصرها على الشاشة، تحسباً لرؤية الخبر يمر سريعاً أسفل الشاشة. جرفتها البحلقة، لتخيلات جميلة صورت الجامعة. غابت وسط دهاليزها المكتظة بالطلاب. تنيأت ظلال أشجارها، مازحت وعد. أبصرت العيون مثبتة فيها، انكمشت لحياء بسط سيطرته، نظرت للأرض. كان عقلها يجتر توقعات اليوم التالي، ظلت منطوية حتى لحظة تأهبها للرجوع.

ناولتها سحر الكتاب، فاستدركت المجاملة.

- لابد أشوفك قريب.

- أكيد بعد يومين، ولو تأخرت الجمعة. أنا في انتظارك.

امتنعت عن الكلام، فتحت باب السيارة وأندست. كانت الأطياف تتنزل بكثرة، يستحيل حصرها، أو استخلاص نتفها المتفائلة، الجديرة بالتأمل. أدمنت الشرود وراء رؤاها لما بلغت مرقدها. دست رأسها تحت الوسادة، توهمت وسوسة الشيطان، استعاذت بالله. صلت والشمس على وشك البزوغ. كان شوق لقاء وعد ينمو. بدلت ملابسها فصار الشوق جارفاً، استغلت السيارة مع خالها. كانت الهدهدة

ممتعة ولدت الحنين، تعجلت الهبوط. سارت بخطوات أشبه بالركض. مدت بطاقتها للحرس الجامعي. لم يجد مفراً من إدعاء التمحيص، للتلذذ برؤية الروعة فرقعت اصابعها، تبديداً للوقت. تلثمت، حتى لا تر فتنتها كاملة. إكتفى الحرس بلحظة معاينة، انعشت روحه. أعطاها البطاقة بأدب، إعتراها إشراق حضها للولوج. كانت الجدران مليئة بملصقات تأخذ النظر. شخصت في الكتابة المنمقة.

ينعي تنظيم شباب الأنصار الشهيد على، الذي قدم روحه فداء لمنبر الحركة الطلابية الحر.

الاتجاه الإسلامي ينعي الشهيد على، بطل إعلاء كلمة الحق والدين.

الجبهة الديمقراطية تنعي الشهيد على، وتشجب أعمال العنف والممتاجرة بالدين.

سدت العبرة حلقها، فلم تواصل القراءة. ترآت لها الأحداث الوحشية، استندت على الحائط تبكي أحلام على المؤودة، التي أوحت بها صورته الشاحبة المتصدرة النعي. عيناه الغائرتان، تنضحان بأسرار تعشم في مستقبل مشرق. نشجت، ثم أزالت بإبهامها دمعًا تحدر. إستأنفت المشي وببصرها غشاوة. بلغت منتدى النشاط الطلابي، إتجهت ناحية مقر رابطة أبناء النهود. عانقتها الجنة عناقاً هزم أطياف المأساة. تأملت زمر الطلاب، من أعلى الى أسفل، ركزت حواسها تجاه حركة أقدامهم. وجدتها تمس الأرض كبذرة نبات

العشر. أصغت، لصوت وطئ الأحذية، لم تسمع ما يؤكد فحولتهم. ردت طرفها للجنس الناعم. إصطدمت بواقع مرير، تحسرت بأنّه ؟، ثم أطرقت صوب قدميها، متحاشية عيون الرفاق المسحورة، في حين أذنيها شبه متفرغتين لالتقاط نتف الحديث الممجوج. أصابتها رعدة، لما ميزت صوت منصور يلقي التحية. تخلصت من انحناءتها، نظرت لوجهه المشبع بالبلاهة. كانت سماته تزلفيه بغيضة، حسرت بصرها نحو يده القذرة الممدودة تأففت نفسها، فأحجمت عن ملامسة كفه. اكتنفها الملل إذ روحها تنفر من أي موضع تراه يحوم حوله. انصرفت عن المقر احتقاراً له، تقبل منصور هانتها بانكسار وخيبة، أوحت للرفاق ابتداع أسلوب التهكم الخفي. مارت دواخله بانفعالات، خطيرة غير منظورة. استنبطتها الجنة بحصافتها، فزادت الطين بلة، دقت يد بيد نكاية فيه، ثم لحقت بالفتاة. كانت نفسية الانقلاب مثبطة لنفور يتولاها كلما صادفت منصور. فقد ترسبت منذ أمد بعيد كراهيته، أوسعت خطاها. متجاهلة عمداً نداء الجنة. عبرت ممر شجيرات الفل. تنفست عطر وردها الأبيض تلطف جوفها المتكدر. تأوهت بصفاء نقي، تزامناً مع رؤيتها دكتور جرجس يناقش طلابه. اتخذت موقعاً يؤهلها لاستيعاب الحوار. أجادت التصنت، فلم تشعر بالربت فوق كتفها. اكتشفت وعد عظمة سهو رفيقتها، باشرت إفاقتها بالقوة. تلفتت الانقلاب منزعجة للألم. بهتت قليلاً لعنصر المباغتة، ظلت عاجزة عن التفوه بحرف، ووعد مسهبة في الكلام والدمع يبلل جيد الانقلاب. جرتها لقاعة المحاضرات. توقفتا بالمدخل مذوهلتان، إطلالة صوره الشهيد الملصقة. تذكرتا مشاهد الكارثة. بتفاصيل

دقيقة بعثت الفزع. جلستا، وما زالتا تتخيلان الأحداث المخيفة. أمتص مجئ دكتور جرجس توجس الانقلاب، فتبدل خوفها الى نهم يلتقف، نظريات علم النفس الملقاة بالمحاضرة. أحاطت الأشياء ببصرها، فادركت قدرتها الفائقة في قراءة طوايا النفوس. تيقنت أثناء جلوسها، أن تهيؤات عقلها الباطن، ليس بمقدور فرد بالقاعة طمس فتى الاحلام. تأبطت حقيبتها بعد المحاضرة، وفي نيتها الرجوع للبيت. كان عقلها فارغاً من أي موضوع، ولو رغبة تطفل، لم تول ركاب الحافة أهمية، وكذلك محصل النقود. نزلت عند العلامة المميزة التي تسترشد بها. مشت كأنها تريد مسابقة الريح.

سحبت سلك مزلاج الباب، المتدلي بالخارج. صر الباب معلناً تراجعه. ولجت، هذبت ثوبها، تقدمت للبهو. كانت هدى متكئة تعالج رسم حناء، بحرص حفاظاً على روعة أشكاله الهندسية المتقنة التفنن. كانت رائحة عطر التخضيب،نفاذة تعوق التنفس الطبيعي.

عطست الانقلاب، سلمت بصوت متقطع. أجابت هدى بلهجة انتفت منها رنة الرقة.

مرحباً.

سفهت الفتاة الأسلوب العدائي، باعتباره نقصان شخصية، وسلكت سبيلها لغرفتها. وضعت الحقيبة على المنضدة الصغيرة. نضت ثوبها بحركة دائرية. كان ديوان شعر أزهار لم تفتح بعد بوسادة المخدع، انكبت عليه محاولة، وأد مشاعر الكآبة بالإطلاع. كانت أبيات الشعر

ساحرة النظم، فجففت ينابيع الضيق، استهوت القراءة. حبست أنفاسها، استجابة لرهبة عنوان قصيدة، نائخ البعير. استوعبت المدلول، بسرعة مذهلة فجرت ذكريات الماضي. كانت الشطرة الأولى بمثابة وميض، فتق في ذهنها أشياء تمثلت أمامها. إنحناءتها وهي منكبة تكنس الفناء. استعداداً لساعة الإفطار، كانت سعيدة لصيامها سبعة عشر يوماً متتالية، رغم عطش زمهرير الصيف، نشطت في غدوها ورواحا، تستجمع أكوام الأوساخ، بهرولة طفولية بريئة.

توقفت عن العمل لنداء أمها. عرجت إليها، تلهت بضفر نهايات شعرها.

منتظرة كلام أمها.

فقالت المرأة الخلاسية وظهرها مواليها.

– أمشي يا بنت لعمتك في البيت، خليها تسوي العصيدة كثيرة، أنا سويت ملاح كفاية وتعالي سريع.

ركضت تجري، فأتت الزقاق الضيق، أنحرفت شمالاً لبلوغ الدار. كان طه ينيخ بعيره الهائج، الرافض للانصياع. كانت حركات الإناخة تتسم بالمعاندة. البعير يهدر بلسانه المنتفخ خارج شدقه. الزبد الأبيض يخضب مشفريه المنفرجتين، تمعنت وجه طه. كانت به صرامة رجولة، تقاوم صلف البعير. فمه المزموم به بياض أثر الصيام. شاربه الأسود، يوائم شد فتحتي أنفه. أطرقت، فإذا بها ترى

قدميه، تتباعدان تبعاً لتغيير البعير جيده. كان المركوب يصر من جراء قوة الوطئ. انكسرت عزيمة الجمل، فخر باركاً. لم يخالجها فزع، لصراع ندية المساجلة.

انتظرت لحظة إذعان فحل الإبل. انتشت لانتصار طه. فصارت تتمايل في سيرها لتبليغ عمتها. قالت الوصية دفعة واحدة لتأخيرها، قفلت راجعة تتبختر. صادفت طه بالفناء، حذاءه ما زال يصر حينما يخطو. عبست مستنكرة مزاحه، أبت مصافحته، نأت عنه بالهرولة، وصلت الدار تلهث. انهمكت تعد المائدة. كان يومها عاديا إلا شيء أحسته في جفلتها، الا هو خفقان لم تدر له أصل. تمددت بعد الإفطار، عرى تيار الهواء ساقيها، غطتهما مرتبكة. رنت إليها امها بطرف حاد ثاقب. تشاغلت بقرع أسنانها، لمت ارادفها فاقشعر جلدها، كررت الحركة فألمت بها انكماشة لذيذة مست لأجلها نهدها الأيسر الكاعب، هبت واقفة، مشت شبه مغمى عليها للسرير، تممدت فيه تثأبت، تمطت مطاوعة خدر النوم. إنكفأت على بطنها. شاهدت طه يدنو منها تقهقرت للوراء، هم باحتوائها نفرت منه وجلة. ناداها.

– تعالي، تعالي.

إشمأزت من شفتيه المبيضة. تحفز للانقضاض. ولت مسرعة للشارع. كان صرير حذاءه يلاحقها، عرجت للزقاق الملتوي، الصوت ما إنفك يطارد أذنيها. يممت وجهها شطر نهر قمرايا الموسمي. توغلت فيه، عاقت رماله المفككة إندفاع جريها. سمعت لهيث أنفاسه، راحت تتعرج للإفلات من قبضته. ترنحت من فرط الإعياء،

صدتها ذراعيه الملتفة عن مواصلة الجري. صرخت للنجدة. كشرت أنيابها للمقاومة. أبدت شراسة عنيفة لفك التطويق. تململت في صدره بجنون خرافي، لم تدر أنه يقود لعنفوان المطارحة. رفضت الانصياع للمضاعة بادئ الأمر، لكن سرعان ما انهارت تحت طرق قبلاته النارية. استلقت فوق رمال النهر، وما زالت بها بقايا عزيمة تعارض بها تقبيل شفتيها، تأففت من لعاب ثغره المبيض. رضخت لحرارة ممارسة الوطئ. صارت أحشاءها تغلى وأعصابها تتشنج، بينما انفاسها تكاد تكون معدومة. إنتزعت لذتها غصباً، صرخت صرخة القذف، تقيأت كما لو كانت تريد لفظ أمعائها.

تنفست تنهيدات، كأنها تعيش تلك اللحظة الحرجة الماضية. نظرت الى أبيات القصيدة. ضمت الكتاب لصدرها تأوهت بإنشراح، ومن ثم تطلعت لخلفية الغلاف تبسمت للصورة وقالت في دعة وحبور.

– لقد كشفت سري يا يوسف.

أسدلت أهدابها عنوة، بقصد تحليل شخصيته نفسياً، ردت طرفها بمسكنة، إتقاء لسحر الشفتين المطبقتين بتلقائية معبرة، لوت فمها للجانب الأيسر، معولة عليه تحريك ركود أفكارها. ازدردت رضابها، فلم تشعر بالكراهية تجاه بلعه، كما كانت تفعل حينما تتذكر او تحتلم. جحظت للسقف تستلهم خواطرها المشتتة. مر طيف زيارة سحر المرتقبة، قطبت لفكرة اللقاء، فهي المرة الأولى التي تراودها رغبة مقابلة الجنس الآخر. تأملت صورتي خاطبتها بهمس خفيف،

سأقرأك بتأني شديد. كانت كلمتي تأني شديد جهوريتين، استطلاع اسماعيل القادم إلتقاطهما، فرد مندهشا.

- أي شيء تحذريه يا بنت.

هلعت لوجوده المفاجئ، تمتمت برهة، ثم أجابت ببديهة حاضرة.

- كنت أفكر بالانضمام لتيار سياسي يخدم مصالح الطلاب.

- أنا رأيي تلتفتي للدراسة فقط، المستقبل دائماً حليف التفوق.

مس رأسها واستطرد.

- فاهمة.

كانت هدى متزينة كما ينبغي لأمرأة غيورة. رمقت الانقلاب بتحديقة مفادها أن زينتها لا تضاهي. كست الانقلاب وجهها ببساطة ساحرة. تجهمت هدى عجباً. شعرت تلك بالفوز فباشرت تناول الطعام، ولم تألو على شيء. كان همها الإختلاء بذاتها. رجعت للفراش بهدوء. رقدت جوار الكتاب تحسسته بأناملها الحريرية. إستعاد ذهنها نظريات وأسس علم النفس. إطمأنت لقدرتها الفذة في التحليل. تخيلت شخصيته. راحت تحصي محاسني وعيوبي لم تهتد للترجيح المطلوب. شخصت للنافذة، ناجت نفسها.

تنقصني فقط محاورتك للفصل في الزواج منك.

تضاحكت بتدلل، لتذكرها صرير الحذاء.

نفخت أف.

تحدثت جهراً.

- يا رب تجئ سحر بكره.

أطبقت أهدابها تحلم.

كان إسماعيل يذرع البهو بغير هدى، ضاربا كفاً بكف، كلم نفسه بأسلوب ضاجر.

والله مصيبة، البلد يحصل فيها حركة انقلابية فاشلة. يعني إعدامات وطوارئ.

انتفضت هدى من مرقدها، وردت بحمية.

- إنت مالك الانقلاب فاشل أو ناجح. انا حمدت الله إننا فضيناها سيرة السياسة ووجع القلب.

انا خايف عمر يكون معهم، الإسلاميون ما عندهم رحمة يعدموهم.

هو ما قال لك عنده مأمورية جبيت.

قال لي لكن إحتمال يكون تمويه منه.

إلا قولي في ناس ماتوا؟

يا هدى تم إعتقالهم قبل تحركهم.

أف، بالله تعال ارقد وما تقدر البلاء قبل وقوعه.

هو أنا يجئ لي نوم ما البلاء وقع وخلاص، قتل، تشريد وضياع لأسر.

اسمع وصيتي ابعد عن الشر وغني له.

إنت همك نفسك وبيتك.

أجابت بأنه:

إستكانت تصغي لنشرة التلفاز. كان قارئ النشرة يتحدث بلهجة صارمة.

لقد تمكنت بعون الله الأجهزة الأمنية من إعتقال الخونة منفذي الإنقلاب الفاشل أعداء الله والوطن والتمكين. الله أكبر ولله الحمد، عليه يكون حظر التجوال من الساعة العاشرة مساءاً وحتى السادسة صباحاً. كان إسماعيل بالغرفة يذرعها ذاهباً وآيباً يصارع إنفعالاته.

فقالت مسرورة الحمد لله، على الأقل تخلوا السهر وتراعوا بيوتكم.

- رد ساخراً تبقى مصيبة و...

ابتلع مؤخرة الجملة، حفاظاً على مشاعرها، انعطف تجاه غرفة الإنقلاب. طرق الباب بسابته طرقات مزعجة، تتفق وتلف أعصابه.

نطق بصوت غليظ جاف

- يا بنت اصحي.

تمطت أولاً أنّت تغالب فتر الوسن. أبعدت الغطاء عن وجهها وقالت: خير يا خال.

بكرة ما تروحي الجامعة. سامعة.

- حاضر.

غفل راجعاً بتوتر.

أعادت الغطاء على وجهها لم تدر كم لبثت في النوم، لكنها حينما فركت عينيها لم تجد الظلمة لها سبيل.

إنتعلت حذائها وغادرت الفراش وهي ترزح تحت وطئة الخمول، عالجت قفل الباب بمشقة يسرت أصطكاك أسنانها. إنسلت تتهاوى بوهن ريان. سارت الهوينة للحوض. أزالت آثار النوم. أعطاها دلق الماء على وجهها حيوية قابلة للزيادة. لم تعر صمتها قيمة. كانت تود استئناف النشاط، في الترتيب لميعاد اللقاء.

عاينت لصورتها بالمرآة، قارنت بين روعة العبس وحسن طلاقة الوجه، تهبلت فغدت أكثر إشراقاً. تملكتها نزعة المكايدة، قررت الجلوس قرب خالها، نوت نتفيذ المؤامرة، إتخذت مكاناً بجاوره. كان وجهه مغضن، يرتجف شاربه مع هزة ساقه المردفة. بالأخرى، تحنحت، مكثت مدة صامتة طمعاً في حديثه. نفذ صبرها فقالت مدعية الهزل.

- ماله الخال مكتئب.

ردت هدى بحنق.

البلد فيها إنقلاب عسكري فاشل وحالة طوارئ.

فأنبرت جذعة.

- صحيح يا خال.

- أف بدأ بها إسماعيل، قبل اعتداله، ثم أنفجر ساخطاً.

- الآن ترسخت قناعتي، أن البلد ليس فيها فكر مستنير، إنما دجل، شعوذة، كذب، إدعاء عظمة.

فإنقلاب مايو، ابتدع التشرد بقانون الصالح العام. أما إنقلاب الإنقاذ الله يستر، ربما دفننا أحياء.

ما تسبق البلا قبل وقوعه، يمكن ربنا يجعل فيه خير. عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

ضحك إسماعيل هادئاً ثم أردف.

الأخوان المسلمون يأتي منهم خير، يا هدى التشدد والغلو لا خير فيهما. كان أبي رحمة الله عليه عقب كل صلاة يدعو الحمد لله على التيسير، الحمد لله على التيسير، الحمد لله على التيسير، الدين يسر وليس عسر يا بشر.

يا هدى الخير لا يأتي بالفكر المتسلط أياً كان، إنما بإحترام الرأي الآخر والحوار البناء وإشاعة المحبة.

الإسلام الصحيح وسطية نهج الأزهر الشريف.

- هي يا إسماعيل حكومة الأحزاب، غير الفوضى فيها حاجة.

كارثة الوطن إننا نصنع الفوضى، لنقنن بها الإرهاب والفقر، فالأمم تبنى بتعاقب الرجال وليس بأنبياء الضلال.

تجاهلت الانقلاب ما جرى. إذ لا يعنيها سوى حظر التجول، فقد أجل حظها لوقت غير معلوم.

لفها الإحباط حبَّذت اللجوء للمخدع، كان فتر الإحباط يستشري في جلدها. تمددت، سحبت الكتاب من تحت الوسادة، تابعت القراءة، تمت القصيدة الأخيرة. نظرت للغلاف، خاطبت صورتي باحترام.

لقد أقنعتني بنور عينيك، فما زال أمامك صرير الحذاء.

خطر ببالها حظر التجوال، تعكر مزاجها لبعد اللقاء المرتقب. غمرتها موجة قلق، تركت الغرفة لشعورها بالاختناق خرجت للفناء، ذرعته طولاً وعرضاً أفلح الهواء البارد بتلطيف حدة التوتر. عزمت العودة للاعتكاف. كانت هدى تضع الشاي على المنضدة، تخطتها وفي نيتها العزلة. هتكت هدى ستار وحدتها، قائلة بنفاق.

- تعالي أشربي الشاي.

فقالت وهي منهارة.

ما عندي نفس.

استقرت على حافة السرير، شبكت أصابعها فوق رأسها، الصداع

يكاد يشق دماغها نصفين. ملت التقوقع، حامت ارجاء الغرفة. ناجت نفسها، ليس لك يا الانقلاب وسيلة لتلافي الدمار سوى مقابلته. جمعت الفكرة المتاحة، حللتها، حددت الاحتمالات المتوقعة رشحت أثنتين للتنفيذ. أجرت مقارنة التفضيل. كان لقاء المنتزه العائلي أوفر حظاً، لسهولة الانفراد واستحالة الاختلاء. تخمرت الفكرة، آمنت بطرحها على خالها. ذهبت إليه حافية وقفت قبالته ساكتة، ريثما ينهي قراءة صفحة كتابه، سعلت، رماها بلحظة استكشافية ثم بادرها.

خير يا بنت.

تثنت.

خير طبعاً.

ران سكوت، كان فيه متهيأ للإصغاء. كانت هي مجهدة، تنتقي الكلمات المناسبة لعرض اقتراحها. استوثقت نجاحه. فابتدرت بالسؤال؟

- ما رأيك يا خال في يوم ترفيهي؟
- اقتراح جميل ينقصه إختيار اليوم.
- لو ما عندك مانع يكون الجمعة القادمة.
- بشرط دعوة خالتي ميمونة وأولادها.
- موافق.

أذاع التلفزيون البيان للمرة السابعة مع الموسيقى، فاعتلت وجهه

فترة خاطبها بها.

مصيبة وحلت.

لم تلق له بالا، فقد استجلبت الموسيقى العسكرية طيف الرائد عمر، بالأخص إختلاساته الشهوانية، هتفت سعيدة لخياله.

- وقع أقدامك مزيف.

فأنت غير مطابق للمواصفات.

إرتفعت معنوياتها لآفاق بعيدة، غيرت موازين أحاسيسها. كان أولها تقلصات معدتها الخاوية. عصرتها بقوة فسكتت. ثانيهما قانون الطوارئ ففيه تقل حركة المركبات العامة والخاصة، المدينة تصبح ميتة، شوارعها خالية من المارة قبل آذان العصر، العصافير تشقشق كئيبة على ضفاف النيلين. الظلال صامتة تتأفف من أتربة الأعاصير.

تسامت عن وقاحته بإبرام الموعد ضحى. تهلل وجهها، رغم وجود سبعة أيام قادمة. طوقت الوسادة. تأوهت للذة دغدغة نهديها. تأهت في أغوار أنوثتها، تهيأ عقلها الباطني لإشباع الفطرة. تقلبت كما تشتهي وحلكة الليل تتقهقر ببطء، فخيل إليها أنها أطول ليلة في التاريخ. تذكرت أرق السبعة ليالي الآتية كان الهم يفوق طاقة صبرها.. بكت تركت دمعها يغسل كدر سنينها المنصرمة. عضت شفتها السفلى بحرقة. سمعت النداء، سترت مفاتنها بأطراف قميص النوم. قامت تتطهر لأداء الصلاة. تحشمت للفريضة، ختمت أورادها بالصلاة

على النبي تغيرت مفاهيمها. إذ تنزلت سكينة جدية الطابع، ظلت معها حتى طلوع الشمس. نثرت حول جيدها عطراً منعشاً، تأبطت حقيبتها. خرجت في قمة البهاء. كان طبعها سمحاً، لم تجد مندوحة للمس منكبي هدى بتحنان، وتلك جالسة تسكب شاي الصباح. ذهلت هدى للسلوك الرفيع الغير منتظر فقالت برقة مفعمة.

- تفضلي الشاي.

رسمت الانقلاب تبسماً حلواً، ثم التصقت بها. سرى بينهما ود حميم، تكفل بإزالة الرواسب القديمة. شملهما إسماعيل بنظرة عدم التصديق، لكن الواقع فرض عليه موقف إيجابي ينمي المودة. عجز لسانه عن الإطراء. لكن راحته نقلت مشاعره الطيبة بمسهما برأفة، أطرقتا لها. قاد الانقلاب من يدها بلغا درج الباب. استدارا سوياً، لوحا بسرور بليغ. تهلل وجه هدى للمبادرة الرفيعة، خفق قلبها لمعاينة إسماعيل. تلاهثت انفاسها تضامنا مع عبارة.

ترجع بالسلامة.

إنتشى إسماعيل لألفة المرأتين المتبادلة، فأنطلق بالسيارة قرير العين. كانت الانقلاب تتفرس وجوه السابلة الجامدة، التي يستحيل التكهن بقبولها أو رفضها الانقلاب العسكري الفاشل، إنما الصفة الغالبة هي التعاسة. نزلت بروح معنوية عالية، يشكل التحدي حجر زاويتها. مدت بطاقتها برباطة جأش متماسكة، جعلت الحرس يمتثل طواعية للتعامل الحضاري الرفيع.

تجاوزت الفناء. كانت الملصقات الجديدة على الجدران، تندد بالحركة الإنقلابية الفاشلة وأخرى تنادي بسقوط حكومة الجبهة القومية الإسلامية زوراً. زفرت أنّة استهتار. دلفت للممر المحفوف بأشجار الزينة. تخطت ثلثيه. رأت منصور في الجزء الأخير، قادم تجاهها، وطنت نفسها لمواجهته. نمّى داخلها الشعور بالقوة. وقفت قبالته بصلف حقيقي. إلتزمت الصمت، وصرامة الوجه.

فابتدر حديثه بالحماقة.

- بما أنني من أبناء النهود، أنصحك بالانضمام للاتجاه الإسلامي.

للاعتبارات الآتية.

أولاً: السلطة تحت تصرفنا ولن نسمح لأحد بالإستيلاء عليها، وشعارنا الأمثل، الولاء قبل الكفاءة.

ثانياً: المال رهن إشارتنا، يعني بصراحة، نملك فرص العمل وحياة الرفاهية الرغدة.

ثالثاً: بعد الإنقلاب الفاشل سنصادر جامعة القاهرة فرع الخرطوم من مصر وندعم الطلاب الموالين.

وأخيراً سنغير النظام في مصر ولو بعد مائة عام. بالعربي الفصيح نبني حضارة وادي النيل، وفق رؤيانا الإسلامية. ابتسم بخبث، ثم أردف بدهاء نتن، اللهم بلغت فأشهد.

زحزحته عن أمامها، بدفعة راحتها ثم قالت بلا إكتراث.

ما قلته لا يعنيني في شيء إنك لن تشتريني أبداً.

داهمتني عطسة شديدة، فوقتني من أحلام يغظتي، إستردت وعي كاملاً. تلفت حولي. خالي مضجع يطالع الصحف، الدكتورة قمر، تتصفح مجلة علمية. الطفلان يتباريان في لعبة الحظ. رهف مهتمة بالمذاكرة. عدت لذاتي. كانت لحظة شرودي رهيبة، استطعت فيها استرجاع الأحداث العجيبة، بترابط مدهش، من تلافيف عقلي بالكم الهائل للمشاهد القيمة، تاريخيا وسياسياً ودينياً وأحلاماً لنفسي طائشة تمنيت فعلها، إن عزم الانقلاب تحليل شخصيتي، بلور في داخلي كوامن الإبداع المخبؤة. فغزلت حقائق الماضي والحاضر، خطر ببالي اللقاء المزعوم، الذي اخبرتني به سحر. تحللت من الواقع انسقت مستهاما وراء الأطياف تأنقت لدرجة الكمال، نظرت لشخصي بالمرآة، لممت فراستي وخيالي الخصب اللذان مكناني من سبر أغوار نفسيتها، المرهفة رغم البون بيننا، لويت فمي وفي مهجتي، ترآت صورة غلاف كتاب مبادئ علم النفس المشطورة، حركت قدمي على الأرض، لم أسمع صرير حذائي. تولاني قنوط، عصف بالأحلام الجميلة التي بنيتها. عدلت عن موقفي، خلعت حذائي نويت تبديل ملابسي الأنيقة. شرعت في فك أزرار القميص، سمعت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد يتلوا بالمذياع **﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون - أولئك جزاؤهم**

مغفرة من ربهم وجنّات تجري من تحتها الإنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين».

أُلهِمتُ صلاة ركعتين أديتها بخشوع تام. لبست حذائي، سرت خطوتين تناهي إلى صرير حذائي. اطمان قلبي، مضيت فيما عقدت عزمه. اختلست النظرات، خرجت متخفياً، مشيت على أمشاطي، صوت نعلي جميل، هبط درج السلم، أخذت نفسا هادئا. كل شيء كما أريد، عالجت قفل الباب الخارجي، بتروي مهد الاحساس بالتفاؤل. كانت الحركة دؤوبة، بالأزقة والشوارع، الشمس مرتفعة بمقدار يبعث الدفء.

ركبت سيارة أجرة للمعهد. تنازعتني مخاوف عقلت لساني عن الثرثرة. توقفت عند البوابة الكبيرة. ترجلت مرتبكا. كان صوت نعلي ضعيف لا يرضي طموحي، ولجت بأحاسيس خطيرة تنذر بالكارثة. أبصرت الطلاب على الأرائك ينتظرون درس الصباح. دنوت فتبينت سحر، خالجني الشعور باكذوبة الأمر، اعتصرني الأسى فابطأت، سحر ما زالت توليني ظهرها. احتواني يأس محكم، قررت صرف النظر عن الموضوع برمته. قصرت المسافة، هيأت نفسي للتحية التفتت الفتاة على حين غرة. هبت لرؤيتي كالممسوسة، رأيت في عينيها إطلالة الفرح.

إنمحت ظنوني الهدامة كلمح البصر، شرد مني الكلام.

طال السكوت. فقالت معاتبة.

- مالك تأخرت والله فكرت أمشي لولا إصرار الزملاء.

لم أقل حرفاً

أخذتني قصياً، ثم همست بخفوت.

اللقاء اليوم بالمنتزه العائلي.

مدت يدها تودعني، تمسكت بها واستفسرت

- أمشي لوحدي من هنا.

- طبعاً أنا عندي أشياء لازم اسويها في البيت.

خفضت رأسها مدة، ثم استأنفت بنغمة تطريب.

- مع السلامة اشوفك هناك وغمزت بخبث.

تصبب عرقي لهول اقتحام المجهول، جرجرت رجلي ميمما محطة المواصلات، كانت بائعات الشاي بالعشش، جالسات فوق مقاعد بدائية. الزبائن يحملقون لوجوههن المطلية بالمساحيق. افوههن مبتسمة تمشيا مع ضرورة العمل. لم يخامرني شكاً أن زمر الشباب ليس بغيتهم الشاي. لعنت الفقر الذي يبيح أكل السحت، وسحق كرامة الإنسان، صعدت المركبة العامة، قلبي له وجيب سريع. نهبت السيارة الأرض. الفكر المخيفة تتداعى عليّ، مستهدفة مثولي للتحليل النفسي الطامة الكبرى. أنبت نفسي التي زجت بي في معترك يهين كرامتي الإنسانية. جنحت السيارة ناحية الجسر الحديدي العتيق. داعب النسيم صفحة خدي، انتشت مسامات جلدي

وأعصابي ما زالت مشدودة. مالت السيارة لجانب الرصيف الأيمن للوقوف، سمعت ضربات قلبي، سرى بساقي تخدير اعاق سيري. كانت المسافة رغم قصرها أطول بعد في التاريخ. تريثت ريثما اعبر الطريق المعبد. ضغط قدمي والحذاء بالأسفلت. كان الصوت لا بأس به اجتزت شارع المرور السريع تأنيت في مشيتي، أرهفت السمع. كان الصرير عاليا بمقدار فاق ما أصبو إليه.

شملني اليقين بدفئه. دخلت المنتزه، تجولت بالممر الطويل. خيل إليّ ان الجمع الغفير ينظر لمشتي العجائبية تمهلت أمام العاب الأطفال. كان صراخ فزعهم به رنّة متعة الخوف، الفتيات البالغات بالمزالق، يصرخن أيضا، مسترجعات شقاوة الطفولة التي حرمن منها، على العشب الأخضر يتمدد العاشقون، يتناجون بالحب، أرضيت هواية تطفلي بالتطلع لحركات الألعاب المرعبة. انحرفت يساري افتش ضالتي سحر. لمحت محبين مختلين يتوسوسون بوجد الهيام.

غيرت مساري شمالا، أبصرت العائلات تتفيأ الظلال الوريفة. الزمت خطايا وطئ البلاط بثبات، وأنا أقترب، كان صوت حذائ لا يخف على اذن، أشرأبت اعناق الفتيات نحوي، تقاضيت عن نظرات الإعجاب، مضيت قدما أنشد معللتي حولت عنقي جنوبا. شاهدت سحر تجلس القرفصاء، تسمّرت هنيهة لالتقاء ناظرينا، فرت شفتيها العنقودية لما لحظتني. شعرت بساقي ترتجف، لمحتها تلمز صاحبتها. سمعت دقات قلبي. استدارت الفتاة التي كان ظهرها

يواليني. رأيت جمال يجل عنه الوصف، فتحت فمي أساعد به أنفاسي اللاهثة للخروج، تملينا ببعض وأهدابنا لا يرف جفنها. اشارت سحر لي بالمضي ناحية الشط. حملت ساقيي الثقيلتين تجاه ضفة النيل. كان حذائي يئن تحت قدمي، معلنا فحولتي الطاغية. اصغيت إليه منتشيا زودني انينه بالرجولة رويدا رويدا، تسلقت درجتين ارتقيت بهما لحافة الشاطئ، استنشقت نسيم النهر المعطر بعبير الأزهار، ملأت رئتي منه، فصرت قوي الشكيمة. إنشغلت برؤية المراكب تمخر في عباب النيل. سلب لبي منظر الضفاف الجميل، الجزر المونقة تستقطب هجرة العصافير، لكن سرعان ما تؤوب لأشجار ملتقى النيلين الباسقة، تمارس فيها الشقشقة والتغريد، رفعت رأسي لأرى ما تصنع، بهرت لقبل موسم التزاوج العنيفة. رجعت رأسي لما كان، تابعت الموج المتحرك نحو الشمال. كانت أذني مرهفة الإصغاء تلتقط جميع الأصوات، ورغم الضوضاء الصاخبة، إستطاعت تمييز وقع حذاء مدبب كان خافتا ثم صار يعلو متحديا فوضى الضوضاء، تقاضيت عنه عمداً، لكنه أخذ يطرق سمعي بشدة. نضح جسمي عرقا، بلل قميصي. سمعت الوقع بالدرج إعترتني رجفة خفيفة لما شممت العطر النفاذ، إستدرت تلقائيا للجنوب. كانت الفتاتان عند حافة الجسر. هرعت دون وعي للقياهما. ضغطت يد سحر بحرارة إكتسبت الثقة بنفسي. سحبت كفي عن كفها. تلقفت الراحة الممدودة إليّ، رنوت لسحر بتركيز خرافي، أستمد منه رباطة الجأش، إحتويت اليد المغطاة بطرف الثوب، أومأت برأسي دون قصد، شاطرتني بهزة رأس أيجابية، مع خفر فاتن قطع الشك باليقين. ندت مني صرخات

مجلجلات إنتصرت، إنتصرت، إأنتصرت

فقت ويداي مرفوعتان في الفضاء، حينها زعقت الدكتورة قمر وهي منتصبة، – مجنون، مجنون لا يصلح زوجا لأبنتي.

obeikandl.com

على جناح الشيطان

يالللى غواك الشيطان
وبقيت على جناحه راكب
تبيع الجنه بالنار
وتخلى الشيطان راكب
بكره تدوق المرار
وتكون فى يدك ساحب
كل ابليس غدار
عملك يوم صاحب
ربك كريم غفار
طاعته فرض واجب
خلق مساء ونهار
ونجوم فى السما وكواكب
اما الشيطان هدام
معدوم الخشى والواجب
وعجبى

عبدالمنعم ابراهيم فودة

obeikandl.com

أهدي كتابي هذا

إلى جميع الشهداء بالوطن العربي

الذين سقطوا على أيدي الإرهاب الأسود الجهول

جعفر نصر

obeikandl.com

أعـــمالي

الابتسامة الأخيرة – طبعة بنغازي – ١٩٩٤م	رواية
مغرد خارج السرب	رواية
بيوت العناكب لم تكمل	رواية
القندول الأكلة الطير ١٩٩١م	مسرحية

رفضتها غالبية الفرق المسرحية بحجة أوسكار وايل لم يكتب مثلها للإنجليز

كلام غزل	ديوان شعر

obeikandl.com